

بسم الله الرحمن الرحيم

شريعة

صحيحة البخاري

كتاب الرقاق

بقلم

سليمان بن محمد اللهيبيد

السعودية - رفحاء

الموقع / رياض المتقين

www.almotaqeen.net

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد

فهذه شرح (كتاب الرقاق) من صحيح البخاري ، سائلاً المولى تبارك وتعالى أن ينفع به

وأن يرزقنا الإخلاص في العلم والعمل .

وعملي في هذا الشرح : هو شرح الأحاديث من كتب العلماء الأجلاء ، كالإمام النووي

والحافظ ابن حجر وغيرهما من العلماء

أسأل الله تعالى أن يرفع قدرهم ، وأن يعلي منزلتهم ، وأن يغفر لنا ولهم

على ما قدموه من جهود في نشر العلم وتوضيحه .

بقلم

سليمان بن محمد اللهيبيد

السعودية - رفحاء

الفهرس

- . فضائل الزهد .
- . أقوال في طول الأمل .
- . غوائل المال .
- . فضائل التوحيد .
- . شروط الشهادتين .
- . فضائل الصبر .
- . التحذير من الطمع .
- . فضائل الإنفاق .
- . فضائل القناعة .
- . فضائل المداومة على العمل الصالح .
 - . فضائل الصبر .
 - . فضائل العفة .
 - . فضائل قيام الليل .
 - . فضائل الشكر .
 - . فضائل التوكل .
 - . فضائل حفظ اللسان .
 - . فضائل البكاء من خشية الله .
 - . عواقب اتباع الشهوات .
 - . فوائد محبة المساكين .
 - . خطر الرياء .
 - . فضائل التواضع
 - . أسباب محبة الله .
 - . أهمية العمل الصالح .
 - . أعمال تنجي من النار .
 - . فضائل الصدقة .
 - . بعض الأعمال الموصلة لرضا الله .
 - . فضائل الشهادة .

بسم الله الرحمن الرحيم.

٨٥ - كتاب الرقاق

١- باب مَا جَاءَ فِي الرَّقَاقِ ، وَأَنْ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ

٦٤١٢- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) .
٦٤١٢ م- قَالَ عَبَّاسُ الْعَنْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَيْسَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ أَبِيهِ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ،
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ.

(نعمتان) النعمة : ما يتنعم به الإنسان ويستلذه .

(مغبون) هو الشراء بأضعاف الثمن ، بأقل من ثمن المثل .

١- في الحديث تشبيه المكلف بالتاجر ، والصحة والفراغ برأس المال ، فمن أحسن استخدام رأس ماله نال الربح ، ومن ضيعه
خسر وندم .

ومعنى الحديث : أن من صح بدنه ، وتفرغ من الأشغال العائقة ، ولم يسع لصلاح آخرته فهو كالمغبون في البيع .

قال ابن الجوزي : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا
اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتماثل ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة،
فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون.

لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم،

٢- كثير من الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ، بل قضوا أوقاتهم بالمعاصي والمنكرات ، من مشاهدة المباريات ، والجلوس عند
القنوات ، والسعي وراء الملهيات ، وكذلك الصحة ، فصرفوها في غير محلها فكانت وبالاً وحسرة عليهم يوم القيامة .

٣- أهمية الوقت والاستفادة منه ، لأن النبي ﷺ بين أن من لم يستفد من وقته فهو مغبون .

والوقت مهم جداً :

أولاً : هو من نعم الله .

قال تعالى (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرت بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

وقال تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) .

أي يخاف كل منهما الآخر .

ولمزيد أهميته نجد أن المولى سبحانه وتعالى يقسم بأجزاء منه :

كقوله تعالى (والفجر وليال عشر) وقوله (والضحى وليال عشر) .

ثانياً : أنه يسأل عنه الإنسان .

كما قال رسول الله ﷺ (لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: ... وذكر منها عن عمره فيما أفناه ، وعن
شبابه فيما أبلاه) رواه الترمذي .

ثالثاً : أن من لم يستفد منه فهو مغبون .

كما في حديث الباب .

رابعاً : حث النبي ﷺ على اغتنام الفراغ قبل الشغل .

قال رسول الله ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس : .. وذكر منها : فراغك قبل شغلك ..) رواه الحاكم .

خامساً : أنه عندما يدخل الكفار النار يوبخهم الله على تفریطهم وعدم اتعاظهم من التعمير .

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) .

قال ابن القيم : وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشتته في العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب .

٤- أن قليل من الناس من يوفق ويعرف شرف وقته وصحته .

٥- أكثر الناس دائماً على غير الحق .

٦- استحباب دعاء الإنسان ربه أن يكون من القليل الذي لم يخسر وقته وصحته .

٧- من أسباب معرفة قيمة الوقت :

أولاً : معرفة أنه يمر مر السحاب .

ثانياً : معرفة أن الإنسان يندم على ضياعه عند الاحتضار في النار .

قال تعالى (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ...) .

وقال تعالى (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ) .

٨- من أقوال السلف :

قال شعبة : لا تجلسوا فارغين فإن الموت يطلبكم .

وقال الحسن : ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك .

وقال عمر بن عبدالعزيز : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .

وقال ابن مسعود : ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسهُ نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي .

وقال الحسن : يا ابن آدم هُناك ضيفك فأحسن إليه (أي بالطاعات) .

وعن نافع : أن ابن عمر كان في بيته يتوضأ لكل صلاة والمصحف فيما بينهما .

كان من دعاء أبي بكر الصديق ﷺ : اللهم لا تدعنا في غمرة ولا تأخذنا على غمرة ولا تجعلنا من الغافلين .

كان من دعاء عمر بن الخطاب ﷺ : اللهم إنا نسألك صلاح الساعات والبكرة في الأوقات .

قال الحسن البصري رحمه الله : يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يوم ذهب بعضك وقال : أدركت أقواماً ما كانوا على أوقاتهم

أشد منكم حرصاً على دارهمكم ودنانيركم .

وقال : ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فأغتنم مني فإني لا أعود .

قال الشاعر :

دقات قلب المرء قائمة له***إن الحياة دقائق وثواني

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها***فالذكر للإنسان عمر ثاني

ذكر الطبراني في الجامع الكبير: فعن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس

أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدا فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها، فقال عمارة: فلقد رأيت عمر بن الخطاب

يغرسها بيده مع أبي " .

قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم:- عن نعيم بن حماد قال: قيل لابن مبارك: إلى متى تتطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله .

قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إني لأمقت الرجل أن أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة .
فائدة :

الإمام النووي (يحيى بن شرف الحوراني) : لم تتجاوز حياة هذا العالم المبارك خمساً وأربعين سنة، ومع هذا فقد مألها بالدراسة والعبادة والحفظ والتأليف، فكان فقيه الشافعية المقدم، ومحدث الفقهاء، وإمام الزهد والورع في زمانه، وقد بارك الله له في وقته وعمره، فأخرج للأمة المصنفات الرائعة في الفقه والحديث والزهد وغيرها، رحمه الله رحمة واسعة.

٦٤١٣- عَنْ أَنَسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَأَصْلِحِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ) .
[م : ١٨٠٥] .

٦٤١٤- عن سهيل بن سعد الساعدي قال (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخُنْدَقِ وَهُوَ يَخْفِرُ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ وَيَمُرُّ بِنَا فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَأَغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ) .
تَابَعَهُ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ .
[م : ١٨٠٤] .

(فِي الْخُنْدَقِ) أي : غزوة الخندق ، قال ابن القيم : وكان الأحزاب في سنة خمس من الهجرة في شوال ، على أصح القولين .
(وَهُوَ يَخْفِرُ) وفي الرواية الأخرى (جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نخفر الخندق) .
(اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) أي : لا عيش باق إلا عيش الآخرة .
١- الحديث دليل على تحقير عيش الدنيا لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء .
في الدنيا موت قال تعالى (كل من عليها فان) .
وفي الآخرة لا موت قال تعالى (وهم فيها خالدون) .
في الدنيا هموم وأحزان :

وفي الآخرة لا أحزان ولا هموم : قال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) .
في الدنيا ينفد ، وفي الآخرة لا ينتهي : قال تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) .
وقد قال الشاعر الزاهد:

لا تركزنَّ إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تسمي ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يا رب إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة
وقال آخر :

وأنظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن .
والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا ؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة ؛ قال الله تعالى :
(قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) .
٢- بيان ما أصاب النبي ﷺ وأصحابه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى من الجهد والتعب .

- ٣- بيان ما منّ الله به تعالى على المؤمنين في تلك الغزوة ، فقد صرف عنهم شر أعدائهم مع كثرة عددهم ومعددهم .
- ٤- مشروعية التحصن وأخذ الأسباب في حرب الأعداء .
- ٥- تعلق النبي عليه الصلاة والسلام بالآخرة
- ٦- إثبات الآخرة .
- ٧- أن العيش الحقيقي عيش الآخرة .
- ٨- أن العيش بالدنيا زائل حقير .
- ٩- تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام لربه
- ١٠- أن العيش الحقيقي هو الباقي لا الزائل .
- ١١- حقارة الدنيا وسرعة زوالها .
- ١٢- ينبغي على القائد تعليق الناس بالآخرة .
- ١٣- فضيلة اليقين الذي يؤدي إلى الإيمان بالآخرة .
- ١٤- التعلق بالآخرة يريح القلب والبدن .
- ١٥- الإيمان بالآخرة حقيقة يقود للطاعات والمساورة إليها .
- فائدة :

- ورد عن النبي ﷺ أنه ذكر الله عز وجل بقوله " إن العيش عيش الآخرة " ، أو " إن الخير خير الآخرة " في معرض رؤية ما يعجب من الدنيا ، وفي معرض مواجهة الشدة والمشقة وذلك في الأحاديث الآتية :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال (حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَنْدَقِ ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفَرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَمِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ ، فَأَعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا ... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا) متفق عليه .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ فَلَمَّا قَالَ : (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، قَالَ : إِنَّمَا الْخَيْرُ خَيْرُ الْآخِرَةِ) . رواه ابن الجارود في " المنتقى " ، وابن خزيمة في " صحيحه " وقال الشيخ الألباني رحمه الله : هذا إسناد حسن .

وقد أخذ بهذه الأحاديث أهل العلم ، فقالوا يستحب للمرء إذا رأى ما يعجبه أن يقول : اللهم إن العيش عيش الآخرة .

ليذكر نفسه بغرته في هذه الدنيا ، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي سباه الشيطان عنها لما استزل أبانا آدم عليه السلام.

قال الإمام النووي رحمه الله: إذا رأى شيئاً يعجبه قال لبيك إن العيش عيش الآخرة .

وقد بوب عليه الإمام البيهقي رحمه الله بقوله: باب كان إذا رأى شيئاً يعجبه قال : لبيك إن العيش عيش الآخرة .

وقال أبو عبد الله المواق المالكي رحمه الله : إذا رأى - يعني النبي ﷺ - شيئاً يعجبه يقول : لبيك إن العيش عيش الآخرة ، فكان يقولها في حال الشدة والرخاء ، وهكذا يقول كل من عرف الآخرة وحقر الدنيا وذمها .

وأما الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقد ذكر ذلك في أكثر من موضع ، قال : الرسول ﷺ كان إذا رأى شيئاً يعجبه من الدنيا يقول:

(لبيك ، إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ) لأن الإنسان إذا رأى ما يعجبه من الدنيا رُبَّمَا يلتفت إليه فيعرض عن الله ، فيقول (لبيك)

استجابةً لله عزَّ وجلَّ، ثم يوطئ نفسه فيقول: (إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة) فهذا العيش الذي يعجبك عيش زائل، والعيش حقيقة هو عيش الآخرة، ولهذا كان من السنَّة إذا رأى الإنسان ما يعجبه في الدُّنيا أن يقول: (ليبك ، إن العيشَ عيشُ الآخرة) .

٢- باب مثل الدُّنيا في الآخرة.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } .

٦٤١٥- سَهْلٌ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

[م : ١٨٨١] .

(وَلَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الغدوة الذهاب أول النهار .

(أَوْ رَوْحَةٌ) الروحة الذهاب آخر النهار .

١- الحديث دليل على حقارة الدنيا وعظمة نعيم الجنة .

ومما يدل على ذلك :

حديث الباب .

وعن المستورد قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ بِحَجِيٍّ بِالسَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ) رواه مسلم .

وذكر المصنف - رحمه الله - الآية التي تدل على حقارة الدنيا وزوالها :

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

(أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ) أي : ما الحياة الدنيا إلا مجرد لعب وهو ، لعب بالأبدان والجوارح ، وهو وغفلة بالقلوب .

(وَزِينَةٌ) تحسين لما هو خارج عن ذات الشيء .

(وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ) أي : يفتخر به بعضكم على بعض ، وقيل : يتفاخرون بالخلقة والقوة ، وقيل : بالأنساب والأحساب كما

كانت عليه العرب .

(وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) أي : يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتناولون بذلك على الفقراء .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال :

(كَمَثَلِ غَيْثٍ) وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) .

(أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) أي : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب

الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها أميل الناس إليها .

● فقوله (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) فيه قولان : الأول : قال ابن مسعود : المراد من الكفار الزراع قال الأزهرى : والعرب تقول

للزراع : كافر ، لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض ، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن ،

الثاني : أن المراد بالكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين ، لأنهم لا يرون سعادة سوى سعادة الدنيا .

قال القرطبي : الكفار هنا : الزراع لأنهم يغطون البذر. وقيل : الكفار هنا الكافرون بالله عز وجل ؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين ، وهذا قول حسن ؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ، ومنهم يظهر ذلك ، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. (ثُمَّ يَهِيحُ) ذلك الزرع ، يعني يبس .

(فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) بعد أن كان خضراً نضراً .

(ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) أي : ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أي : يصير يبساً متحطماً .

هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) .

قال القرطبي : والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن

(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ) أي : وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا ، إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) التي نعيشها الآن .

(إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) أي : متاع يزول قريباً ، فهي متاع فإن غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة .

وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْوُهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) .

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

وقال القرطبي : متاع : أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول . ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود .

٢- الحديث دليل على عظم نعيم الجنة .

ونعيم الآخرة يفضل على متاع الدنيا من وجوه متعددة:

أولاً: متاع الدنيا قليل .

قال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) .

وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل

أحدكم إصبه هذه - وأشار بالسبابة - في اليم، فلينظر بم ترجع) .

ثانياً : هو أفضل من حيث النوع .

فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحليهم وقصورهم - أفضل مما في الدنيا، بل لا وجه للمقارن >

ففي حديث الباب (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها) .
 وفي الحديث الآخر (ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير مما طلعت عليه الشمس) .
 وقارن نساء أهل الجنة بنساء الدنيا لتعلم فضل ما في الجنة على ما في الدنيا .
 قال ﷺ (لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما، وملأت ما بينهما رجاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها) .

ثالثاً : الجنة خالية من الأكدار والهموم والغموم .

قال تعالى عن أهل الجنة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) .

رابعاً : قلوبهم صافية ، وأعمالهم وألسنتهم طيبة .

قال تعالى (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا) .

وقال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) .

٣- الحديث دليل على حقارة الدنيا .

٤- الحديث دليل على فضل الجهاد في سبيل الله .

● **بعض الأعمال الصالحة خير من الدنيا وما فيها :**

حديث الباب (لَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

حديث عائشة . قالت : قال رسول الله ﷺ (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها) .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) .

٣- باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ

٦٤١٦- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ

عَابِرُ سَبِيلٍ) .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ

حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ .

(أَخَذَ) أمسك .

(بِمَنْكِبِي) المنكب : مجتمع رأس العضد والكتف .

(كَأَنَّكَ غَرِيبٌ) أي : مثل الغريب ، والغريب هو البعيد عن وطنه .

(أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) : قيل : أو للتخير ، وقيل بمعنى : بل .

١- الحديث دليل على الزهد في الدنيا وقصر الأمل .

والزهد في الدنيا : هو ترك ما لا ينفع في الآخرة والورع : ترك ما تخاف ضرره في الآخرة .

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها .

قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام ، والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو

زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين .

قال ابن القيم : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، وأصعبه الزهد في الحظوظ . (الفوائد) .

● قال النووي في شرح الحديث: معناه: لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه ، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله .

ففي هذا الحديث التزهيد في الدنيا ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتخذها وطناً يركن إليها ، وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا ، وأن المؤمن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر .

● وقد زهد الله في الدنيا وبين خستها وحقارتها :

قال تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

وقال تعالى (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاً ما وفي الآخرة عذاب شديد ومعبرة من الله ورضواناً وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

وقال تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نُفصل الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقال تعالى (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً) .

وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) .

وقال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لينفتنهم فيه ويرزق ربك خير وأبقى) .

وقال تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهن أهنأهن أهنأهن أهنأهن . وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جزراً) .

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقتها وانقطاعها وسرعة فنائها ، والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإثارة

وقال ابن رجب : فأما الزهد في الدنيا ، فقد كثر في القرآن الإشارة إلى مدحه ، وإلى ذم الرغبة في الدنيا ، قال تعالى (بل تؤثرون

الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال تعالى (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) ، وقال تعالى في قصة قارون (فخرج

على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم

تواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون) إلى قوله (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في

الأرض ولا فساداً وعاقبة للمتقين) ، وقال تعالى (وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) ، وقال (قل متاع

الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً) .

وقال حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة

هي دار القرار) .

وقد ذم الله من كان يريد الدنيا بعمله وسعيه وبيته .

وقال رحمه الله : وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا ، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً ، فيطمئن

فيها ، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر : يُهَيِّئُ جِهَارَهُ لِلرَّحِيلِ .

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم ، قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنه قال (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع

وإن الآخرة هي دار القرار) .

وكان النبي ﷺ يقول (مالي وللدنيا إنما مثلي ومثلك الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها) .

ومن وصايا المسيح ﷺ لأصحابه أنه قال لهم : اعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا .

ورُوي عنه أنه قال : من ذا الذي يبني على موج البحر داراً ، تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً .

ودخل رجلٌ على أبي ذرٍّ ، فجعل يُقَلِّبُ بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذرٍّ ، أين متاعكم ؟ قال : إن لنا بيتاً نوجه إليه ، قال : إنه لا بد لك من متاع مادمت هاهنا ، قال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

ودخلوا على بعض الصالحين ، فقبلوا بصرهم في بيته ، فقالوا له : إننا نرى بيتك بيت رجلٍ مرتحلٍ ، فقال : أمرتحلٌ ؟ لا ، ولكن أُطرِدُ طرداً .

وكان عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ يقول : إن الدنيا قد ارتحلت مدبرةً ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلةً ، ولكلٍّ منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب ، وغداً حسابٌ ولا عمل .

قال بعضُ الحكماء : عجبْتُ ممَّن الدنيا موليَّةٌ عنه ، والآخرة مقبلةٌ إليه يشغتلُ بالمديرة ، ويُعرض عن المقبلة .

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته : إنَّ الدنيا ليست بدارٍ قرارٍكم ، كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن ، فكم من عامرٍ موثَّقٍ عن قليلٍ يَحْرَبُ ، وكم من مقيمٍ مُعْتَبِطٍ عما قليلٍ يَظْعَنُ ، فأحسنوا - رحمكم الله - منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة ، وتزوّدوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التقوى .

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ، ولا وطناً ، فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين : إما أن يكون كأنه غريب مقيمٌ في بلد غريبة ، همُّه التزوّد للرجوع إلى وطنه ، أو يكون كأنه مسافرٌ غير مقيم البتة ، بل هو ليله ونهاره ، يسيرٌ إلى بلد الإقامة ، فلهذا وصَّى النبي ﷺ ابنَ عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين .

فأحدهما : أن ينزل المؤمن نفسه كأنه غريبٌ في الدنيا يتخيّل الإقامة ، لكن في بلد غريبة ، فهو غير متعلّق القلب ببلد الغربة ، بل قلبه متعلّق بوطنه الذي يرجع إليه ، وإمّا هو مقيمٌ في الدنيا ليقضي مرّةً جهازه إلى الرجوع إلى وطنه ، قال الفضيل بن عياض : المؤمن في الدنيا مهمومٌ حزين ، همُّه مرّةً جهازه .

ومن كان في الدنيا كذلك ، فلا همّ له إلا في التزوّد بما ينفعه عند عودته إلى وطنه ، فلا يُنافسُ أهلَ البلد الذي هو غريبٌ بينهم في عزّهم ، ولا يجزعُ من الذلِّ عندهم ، قال الحسن : المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلّها ، ولا يُنافسُ في عزّها ، له شأنٌ ، وللناس شأنٌ .

لما خلق آدم أُسْكِنَ هو وزوجته الجنة ، ثم أهبطا منها ، ووعدا الرجوع إليهما ، وصالح ذريتهما ، فالمؤمن أبدأً يحجُّ إلى وطنه الأوّل .

كان عطاء السليمي يقول في دعائه : اللهم ارحم في الدنيا غُربتي ، وارحم في القبر وحشتي ، وارحم موقفي غداً بين يديك .

الحال الثاني : أن يُنزل المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافرٌ غير مقيم البتة ، وإمّا هو سائرٌ في قطع منازل السفر حتى ينتهي به السفر إلى آخره ، وهو الموت .

ومن كانت هذه حاله في الدنيا ، فهتمُّه تحصيلُ الزاد للسفر ، وليس له همّةٌ في الاستكثار من متاع الدنيا ، ولهذا أوصى النبي ﷺ جماعةً من أصحابه أن يكونوا بلاغهم من الدنيا كزاد الرّكاب .

قيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنّك برجلٍ يرتحلُ كلَّ يومٍ مرحلةً إلى الآخرة ؟

وقال الحسن : إمّا أنت أيامٌ مجموعة ، كلّمّا مضى يومٌ مضى بعضك .

وقال : ابنُ آدم إمّا أنت بين مطيتين يُوضعانك ، يُوضعك النهار إلى الليل ، والليل إلى النهار ، حتى يُسليمانك إلى الآخرة ، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطراً .

وقال : الموتُ معقودٌ في نواصيكم والدنيا تُطوى من ورائكم .

قال داود الطائي : إنما الليل والنهار مراحل يُنزلها الناس مرحلةً مرحلةً حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تُقدِّم في كلِّ مرحلة زاداً لما بين يديها ، فافعل ، فإنَّ انقطاع السَّفر عن قريب ما هو ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزوَّد لسفرك ، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بعثت .

وكتب بعض السَّلف إلى أخ له : يا أخي يُخيَّل لك أنك مقيم ، بل أنت دائب السَّير ، تُساق مع ذلك سوقاً حثيثاً ، الموت موجةٌ إليك ، والدنيا تُطوى من ورائك ، وما مضى من عمرك ، فليس بكأَنَّ عليك حتى يَكُرَّ عليك يوم التغابن .
قال بعض الحكماء : كيف يفرخ بالدينا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سنته ، وسنته تهدم عُمره ، وكيف يفرح من يقوده عُمره إلى أجله ، وتقوده حياته إلى موته .

وقال الفضيل بن عياض لرجلٍ : كم أتت عليك ؟ قال : ستون سنة ، قال فأنت منذ ستين سنة تسيِّر إلى ربك يُوشك أن تَبْلَغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال الفضيل : أتعرف تفسيره تقول : أنا لله عبد وإليه راجع ، فمن عَلِمَ أنَّه لله عبد ، وأنَّه إليه راجع ، فليعلم أنَّه موقوفٌ ، ومن علم أنَّه موقوفٌ ، فليعلم أنَّه مسؤولٌ ، ومن عَلِمَ أنَّه مسؤولٌ ، فليعدَّ للسؤال جواباً ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة ، قال : ما هي ؟ قال : تُحسِّن فيما بقي يُعْفِرَ لك ما مضى فإنك إن أسأت فيما بقي ، أُحذت بما مضى وبما بقي .

قال الحسن : لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار ، وتقريب الآجال ، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثمود وقرونأ بين ذلك كثيراً ، فأصبحوا قديموا على ربهم ، ووردوا على أعمالهم ، وأصبح الليل والنهار غضين جديدين ، لم يُبلهما ما مرَّ به ، مستعدين لمن بقي يمثل ما أصابا به من مضى .

وكتب الأوزاعيُّ إلى أخ له : أما بعد ، فقد أُحيط بك من كلِّ جانب ، واعلم أنَّه يُسأرك في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، فاحذر الله ، والمقام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به ، والسلام .

ترخَّل من الدنيا بزادٍ من التُّقى --- فَعُمُرُك أَيَّامٌ وَهَرٌّ قَلَائِلُ . (جامع العلوم والحكم) .

وقد جاءت أحاديث كثيرة في التزهيد في الدنيا :

قال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي .

قال بعض العلماء : فتأمل هذا المثال ، ومطابقته للواقع سواء ، فإنها في حضرتها كشجرة ، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل ، والعبد مسافر إلى ربه ، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها داراً ، ولا يتخذها قراراً ، بل يستظل بها بقدر الحاجة ، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق .

وعن جابر بن عبد الله (أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوقِ داخلاً من بعض العالِيَةِ والنَّاسِ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدِي أَسْكَ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ » . فَقَالُوا مَا نُحِبُّ أَنْهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ قَالَ « أُحِبُّونَ أَنْهُ لَكُمْ » . قَالُوا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيِّبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسْكَ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ فَقَالَ « فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ » رواه مسلم .

وعن المِسْتَوْد . قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَابَةِ - فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ) رواه مسلم .

وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَفَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءٍ) رواه الترمذي .

٢- فضائل الزهد في الدنيا ؟

أولاً : راحة للقلب والبدن .

قال الحسن : الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن .

ثانياً : سبب محبة الله .

كما في الحديث (ازهد في الدنيا يحبك الله) رواه ابن ماجه .

وفي هذا الحديث يقول الإمام الغزالي -رحمه الله- فجعل الزهد سبباً للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أن من محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى .

ثالثاً : أن الله زهدنا فيها .

فقال تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع) .

وقال سبحانه (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا) .

قال القرطبي : متاع الدنيا منفعتها والاستمتاع بلذاتها ، وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له .

رابعاً : سبب هوان المصائب .

قال علي : من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات .

● من علامات الزهد أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق .

قال ابن رجب : وهذا من علامات الزهد في الدنيا ، واحتقارها ، وقلة الرغبة فيها ، فإن من عظمت الدنيا عنده أحب المدح وكرة الذم ، وربما حمل ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم ، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح ، فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق ، دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه ، وامتلأته من محبة الحق ، وما فيه رضا مولاه ، كما قال ابن مسعود : اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله ، وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم .

● قال ابن القيم : يحسن أعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين :

أحدهما : موضع الترهيد فيها للراغب .

والثاني : عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها ، ولا يأمن إجابة الداعي ، فيستحضر في نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها ، فإنه إن تم عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد .
وقال رحمه الله :

ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك ، وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهد المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده ، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح ، ولا يزيده ذلك إلا زهداً .

● وقال رحمه الله : والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء ثلاثة أشياء :

أحدها : علم العبد أنها ظل زائل ، وخيال زائر ، وأنها كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ..) .

الثاني : علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً ، وأجل خطراً ، وهي دار البقاء .

الثالث : معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها ، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها ، فمتى يتيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ..

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها وتثبت قدمه في مقامه والله الموفق لمن يشاء . (طريق المهجرتين)

● من أقوال السلف :

قال عيسى ابن مريم : من ذا الذي يبني على موج البحار داراً ، تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراراً “ .

وقال موسى عليه الصلاة والسلام : ابروها ولا تعمروها .

وقال أبو الدرداء لأهل الشام : يا أهل الشام ! ما لي أراکم تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتؤمّلون ما لا تدركون ، إن الذين قبلکم بنوا مشيداً وأملوا بعيداً وجمعوا عتيداً ، فأصبح أملهم غروراً ، ومساکنهم قبوراً “ .

قال عمر بن عبد العزيز : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل ، وعزیزها ذليل ، وغنيها فقير ، وشابها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنکم إقبالها مع معرفتکم بسرعة إدبارها ، فالمغرور من اغتر بها .

وقال علي : ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحد منهما بنون ، فکونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

وقال ابن السمك : إن الموتى لم يیکوا من الموت ، ولكنهم يیکون من حسرة الفوات ، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها ، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها .

وقال بعض العلماء : أيها الإنسان إنما أنت نازل من الدنيا في منزل تعمره أيام عمرك ، ثم تخلیه عند موتك لمن ينزله بعدك “ .

قال الشاعر :

إن لله عبداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا إليها فلما علموا أنها ليست لحي ووطنا

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

٢-امثل ابن عمر وصية رسول الله ﷺ قولاً وعملاً .

أما قولاً ، فإنه كان يقول : إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .

وأما في الفعل : فقد كان ﷺ على جانب كبير من الزهد فيها والقناعة منها باليسير الذي يقيم صلبه ويستر بدنه ، وما سوى ذلك يقدمه لغده .

قال جابر بن عبد الله : ما رأينا أحداً إلا قد مالت به الدنيا أو مال بها إلا عبد الله بن عمر .

وقالت عائشة : ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر .

٤- باب في الأمل وطوله

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { فَمَنْ زُحِرِحَ ، عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } .
{ دَرَّهْمٌ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } .

وَقَالَ عَلِيُّ ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ، وَلَا حِسَابَ وَعَدَا حِسَابٌ ، وَلَا عَمَلَ .
{ مِمَّا زُحِرِحَهُ } بِمَبَاعِدِهِ .

٦٤١٧- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ وَقَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا .
٦٤١٨- عَنْ أَنَسٍ قَالَ (خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فَقَالَ هَذَا الْأَمَلُ وَهَذَا أَجَلُهُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخُطُّ الْأَقْرَبُ) .

(خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ) أي : للصحابة .

(خَطًّا مُرَبَّعًا) الظاهر أنه كان بيده المباركة .

(وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ) أي : وسط المربع .

(وَقَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ) أي : الخط المصور مثاله الإنسان .

(وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ) أي : المربع .

(وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ) أي : الخط المستطيل المنفرد .

(وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ) أي : الآفات والأعراض من المرض والجوع والعطش وغيره .

(فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا) أي : أصابه ، وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك .

١- وفي الحديث إشارة إلى الحوض على قصر الأمل ، والاستعداد لبغته الأجل ، وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك .

والشاهد أن الإنسان تتجاوز آماله حدود أجله ، و يخترمه أجله دون أمله ، وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى .

فعن جابر بن زيد ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ ثلاثة أعواد، فغرس إلى جنبه واحداً ثم مشى قليلاً، فغرس آخر ثم مشى قليلاً، فغرس آخر ثم قال : هل تدرّون ما هذا ؟ هذا مثل ابن آدم ، وأجله ، وأمله ، فنفسه تنوق إلى أمله ، ويخترمه أجله دون أمله .

● الحديث دليل على خطر طول الأمل ، وأن على الإنسان أن يقصر أمله .

معنى طول الأمل : هو الاستمرار في الحرص على الدنيا ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة .

وفي تفسير قوله تعالى : (وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ) يقول القرطبي -رحمه الله- : أي يشغلهم عن الطاعة .

و قال ابن حجر : وفي الأمل سر لطيف ، لأنه لولا الأمل ما تحنى أحد بعيش ، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا ، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه ، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة ، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته ، وسبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا .

● وقد جاءت الآيات الكثيرة في ذم طول الأمل :

قال تعالى (دَرَّهْمٌ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (وَتَجِدْتَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

قال رسول الله : (لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل) .
● يتولد من طول الأمل :

الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب؛ لأن رفته وصفاءه إنما يقع بتذكر الموت، والقبر، والثواب، والعقاب، وأهوال يوم القيامة؛ كما قال تعالى (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

قال ابراهيم بن أدهم : من أطلق بصره طال أسفه ، ومن طال أمله ساء عمله .

قال ابن القيم : إضاعة الوقت من طول الأمل .

وقال الحسن : ما أطال عبداً الأمل إلا أساء العمل .

وقال الفضيل: إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قصر الأمل .

وقال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على الأمل، والعاقل يعتمد على العمل .

وقال ابن القيم : مفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل .

وقال الحسن: إياك والتسويف؛ فإنك بيومك ولست بغدك .

قال الغزالي : إذا طولت أملك قلت طاعتك .

وقال بعضهم : الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه .

وقال يحيى بن معاذ : الأمل قاطع عن كل خير ، والطمع مانع من كل حق .

وقال ابن مسعود : لا يطولنّ عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل فإن كل ما هو آت قريب .

وقال معروف الكرخي : نعوذ بالله من طول الأمل ، فإنه يمنع خير العمل .

قال ابن بطال: الخير ينبغي أن يبادر به ؛ فإن الآفات تعرض ، والموانع تمنع ، والموت لا يؤمن .

وقال القرطبي : (ويُلَهِّهُمُ الْأَمَلُ) أي : يشغلهم عن الطاعة .

قال علي : إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى؛ فأما طول الأمل فينسي الآخرة،

وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق .

ومن أقوال ابن الجوزي : الأمل مذموم إلا للعلماء فلولا ما صنعوا ، وإني رأيت خلقاً كثيراً غرهم الشباب ونسوا فقد الأقران،

وألهامهم طول الأمل ، ومن الاعتزاز طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه ، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً.

ويجب على من لا يدري متى يبعثه الموت أن يكون مستعداً .

٢- الحث على قصر الأمل .

قال ابن القيم : قصر الأمل : هو العلم بقرب الرحيل ، وسرعة انقضاء مدة الحياة ، وهو من أنفع الأمور للقلب ، فإنه يبعثه

على معافاة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طيء صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء،

ويحثه على قضاء جهاز سفره ، وتدارك الفارط ، ويُرْهِدُهُ فِي الدُّنْيَا ، ويرغبه في الآخرة ، فيقوم بقلبه _ إذا داوم مطالعة قصر

الأمل _ شاهد من شواهد اليقين ، يريه فناء الدنيا ، وسرعة انقضائها ، وقلة ما بقي منها ، وأنها قد ترحلت مدبرة ، ولم يبق

منها إلا صباية كصباية الإناء يتصاها صاحبها ، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمس على رؤوس الجبال ، ويريه بقاء الآخرة ودوامها ، وأنها قد ترحلت مقبلة ، وقد جاء أشراتها وعلاماتها ، وأنها مع لقائها كمسافر قد خرج صاحبه يتلقاه ، فكل منهما يسير إلى الآخر ، فيوشك أن يلتقيا سريعاً .

إلى أن قال رحمه الله : ويكفي في قصر الأمل :

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ)

وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) .

وقوله تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) .

وقوله تعالى (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال : إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه .

ثم قال رحمه الله : وقصر الأمل بناؤه على أمرين :

يتيقن زوال الدنيا ومفارتها .

وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها .

● وقال : ليس للعبد أنفع من قصر الأمل ، ولا أضر من التسويف وطول الأمل .

وقال : صدق التأهب للقاء الله ، هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية . (طريق الهجرتين) .

كان علي رضي الله عنه ، يشتد خوفه من اثنتين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق .

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت : كان يقول لي - تعني أبا محمد - إن مت اليوم فأرسلني إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا ، واصنعي كذا ، فقيل لها : أرى رؤيا ؟ قالت : هكذا يقول كل يوم “ .

قال ابن القيم : اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد ، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصداً ، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها .

وقال : وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة : إضاعة القلب ، وإضاعة الوقت ، وإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة ، وإضاعة الوقت من طول الأمل ، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل ، والصلاح كله في اتباع الهدى ، والاستعداد للقاء . (الفوائد) .

وعن إبراهيم بن سبط قال : قال لي أبو زرعة : لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فحدثني نفسي أن أرجع من ذلك .

قال ابن رجب : وقال سفیان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء ، وقال : كان من دعائهم : اللهم زهدنا في الدنيا ، ووسع علينا منها ، ولا تروها عنا ، فترغبنا فيها . وكذا قال الإمام أحمد : الزهد في الدنيا : قصر الأمل ، وقال مرة : قصر الأمل واليأس مما في أيدي الناس .

ووجه هذا أن قصر الأمل يوجب محبة لقاء الله بالخروج من الدنيا ، وطول الأمل يقتضي محبة البقاء فيها ، فمن قصر أمه ، فقد كره البقاء في الدنيا ، وهذا نهاية الزهد فيها ، والإعراض عنها ، واستدل ابن عيينة لهذا القول بقوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إلى قوله (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ) .

فالزهد في الدنيا يُرَادُ به تفرُّغ القلب من الاشتغال بما ؛ ليتفرَّغ لطلب الله ، ومعرفته ، والقرب منه ، والأنس به ، والشَّوق إلى لقائه .

ثم قال : وبكَلِّ حَالٍ ، فالزهد في الدنيا شعارُ أنبياءِ الله وأوليائه وأحِبَّائِهِ .

قال عمرو بن العاص : ما أبعدَ هديكم من هدي نبيكم - صلى الله عليه وسلم - ، إنَّه كان أزهَدَ النَّاسِ في الدُّنْيَا ، وأنتم أرغبُ النَّاسِ فيها ، خرَّجه الإمام أحمد .

وقال ابن مسعود لأصحابه : أنتم أكثرُ صوماً و صلاةً وجهاداً من أصحاب محمد ﷺ وهُمْ كانوا خيراً منكم ، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: كانوا أزهَدَ منكم في الدنيا، وأرغب منكم في الآخرة .

وقال أبو الدرداء : لئن حلفنم لي على رجلٍ أنَّه أزهَدكم ، لأحلفنَّ لكم أنَّه خيركم .

● قيل : من قصر أمله ، قل همه ، وتنور قلبه .

قَصِرَ الْأَمَالُ فِي الدُّنْيَا تَفُرَّ * فِدَلِيلِ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ

٥- باب مَنْ بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً فَقَدَ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ

لِقَوْلِهِ : { أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ } .

٦٤١٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِينَ سَنَةً . تَابَعَهُ أَبُو حَازِمٍ ، وَابْنُ عَجَلَانَ ، عَنِ الْمُقْبُرِيِّ .

(أَخَّرَ أَجَلَهُ) يعني أطاله .

١- قوله ﷺ (أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ ...) قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاءُ : معناه لَمْ يَتْرُكْ لَهُ عُذْرًا إِذْ أَمَهَلَهُ هَذِهِ الْمُدَّةَ . يقال : أَعْدَرَ الرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْعُذْرِ .

وقال الحافظ ابن حجر : الإعذار إزالة العذر ، والمعنى أنه لم يبق له اعتذار كأن يقول لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به . يقال أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر وممكنه منه ، وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له ، فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية .

● قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) .

قال ابن كثير : أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتمتعتم به في مدة عمركم؟

قال ابن عباس والمحققون : معناه أو لَمْ نُعَمِّرْكُم سِتِينَ سَنَةً ؟ ورجح ذلك ابن كثير في تفسيره ، حيث قال : عن مجاهد ، عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله (أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) ستون سنة ، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث .

قال ابن عاشور : والتعمير : تطويل العمر .

● وقوله تَعَالَى : (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورُ : هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ، وقيل : الشَّيْبُ .

قال ابن كثير : روي عن ابن عباس، وعِكْرِمَةَ، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عُيَيْنَةَ أنهم قالوا: يعني: الشيب.

وقال السُّدِّيُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ) وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر .

لقوله تعالى (وَنَادَاوَا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْثُكَ قَالَ إِنَّكُم مَّا كُنتُمْ لَقَدْ جِئْتَكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُم لَلْحَقِّ كَارِهُونَ) أي: لقد

بيننا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم .
وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا) .

وقال تبارك وتعالى (كَلِمًا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

قال البغوي : هو يعني محمداً ﷺ ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وقال ابن عاشور : والنذير الرسول محمد ﷺ ، ووصف الرسول بالنذير لأن الأهم من شأنه بالنسبة إليهم هو النذارة .

٢- وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لانقضاء الأجل ، وأصرح من ذلك ما أخرجه الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رفعه (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك) .

٣- في الحديث الحث على الازدياد من الخير والأعمال الصالحة والاستغفار في أواخر العمر .

قال وهب بن الورد : إن لله ملكاً ينادي في السماء كل يوم وليلة أبناء الخمسين : زرع دنا حصاده ، أبناء الستين : هلموا إلى الحساب ، أبناء السبعين : ماذا قدمتم وماذا أحرتم ، أبناء الثمانين : لا عذر لكم .

وعن وهب قال : ينادي مناد : أبناء الستين : عدوا أنفسكم في الموتى .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (أعذر ﷻ إلى من بلغه ستين من عمره) .

وفي حديث آخر (إذا كان يوم القيامة نودي أين أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله فيه (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) .

وفي الترمذي عنه ﷺ قال (أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك) .

وفي حديث آخر (معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين) .

وفي حديث آخر (إن لكل شيء حصاداً وحصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين) وفي هذا المعترك قبض النبي ﷺ .

قال سفيان الثوري : من بلغ سن رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفنًا .

قال الفضيل لرجل : كم أتى عليك ؟ قال : ستون سنة، قال له : أنت من ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال فضيل : من علم أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف وأنه مسؤول فليعد للمسألة جواباً ، فقال له الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة، قال : ما هي ؟ قال : تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي .

خذ في جد فقد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر .

أقبل فعسى يقبل منك العذر ... كم تبني كم تنقض كم ذا الغدر .

الأعمال بالخواتيم ، من أصلح فيما بقي غفر له ما مضى ، ومن أساء فيما بقي أخذ بما بقي وما مضى .

قال مسروق : إذا أتتك الأربعون فخذ حذرك .

وقال النخعي : كان يقال لصاحب الأربعين احتفظ بنفسك .

وكان كثير من السلف إذا بلغ الأربعين تفرغ للعبادة .

قال عمر بن عبد العزيز : تمت حجة الله على ابن الأربعين فمات لها ، ورأى في منامه قائلاً يقول له :

إذا ما أتتك الأربعون فعندها ... فاحش الإله وكن للموت حذاراً .

يا أبناء العشرين كم مات من أقرانكم وتحلفتهم ، يا أبناء الثلاثين أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتهم ، يا أبناء الأربعين ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتهم ، يا أبناء الخمسين تنصفتهم المائة وما أنصفتهم ، يا أبناء الستين أنتم على معترك

المنايا قد أشرفتم أتلهون وتلعبون لقد أسرفتم . (لطائف المعارف) .

• وقال ابن الجوزي : العاقل من فهم مقادير الزمان ؛ فإنه فيما قبل البلوغ صبي ، ليس على عمره عيار فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى ، وتعلم العلم ، فإذا رزق الأولاد ، فهو زمان الكسب للمعاملة ، فإذا بلغ الأربعين ، انتهى تمامه ، وقضى مناسك الأجل ، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن .
كأن الفتى يرقى من العمر سلماً ... إلى أن يجوز الأربعين وينحطُ
فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة ، ويكون كل تلمحه لما بين يديه ، ويأخذ في الاستعداد للرحيل ، وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين ، إلا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير .
فإذا بلغ الستين ؛ فقد أعذر الله إليه في الأجل ، وحاز من الزمن ، فليقبل بكليته على جمع زاده ، وتهئية آلات السفر ، وليعتقد أن كل يوم يجيا فيه غنيمة ، ما هي في الحساب ، خصوصاً إذا قوي عليه الضعف وزاد .
وكلما علت سنة فينبغي أن يزيد اجتهاده .

فإذا دخل في عشر الثمانين ليس إلا الوداع ، وما بقي من العمر إلا أسف على تفريط ، أو تعبد على ضعف .

نسأل الله عز وجل يقظة تامة ، تصرف عنا رقاد الغفلات ، وعملاً صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال .

٤- عدم التسوية في الأعمال إذا قارب الإنسان ستين سنة .

٥- أن الله لا يعاقب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٦٤٢٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ) .

[م : ٢٤١١] .

قال الليث ، حَدَّثَنِي يُونُسُ ، وَابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ ، عَنِ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي سَعِيدٌ ، وَأَبُو سَلَمَةَ .

٦٤٢١- عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمْرِ) .

رَوَاهُ شُعْبَةُ ، عَنْ قَتَادَةَ .

[م : ٢٤١٢] .

(طُولِ الأَمَلِ) المراد به هنا هو محبة طول العمر ، كما فسره حديث أنس الثاني .

(الْكَبِيرِ شَابًا) سماه شاباً إشارة إلى قوة استحكام حبه للمال .

١- الحديث دليل على استحكام حب المال وطول الحياة عند الإنسان .

أولاً : حب الإنسان للمال .

قال تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) .

وقال تعالى (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَوْ أَنَّ لابن آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ

إِلَّا التُّرَابَ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ثانياً : المال فتنة ، لأنه يشغل القلب ويلهي عن الطاعة وينسي الآخرة .

قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) .

وقال تعالى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) .

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) .

وقصة الثلاثة - الأقرع والأبرص والأعمى - الذين ابتلاهم الله ، فجحدا اثنان منهما .

وقال تعالى (وَعَلَّمُوا أُمَّمًا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) .

وقال ﷺ (إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على

من تاب) متفق عليه .

وقال ﷺ (يهرم ابن آدم ويهرم معه اثنتان : الحرص على العمر ، والحرص على المال) متفق عليه .

وقال ﷺ (اثنتان يكرهما ابن آدم : يكره الموت والموت خير له من الفتن ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب) رواه أحمد .

وقال ﷺ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنْ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ) رواه البخاري .

وقال ﷺ (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) .

قال ابن رجب : هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا ، وأن فساد الدين

بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريتين باتا في الغنم ، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ، فهما يأكلان في الغنم

ويفتسان فيها .

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم .

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا .

● الحرص على المال على نوعين :

الأول : شدة محبة المال مع شدة طلبه من جوهه المباحة المبالغة في طلبه والجد في تحصيله .

ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له ، وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات

العلی والنعيم المقيم ، فضيعة بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم .

فالحرص يضيع زمانه الشريف يخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره .

قيل لبعض الحكماء : إن فلاناً جمع مالاً ، فقال : فهل جمع أياماً ينفقه فيها ؟ قيل : لا . قال : ما جمع شيئاً .

كان عبد الأحد بن زيد يحلف بالله ، لحرص المرء على الدنيا أخوف عليه عندي من أعدى أعدائه .

وفي بعض الآثار الإسرائيلية : الرزق مقسوم ، والحرص محروم ، ابن آدم ، إذا أفنيت عمرَكَ في طلب الدنيا ، فمتى تطلب الآخرة .

إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزاً فما أنت في يوم القيامة صانع .

قال بعض السلف : إذا كان القدر حقاً فالحرص باطلٌ ، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحدٍ عجزٌ ، وإذا كان

الموت لكلٍ أحدٍ راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

كتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصاً على الدنيا : أما بعد ، فإنك أصبحت حريصاً على الدنيا ، تخدمها وهي تزجرك عن

نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل ، كأنك لم تر حريصاً محروماً ، ولا زاهداً مرزوقاً ، ولا ميتاً عن كثير ، ولا مبلغاً من

الدنيا باليسير .

قال بعض الحكماء : أطول الناس همأ الحسود ، وأهنؤهم عيشأ القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص ، وأخفضهم عيشأ أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط .

الثاني : أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه الحرمه .

قال تعالى (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) .

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

قال طائفة من العلماء : الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنع حقوقها .

والبخل : هو إمساك الإنسان ما في يده .

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وذلك لإعانتها فيهما ، ووجود الشرف بهما ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروي ، إذ لا يحتاج فيهما إليهما ، بقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) أي : والأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل ، فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال ، وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدي ، لا يزول ولا يحول . (تفسير القاسمي) .

ثالثاً : غوائل المال :

أولاً : أنه يجر إلى المعاصي غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعث داعيته إليها .

والمال نوع من القدرة يجر داعيته إلى المعاصي ، ومتى يئس الإنسان من المعصية ، لم تتحرك داعيته إليها .

ومن العصمة أن لا تجدد ، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك ، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

ثانياً : أنه يجر إلى التمتع في المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات .

ثالثاً : أنه يلهيه عن ذكر الله ، وهذا الدال العضال ، فإن صاحب المال يمسي ويصبح متفكراً في ماله وحفظه وزيادته .

رابعاً : حذر الله الاشتغال بالمال - ولو كان حلالاً - عن طاعة الله وعن ذكره وشكره .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

وقال سبحانه (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) .

خامساً : فتنة المال من الفتن التي خشيتها النبي ﷺ على أمته .

قال ﷺ (والله ، لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم) .

سادساً : ذم الله ورسوله عبد المال الذي إذا أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط .

قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) .

سابعاً : وهذا المال إن لم يستخدمه صاحبه في طاعة الله وينفقه في سبيله، كان وبالاً وحسرة عليه .
 قال تعالى (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .
 وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ) .

ثامناً : وبعض الناس يغلط، ويظن أن من رُزق مالا كثيراً، فإنه قد وفق، وهو دليل على محبة الله له! والأمر ليس كذلك، فإن الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، وقد ذكر الله هذا عن الإنسان، وأخبر أن الأمر ليس كما ظن .
 قال تعالى: ﴿ أَجْسَبُونَ أَمَّا مُدَّتْهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيِّنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) .
 وقال تعالى (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا) .

٦- باب العمل الذي يُبتغى به وجهه الله

فيه سعد .

٦٤٢٢- عن الزُّهري ، قال : أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الرَّبِيعِ وَزَعَمَ مُحَمَّدٌ (أَنَّهُ عَقَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) وَقَالَ وَعَقَلَ حِجَّةً مَجَّهَا مِنْ دَلْوٍ كَانَتْ فِي دَارِهِمْ) .

٦٤٢٣- قال : سَمِعْتُ عِثَانَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيَّ ثُمَّ أَحَدَ بَنِي سَالِمٍ قَالَ عَدَا عَلِيٌّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ (لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ) .
 [م : ٢٦٣] .

١- الحديث تقدم شرحه ، فيه أن الموحّد لا يدخل النار ، وتحريم النار على الموحّد ينقسم إلى قسمين :
 أحدهما : تحريم دخول ، وهذا حظ من كُمل توحيده .

والآخر : تحريم خلود ، وهذا حظ من استحق التطهير بالنار من أهل التوحيد ، فيدخلها ثم يُخرج منها ويُدخل الجنة فلا يخلد في النار أبداً .

٢- الحديث دليل على فضل التوحيد ، وأنه سبب للنجاة من النار ، وللتوحيد فضائل :
 أولاً : أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة .

لأن الموحّد يعمل لله سبحانه وتعالى ، وعليه فهو يعمل سراً وعلانية ، أما غير الموحّد كالمراشي مثلاً ، فإنه يتصدق ويصلي ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط ، ولهذا قال بعض السلف : (إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو) .
 ثانياً : أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون .

كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .
 قوله تعالى (لم يلبسوا) أي لم يخلطوا ، قوله تعالى (بظلم) الظلم هنا مقابل الإيمان وهو الشرك .

ثالثاً : أن التوحيد يكفر الذنوب .

عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) . رواه الترمذي
 لأن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً .

رابعاً : أن التوحيد سبب لدخول الجنة .

كما قال ﷺ (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة) .

وقال ﷺ لأبي هريرة: (من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بما قلبه فبشره بالجنة).

خامساً : أن من فضل التوحيد أنه سبب لدخول الجنة بغير حساب .

لحديث ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ... فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... ثم قال : هم الذين لا يسترقون ولا يكتبون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) . متفق عليه .

ولحديث عبادة السابق (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله ..) .

سادساً : أن التوحيد سبب للنجاة من عذاب الله .

لحديث الباب في رواية (هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ) .

سابعاً : أن الله أثنى على الأنبياء بتوحيدهم وسلامتهم من الشرك .

قال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَمَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (والذين هم بربهم لا يشركون) .

٢- أن من شروط لا إله إلا الله الصدق ، ولا إله إلا الله لها شروط :

الأول : الإخلاص :

قال تعالى (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ) .

وقال تعالى (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) .

وقال ﷺ (أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه) رواه البخاري .

وقال ﷺ (إن الله تعالى حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) رواه البخاري .

الثاني : العلم .

قال تعالى (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أي : ب لا إله إلا الله . وهم يعلمون بقلوبهم .

وقال ﷺ (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة) .

الثالث : اليقين .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) .

وقال ﷺ (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقي الله بهما عبد غير شاكٍ فيها إلا دخل الجنة) .

وقال ﷺ لأبي هريرة (اذهب بنعلي هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله ، مستيقناً بما قلبه ، فبشره بالجنة) رواه مسلم .

رابعاً : الانقياد لها المناهي للترك .

قال تعالى (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

خامساً : القبول المناهي للرد .

قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) .

سادساً : الصدق .

لحديث الباب (مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ) .
سابعاً : المحبة لها .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ) .

وقال تعالى (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) .

٣- الحرص على تحقيق التوحيد ، وتحقيق التوحيد ينقسم إلى قسمين باعتبار الحكم :

الأول : تحقيق واجب : وهو تخليصه من الشرك والبدع والمعاصي، وهذا يجب على المكلف أن يسعى فيه. والدليل على هذا التحقيق هو الآية الأولى، والآية الثانية في الباب .

والثاني : تحقيق مستحب : وهو تخلص القلب من التعلق بالمخلوقين وسؤال ما فيه مذلة أو منة .

وهذا دليله الحديث حديث ابن عباس (لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)، وحكم هذا التحقيق مستحب. وضابطه : أن يترك استعطاف الناس وسؤالهم الأمور المباحة. فتترك الحاجة إلى المخلوقين .

٦٤٢٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ) .

(يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى) هذا يسمى عند العلماء حديث قدسي .

إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ) هو الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان ، والمراد بالقبض قبض روحه وهو الموت .
(ثُمَّ احْتَسَبَهُ) أي : صبر على فقدته راجياً الأجر من الله على ذلك ، والاحتساب طلب الأجر من الله خالصاً .

١- الحديث دليل على فضل من صبر واحتسب على فقد من يحبه .

٢- الحديث دليل على فضل الصبر وأن جزاءه دخول الجنة ، ومن فضائل الصبر .

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

ثالثاً : إطلاق البشري لهم .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) .

وقال تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما في حديث الباب (والصبر ضياء) .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

٣- الإنسان تجاه المصيبة له أحوال :

الأول : الصبر .

وهذا واجب .

الثاني : الرضا .

وهو أعلى من الصبر ، وهو أن يكون الأمران عنده سواء .

وهذا مستحب لا واجب على القول الصحيح .

الثالث : الشكر .

وهو أعلى المراتب ، وهو أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة .

الرابع : التسخط .

وهو إما أن يكون بالقلب ، كأن يسخط على ربه ويغضب على ما قدر الله له ، وقد يكون باللسان ، كالدعاء بالويل والثبور .

٧- باب ما يُحذَرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا

٦٤٢٥- عن عَمْرُو بْنِ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ كَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجُرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجَزْيَتِيهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَاحِبَ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ فَوَافَتَهُ صَلَاةُ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَاهُمْ وَقَالَ أَطْنُكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ قَالُوا أَجَلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَبْشِرُوا وَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمُ كَمَا أُلْهِتُهُمْ) .

[م : ٢٩٦١] .

(فَتَنَافَسُوهَا) التنافس من المنافسة وهي الرغبة الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه .

(وَتُلْهِيَكُمُ كَمَا أُلْهِتُهُمْ) وفي الرواية الأخرى (وتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ) أي : لأن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك .

١- الحديث دليل على خطر الدنيا وفتنتها وزهرتها ونضرتها .

قال بن بطال : فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها ، فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها ، ويستدل به على أن الفقر أفضل من الغنى لأن فتنة الدنيا مقرونة بالغنى والغنى مظنة الوقوع في الفتنة التي قد تجر إلى هلاك النفس غالباً والفقير آمن من ذلك .

قال الحافظ رحمه الله: فِيهِ أَنَّ الْمُنَافَسَةَ فِي الدُّنْيَا قَدْ تَجَرَّ إِلَى هَلَاكِ الدِّينِ .

وقال ابن عثيمين رحمه الله: صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، هذا الذي أهلك الناس اليوم ، الذي أهلك الناس اليوم التنافس في الدنيا وكوهم كأهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم ، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له ، وهذا من الانتكاس ، نسأل الله العافية .

٢- إثبات الجزية .

٣- حسن خلق النبي ﷺ .

٤- فضل إدخال السرور والبشرى على الناس .

٥- أن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر .

٦٤٢٦- عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيْتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ إِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا) .

[م : ٢٢٩٦] .

(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا) كان ذلك بعد سبع سنوات ونصف السنة من غزوة أحد إذ كانت في شوال سنة ثلاث .

(فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ) أي : على شهداء أحد .

(صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيْتِ) قيل : المراد الدعاء ، وقيل : صلاة توديع لهم .

(إِنِّي فَرَطُكُمْ) أي : سابقكم ، والفرط هو الذي يتقدم الورد ليصلح الحوض والدلو ونحو ذلك .
(وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ) قَالَ الْعُلَمَاءُ : هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى سُلْطَانِهَا وَمُلْكِهَا ، وَفَتْحَ بِلَادِهَا ، وَأَخَذَ خَزَائِنَ أَمْوَالِهَا ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ وَبِاللَّهِ الْحَمْدُ ، وَهُوَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ .

١- الحديث دليل على خطر فتنة الدنيا وزينتها وخطر التنافس فيها .

٢- استدل به على أن الحوض مخلوق وموجود الآن .

قال النووي : هَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْحَوْضَ حَوْضٌ حَقِيقِيٌّ عَلَى ظَاهِرِهِ كَمَا سَبَقَ ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مَوْجُودٌ الْيَوْمَ .

وجاء في الصحيحين : قوله ﷺ (ومنبري على حوضي) وهذا يحتمل أنه في هذا المكان، لكن لا نشاهده لأنه غيبي، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض .

قَالَ الْقَاضِي : قَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ مِنْبَرُهُ بِعَيْنِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا ، قَالَ : وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ ، قَالَ وَأَنْكَرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ غَيْرَهُ ، قَالَ : وَقِيلَ : إِنَّ لَهُ هُنَاكَ مِنْبَرًا عَلَى حَوْضِهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّ قَصْدَ مِنْبَرِهِ ، وَالْحُضُورَ عِنْدَهُ لِمُلَازِمَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يُورِدُ صَاحِبِهِ الْحَوْضَ وَيَقْتَضِي شُرْبَهُ مِنْهُ .

٣- استدل به من قال بمشروعية الصلاة على الشهيد ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

القول الأول : أنه لا يصلى عليه .

وهذا مذهب ومالك ، والشافعي ، أحمد .

قال ابن قدامة : فأما الصلاة عليه ، فالصحيح أنه لا يصلى عليه ، وهو قول مالك ، والشافعي ، وإسحاق .

قال الشيخ عبد العزيز ابن باز : الشهداء الذين يموتون في المعركة لا تشرع الصلاة عليهم مطلقاً ولا يُغسلون ؛ لأن النبي ﷺ لم يُصَلِّ عَلَى مَنْ لَمْ يُغْسَلِهِمْ . رواه البخاري في صحيحه عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما .

أ- لحديث جابر في شهداء أحد (... وَمَنْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ) .

ب- وعن أنس (أن شهداء أحد لم يُغسلوا ودُفِنوا بدمائهم ولم يُصَلِّ عَلَيْهِمْ) رواه أبو داود .

ج- عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ انه قال في قتلى أحد (لا تغسلوهم فإن كلَّ جرحٍ أو كلَّ دم يفوح مسكاً يوم القيامة ولم يصل عليهم) رواه أحمد .

القول الثاني : أنه يصلى عليه .

وهذا مذهب الحنفية .

أ- لحديث عقبة بن عامر (أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلواته على الميت ، ...) رواه البخاري .

وفي رواية (صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ...) رواه البخاري .

قال العيني رحمه الله : قَالَ الْحَطَّابِيُّ : فِيهِ أَنَّهُ ﷺ قَدْ صَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ بَعْدَ مُدَّةٍ ، قَدَلَّ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ يُصَلَّى عَلَيْهِ كَمَا يُصَلَّى عَلَى مَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَوَّلُ الْخَبَرِ فِي تَرْكِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى مَعْنَى إِشْتِعَالِهِ عَنْهُمْ وَقِلَّةِ فَرَاغِهِ لِذَلِكَ ، وَكَانَ يَوْمًا صَعْبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَعُذِرُوا بِتَرْكِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ . (عمدة القارىء) .

ب- وجاء (أنه ﷺ صلى على حمزة وكبر عليه تسعاً) رجاله ثقات وصححه الألباني .

● أجاب الجمهور عن حديث عقبة بن عامر السابق بعدة أجوبة :

الأول : أن المقصود بصلواته ﷺ على شهداء أحد ، أي : أنه دعا لهم .

الثاني : أن هذا خاص بشهداء أحد ، بدليل أنه لم ينقل أنه صلى على غيرهم من الشهداء .

الثالث : أن هذا خاص به عليه الصلاة والسلام .

قال ابن حجر رحمه الله : فَإِنَّ صَلَاتَهُ عَلَيْهِمْ تَحْتَمِلُ أُمُورًا أُخْرَ : مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ ، ثُمَّ هِيَ وَاقِعَةٌ عَيْنٌ لَا عُمُومَ فِيهَا ، فَكَيْفَ يَنْتَهِضُ الْإِحْتِجَاجُ بِهَا لِذَفْعِ حُكْمٍ قَدْ تَقَرَّرَ ؟ . (الفتح) .

وقال الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي : وَأَمَّا هَذِهِ الصَّلَاةُ فَبِهَا جَوَابَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الدُّعَاءُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا صَلَاةَ الْجِنَازَةِ الْمَعْهُودَةَ ، قَالَ النَّوَوِيُّ : أَيُّ دَعَا لَهُمْ بِدُعَاءِ صَلَاةِ الْمَيِّتِ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِشَهَادَةِ أَحَدٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ قَبْلَ دَفْنِهِمْ كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي صَلَاةِ الْجِنَازَةِ ، وَإِنَّمَا صَلَّى عَلَيْهِمْ فِي الْقُبُورِ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ وَالْحَقِيقَةُ بِمَنْعُونَ الصَّلَاةِ عَلَى الْقَبْرِ مُطْلَقًا ، وَالْقَائِلُونَ بِالصَّلَاةِ عَلَى الْقَبْرِ يُقَيِّدُونَهُ بِمُدَّةٍ مَخْصُوصَةٍ لَعَلَّهَا فَائِتَةٌ هُنَا ، وَلَوْ كَانَتْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمْ وَاجِبَةً لَمَا تَرَكَهَا فِي الْأَوَّلِ . (انتهى من " طرح التثريب) .

قال النووي : وأما حديث عقبة فأجاب أصحابنا وغيرهم : بأن المراد من الصلاة هنا الدعاء (وقوله) صلواته على الميت ، أي دعا لهم كدعاء صلاة الميت ، وهذا التأويل لا بد منه ، وليس المراد صلاة الجنائز المعروفة بالإجماع ، لأنه ﷺ بما فعله عند موته بعد دفنهم بثمان سنين ولو كان صلاة الجنائز المعروفة لما أخرجها ثمان سنين .

وقال ابن القيم : قِيلَ أَمَّا صَلَاتُهُ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ مِنْ قَتْلِهِمْ قُرْبَ مَوْتِهِ كَالْمُودِعِ لَهُمْ وَيُشْبِهُ هَذَا خُرُوجَهُ إِلَى الْبَيْعِ قَبْلَ مَوْتِهِ يَسْتَعْفِرُ لَهُمْ كَالْمُودِعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ فَهَذِهِ كَانَتْ تَوْدِيْعًا مِنْهُ لَهُمْ لَا أَنَّهَا سُنَّةُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمَيِّتِ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَمْ يُؤَخَّرْهَا ثَمَانِ سِنِينَ لَا سِيَّمَا عِنْدَ مَنْ يُصَلِّي عَلَى الْقَبْرِ أَوْ يُصَلِّي عَلَيْهِ إِلَى شَهْرٍ . (زاد المعاد) .

٣- وفيه أن الأمة لا يخاف عليها الإشراف في مستقبل الزمان والمقصود أنه لا يخاف على جميعها أما البعض فقد يقع منه الإشراف وقد وقع والعياذ بالله .

٤- وفيه الحلف من غير استحلاف لتأكيد الخبر الغريب وتعظيمه .

٥- وفيه ما كان عليه ﷺ في آخر حياته في استشهاده بالمصير وتوديعه الأحياء والأموات

٦- وفيه حرصه ﷺ على أمته لآخر لحظة من حياته وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا في مستقبل أيامهم

٦٤٢٧- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ، قِيلَ وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ قَالَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالْشَّرِّ فَصَمَتَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ أَيْنَ السَّائِلُ قَالَ أَنَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ لَقَدْ حَمَدْنَاكَ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ قَالَ : لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ خُلُوةٌ وَإِنْ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا ، أَوْ يُلِمُّ إِلَّا أَكَلَتِ الْخَضِرَةُ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ فَاجْتَرَّتْ وَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خُلُوةٌ مِنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ ، وَمَنْ أَحَدَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ الَّذِي يَأْكُلُ ، وَلَا يَشْبَعُ) .

[م : ١٠٥٢] .

(زَهْرَةُ الدُّنْيَا) أي : حسننها وبهجتها .

(فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالْشَّرِّ) وفي رواية (أَوْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالْشَّرِّ ؟) أي : أتصير النعمة عقوبة ؟ لأن زهرة الدنيا نعمة من الله تعالى ، فهل تعود هذه النعمة نقمة ؟ وهذا استفهام استرشاد لا إنكار .

(فَصَمَتَ النَّبِيُّ ﷺ) وفي الرواية الثانية (ساعة) .

(لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ) قال في الفتح : يؤخذ منه أن الرزق ولو أكثر فهو من جملة الخير ، وإنما يعرض له الشر بعارض البخل

به عمن يستحقه ، والإسراف في إنفاقه فيما لم يُشرع .

(وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ) قيل : هو الفصل المشهور بالإنبات ، وقيل : النهر الصغير ، قال القرطبي : الجدول الذي يُسقى به (يَقْتُلُ حَبَطًا) بفتح الحاء هو انتفاخ البطن من كثرة الأكل .

(أَوْ يُلِمُّ) بضم أوله وكسر ثانيه من الإلمام وهو القرب ، أي : يقارب القتل .

(إِلَّا) بكسر الهمزة .

(آكَلَةَ الْخَضِرَةِ) أي : يقتل كل آكلة إلا آكلة الخضر ، والخضرة : هو ضرب من الكألا يُعجب المشية .

(أَكَلَتْ) وفي رواية (فَإِنَّمَا تَأْكُل) .

(حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا) تننية خاصة وهما جانبا البطن من الحيوان ، حتى إذا شبع .

(اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ) وفي رواية (عين الشمس) .

(فَاجْتَرَّتْ) أي : استرفعت ما أدخلته في كرشها .

(وَتَلَطَّتْ) أي : ألفت ما في بطنها رقيقاً .

(مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ) أي من حلال .

(وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ) المشروع .

(وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ) بأن يأخذ ظلماً ، أو اكتسبه من حرام .

١- الحديث دليل على التحذير من المنافسة في الدنيا .

قال النووي في معنى الحديث : ... أَنَّ هَذَا الَّذِي يَحْضُلُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا لَيْسَ بِخَيْرٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِتْنَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : الْخَيْرُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ هَذِهِ الزَّهْرَةُ بِخَيْرٍ لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْمُنَافَسَةِ وَالِاشْتِعَالِ بِهَا عَنْ كَمَالِ الْإِقْبَالِ عَلَى الْآخِرَةِ ، ثُمَّ ضَرَبَ لِدَلِيلِكَ مَثَلًا فَقَالَ ﷺ : (إِنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكَلَةَ الْخَضِرِ ... إِلَى آخِرِهِ) وَمَعْنَاهُ : أَنَّ نَبَاتَ الرَّبِيعِ وَخَضِرُهُ يَقْتُلُ حَبَطًا بِالتَّخَمَةِ لِكثْرَةِ الْأَكْلِ ، أَوْ يُقَارِبُ الْقَتْلَ إِلَّا إِذَا أَقْتَصَرَ مِنْهُ عَلَى الْيَسِيرِ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ وَتَحْضُلُ بِهِ الْكِفَايَةَ الْمُفْتَصِدَةَ فَإِنَّهُ لَا يَصْرُ ، وَهَكَذَا أَمَالَ هُوَ كَنَبَاتِ الرَّبِيعِ مُسْتَحْسِنَ تَطْلُبُهُ النُّفُوسَ وَتَمِيلُ إِلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَكْثِرُ مِنْهُ وَيَسْتَعْرِقُ فِيهِ غَيْرَ صَارِفٍ لَهُ فِي وُجُوهِهِ ، فَهَذَا يُهْلِكُهُ أَوْ يُقَارِبُ إِهْلَاكَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْتَصِدُ فِيهِ فَلَا يَأْخُذُ إِلَّا بِسِيرٍ ، وَإِنْ أَخَذَ كَثِيرًا فَزَوَّجَهُ فِي وُجُوهِهِ كَمَا تَتَلَطُّ الدَّابَّةُ فَهَذَا لَا يَصْرُهُ .

هَذَا مُخْتَصَرٌ مَعْنَى الْحَدِيثِ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : فِيهِ مَثَلَانِ أَحَدُهُمَا لِلْمُكْتَبِرِ مِنَ الْجَمْعِ الْمَانِعِ مِنَ الْحَقِّ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ) ؛ لِأَنَّ الرَّبِيعَ يُنْبِتُ أَجْرَارَ الْبُقُولِ فَتَسْتَكْثِرُ مِنْهُ الدَّابَّةُ حَتَّى تَهْلِكَ ، وَالثَّانِي لِلْمُفْتَصِدِ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ : (إِلَّا آكَلَةَ الْخَضِرِ) ؛ لِأَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَجْرَارِ الْبُقُولِ ، وَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ : ضَرَبَ ﷺ لَهُمْ مَثَلًا بِحَالَتِي الْمُفْتَصِدِ وَالْمُكْتَبِرِ فَقَالَ ﷺ : أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ نَبَاتَ الرَّبِيعِ خَيْرٌ ، وَبِهِ قِيَامُ الْحَيَوَانَ وَلَيْسَ هُوَ كَذَلِكَ مُطْلَقًا ، بَلْ مِنْهُ مَا يَقْتُلُ أَوْ يُقَارِبُ الْقَتْلَ ، فَحَالَةُ الْمُبْطُونِ الْمُتَخَوِّمِ كَحَالَةِ مَنْ يَجْمَعُ أَمَالَ وَلَا يَصْرِفُهُ فِي وُجُوهِهِ ، فَأَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّ الْإِعْتِدَالَ وَالتَّوَسُّطَ فِي الْجَمْعِ أَحْسَنُ ، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَنْ يَنْفَعُهُ إِكْتَارُهُ وَهُوَ التَّشْبِيهِ بِآكَلَةِ الْخَضِرِ ، وَهَذَا التَّشْبِيهِ لِمَنْ صَرَفَهُ فِي وُجُوهِهِ الشَّرْعِيَّةِ . وَوَجْهَ الشَّبْهِ أَنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ تَأْكُلُ مِنَ الْخَضِرِ حَتَّى تَمْتَلِي خَاصِرَتَهَا ثُمَّ تَتَلَطُّ ، وَهَكَذَا مَنْ يَجْمَعُهُ ثُمَّ يَصْرِفُهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٢- أن المكتسب للمال من غير حله لا يبارك له فيه ، لتشبيبه بالذي يأكل ولا يشبع .

٣- ذم الإسراف وكثرة الأكل . أن اكتساب المال من غير حله ، وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لحقه .

٤- تسمية المال خيراً .

٥- استفهام العالم عما يشكل .

٦- ضرب المثل .

٧- أنه ﷺ كان ينتظر الوحي عند إرادة الجواب عما يسأل عنه .

٨- الحض على إعطاء المسكين والفقير .

٦٤٢٨- عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) قَالَ عِمْرَانُ فَمَا أَدْرِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ قَوْلِهِ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ ، وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيُحُونُونَ ، وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيُنْدَرُونَ ، وَلَا يَفُونَ وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمْنُ) .

[م : ٢٥٣٥] .

٦٤٢٩- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ إِيمَانُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ شَهَادَتُهُمْ) .

[م : ٢٥٣٣] .

١- قوله (خَيْرُكُمْ قَرْنِي) أي : أهل قربي ، وفي لفظ (خير أمتي قربي) . ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) أي : قرن التابعين (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) وهم أتباع التابعين .

في هذا : أن هذه القرون الثلاثة أفضل مما بعدها إلى يوم القيامة .

قال الحافظ : والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة ، وقد سبق في صفة النبي ﷺ قوله (وبعثت في خير قرون بني آدم) وفي رواية بريدة عند احمد (خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم) .

وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل ، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعا وتسعين .

وأما قرن التابعين ، فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين ، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين ، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان والله اعلم .

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين ، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رعويسها وامتنح أهل العلم ليقولوا بخلق القران وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن ، وظهر قوله ﷺ (ثم يفشو الكذب) ظهوراً بيناً ، حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان . (الفتح) .

وقال القرطبي : أن هذه القرون الثلاثة : أفضل مما بعدها إلى يوم القيامة ، وهذه القرون في أنفسها متفاضلة ، فأفضلها : الأول ، ثم الذي بعده ، ثم الذي بعده . هذا ظاهر الحديث . فأما أفضلية الصحابة ، وهم القرن الأول على من بعدهم ، فلا تخفى .

● قوله (ثم الذين يلونهم ...) واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من أتباع التابعين لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد ، محل بحث وإلى الثاني نحا الجمهور والأول قول بن عبد البر .

واحتج بن عبد البر بحديث (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة .

واحتج أيضاً بحديث عمر رفعه (أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني) الحديث أخرجه الطيالسي

وغيره لكن إسناده ضعيف فلا حجة فيه .

واحتج أيضاً بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، قال فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن ، كانوا أيضاً عند ذلك غرباء وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك ، ويشهد له ما رواه مسلم عن أبي هريرة رفعه (بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً كما بدأ فطوبى للغرباء) .

(ومحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة) .

والذي عليه الجمهور هو الحق ، أن الصحابة أفضل ممن بعدهم إلى يوم القيامة كائناً من كان .

قال النووي : **إِتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ قَرْنُهُ ﷺ ، وَالْمُرَادُ أَصْحَابُهُ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ .**

وقال القرطبي : وذهب معظم العلماء إلى خلاف هذا ، وأن من صحب النبي ﷺ ، وراه ولو مرة من عمره ، أفضل من كل من يأتي بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عملٌ ، وهو الحق الذي لا ينبغي أن يصار لغيره ؛ لأمر : أولها : مزية الصحبة ومشاهدة رسول الله ﷺ .

وثانيها : فضيلة السبق للإسلام .

وثالثها : خصوصية الذب عن حضرة رسول الله ﷺ .

ورابعها : فضيلة الهجرة والنصرة .

وخامسها : ضبطهم للشرعية وحفظها عن رسول الله ﷺ .

وسادسها : تبليغها لمن بعدهم .

وسابعها : السبق في النفقة في أول الإسلام .

وثامنها : أن كل خير وفضل وعلم وجهاد ومعروف فعل في الشريعة إلى يوم القيامة ، فحظهم منه أكمل حظٍ ، وثوابهم فيه أجزل ثواب ؛ لأنهم سنوا سنن الخير ، وافتتحوا أبوابه .

● ثم ذكر في الحديث مظاهر الانحراف بعد القرون المفضلة ، وهي ثلاثة :

٢- قوله (**قَوْمٌ يَشْهَدُونَ ، وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**) .

قال الحافظ : يحتمل أن يكون المراد التحمل بدون التحميل ، أو الأداء بدون طلب ، والثاني أقرب .

● فإن قيل : ما الجمع بين حديث زيد بن خالد الجهني أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ**) رواه مسلم .

قال النووي : وفي المراد بهذا الحديث (**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ**) تأويلان :

أَصَحُّهُمَا وَأَشْهَرُهُمَا : تَأْوِيلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ لِإِنْسَانٍ بِحَقِّ ، وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ شَاهِدٌ ، فَيَأْتِي إِلَيْهِ فَيُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ شَاهِدٌ لَهُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى شَهَادَةِ الْحِسْبَةِ ، وَذَلِكَ فِي غَيْرِ حُقُوقِ الْأَدَمِيِّينَ الْمُخْتَصَّةِ بِهِمْ ، فِيمَا تُقْبَلُ فِيهِ شَهَادَةُ الْحِسْبَةِ الطَّلَاقِ وَالْعِنُقِ وَالْوَقْفِ ، وَالْوَصَايَا الْعَامَّةِ ، وَالْحُدُودِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَمَنْ عَلِمَ شَيْئًا مِنْ هَذَا النَّوعِ وَجَبَ عَلَيْهِ رَفْعُهُ إِلَى الْقَاضِي ، وَإِعْلَامُهُ بِهِ وَالشَّهَادَةُ وَاجِبَةٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (**وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) وَكَذَا فِي النَّوعِ الْأَوَّلِ يَلْزَمُ مَنْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ لِإِنْسَانٍ لَا يَعْلَمُهَا أَنْ يُعْلِمَهُ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا أَمَانَةٌ لَهُ عِنْدَهُ . وَحُكْمِي تَأْوِيلُ ثَالِثٍ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَجَازِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي أَدَاءِ الشَّهَادَةِ بَعْدَ طَلَبِهَا لَا قَبْلَهُ ، كَمَا**

يُقَالُ : الْجَوَادُ يُعْطَى قَبْلَ السُّؤَالِ أَيْ : يُعْطَى سَرِيعًا عَقِبَ السُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُنَاقِضَةً لِلْحَدِيثِ الْآخَرِ فِي دَمٍ مَنْ يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدَ فِي قَوْلِهِ ﷺ : " يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ " وَقَدْ تَأَوَّلَ الْعُلَمَاءُ هَذَا تَأْوِيلَاتٍ :

أَصَحُّهَا تَأْوِيلُ أَصْحَابِنَا : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ مَعَهُ شَهَادَةٌ لِأَدَمِيِّ عَالِمٍ بِهَا فَيَأْتِي فَيَشْهَدُ بِهَا قَبْلَ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى شَاهِدِ الرُّؤُوسِ فَيَشْهَدُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ وَمَنْ يُسْتَشْهَدُ .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَتَّصِبُ شَاهِدًا وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ . وَالرَّابِعُ : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَشْهَدُ لِقَوْمٍ بِالْحِنَّةِ أَوْ النَّارِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَهَذَا ضَعِيفٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . (شرح مسلم) .

٣- قوله (وَيُحُونُونَ ، وَلَا يُؤْتَمَنُونَ) .

قال النووي : وَمَعْنَاهُ يُحُونُونَ حِيَانَةَ ظَاهِرَةً بِحَيْثُ لَا يَبْتَمَى مَعَهَا أَمَانَةٌ ، بِخِلَافِ مَنْ خَانَ بِحَقِيرٍ مَرَّةً وَاحِدَةً ؛ فَإِنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَانَ ، وَلَا يُخْرَجُ بِهِ عَنِ الْأَمَانَةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ .

٤- قوله (وَيَنْدِرُونَ ، وَلَا يَفُونَ) .

أي : لا يؤدون ما وجب عليهم .

فيه وجوب الوفاء بالندر ، وهو واجب بلا خلاف ، وَإِنْ كَانَ إِبْتِدَاءَ النَّذْرِ مِنْهَا عَنْهُ كَمَا سَبَقَ فِي بَابِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلَالٌ لِلنَّبُوءَةِ ، وَمُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَإِنَّ كُلَّ الْأُمُورِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا وَقَعَتْ كَمَا أَخْبَرَ .

ففي هذا وجوب الوفاء بالندر ، وفي الحديث (من نذر أن يطيع الله فليطعه) .

وفيه مدح الوفاء بالندر .

٥- قوله (وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمْنُ) .

فبكسر المهملة وفتح الميم بعدها نون ، أي: يجبون التوسع في المأكول والمشرب ، وهي أسباب السمن بالتشديد ، قال ابن التين:

المراد ذم محبته وتعاطيه لا من تخلق بذلك ، وقيل المراد يظهر فيهم كثرة المال ، وقيل: المراد أنهم يتسمنون أي يتكثرون بما ليس

فيهم ويدعون ما ليس لهم من الشرف ، ويحتمل : أن يكون جميع ذلك مراداً .

وقد رواه الترمذي من طريق هلال بن يساف عن عمران بن حصين بلفظ (ثم يجيء قوم يتسمنون ويجبون السمن) وهو ظاهر

في تعاطي السمن على حقيقته فهو أولى ما حمل عليه خبر الباب وإنما كان مذموماً ، لأن السمين غالباً بليد الفهم ثقيل عن

العبادة كما هو مشهور . (الفتح) .

قال النووي : السِّمَانَةُ بِفَتْحِ السِّينِ هِيَ السِّينُ هِيَ السِّمْنُ ، قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ : الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا كَثْرَةُ

اللَّحْمِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْثُرُ ذَلِكَ فِيهِمْ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَتَمَحَّضُوا سِمَانًا ، قَالُوا : وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبُهُ ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ

خِلْقَةٌ فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا ، وَالْمَتَكَسِّبُ لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّعُ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَادِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا

أَنَّهُمْ يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ ، وَيَدْعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الشَّرْفِ وَعَيْرِهِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ جَمْعُهُمُ الْأَمْوَالُ .

٦- تفضيل القرون الثلاثة الأولى .

٧- أن الشر يزيد في الأمة ، قال أنس : (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) .

٨- ذم الاستعجال بالشهادة .

٩- ذم آخر الزمان .

١٠- ذم كثرة الأكل .

٦٤٣٠- عَنْ قَيْسٍ قَالَ (سَمِعْتُ خَبَابًا وَقَدْ اُكْتَوَى يَوْمئِذٍ سَبْعًا فِي بَطْنِهِ وَقَالَ لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِالْمَوْتِ إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ وَإِنَّا أَصْبْنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ) .

[م : ٢٦٨١] .

٦٤٣١- عَنْ قَيْسٍ قَالَ (أَتَيْتُ خَبَابًا وَهُوَ يَبْنِي حَائِطًا لَهُ فَقَالَ إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ مَضَوْا لَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا شَيْئًا وَإِنَّا أَصْبْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ شَيْئًا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ) .

[م : ٢٦٨١] .

٦٤٣٢- عَنْ خَبَابٍ ﷺ قَالَ (هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...) .

[م : ٩٤٠] .

(عَنْ قَيْسٍ) ابن أبي حازم .

(قَالَ : سَمِعْتُ خَبَابًا) ابن الأرت ، الصحابي المشهور .

(وَقَدْ اُكْتَوَى يَوْمئِذٍ سَبْعًا فِي بَطْنِهِ) أي : والحال أنه قد تداوى بالكي من مرض أصابه في بطنه سبع كيات .

(وَقَالَ لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِالْمَوْتِ إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا

بِشَيْءٍ) أي : لم تنقص أجورهم بمعنى أنهم لم يتعجلوها في الدنيا بل بقيت موفرة لهم في الآخرة ، وكأنه عني بأصحابه بعض

الصحابة ممن مات في حياة النبي ﷺ ، فأما من عاش بعده فإنهم اتسعت لهم الفتوح ، ويؤيده حديثه الآخر (هاجرنا مع رسول

الله ﷺ فوقع أجرنا على الله فمننا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً ، منهم مصعب بن عمير ، وقد مضى في الجنائز ، ويحتمل أن

يكون عني جميع من مات قبله وأن من اتسعت له الدنيا لم تؤثر فيه إما لكثرة إخراجهم المال في وجوه البر وكان من يحتاج إليه إذ

ذاك كثيراً ، فكانت تقع لهم الموقع ، ثم لما اتسع الحال جداً وشمل العدل في زمن الخلفاء الراشدين استغنى الناس بحيث صار الغني

لا يجد محتاجاً يضع بره فيه ، ولهذا قال خباب : وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب أي الإنفاق في البنيان .

١- خوف الصحابة من انفتاح الدنيا عليهم ، وأن ذلك نقصاً في درجاتهم .

٢- الحذر من الدنيا وفتنتها .

٣- الحديث دليل على النهي عن تمني الموت .

عن أنس ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فاعلًا ، فليقل : اللَّهُمَّ أَحْبِبْنِي مَا

كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

ولحديث الباب .

٤- واختلف العلماء هل النهي عن تمني الموت نهي عام أم يجوز في أحوال ؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : المنع مطلقاً .

وهذا قول القرطبي .

أ- لحديث الباب .

ب- ولحديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (لا يتمنى أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعيب)

رواه البخاري .

ج-وعنه . قال : قال ﷺ (لا يتمنى أحدكم الموت ، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً) رواه مسلم .

قال القرطبي : وأما حديث أبي هريرة ففيه النهي عن تمني الموت مطلقاً لضرٍ ولغير ضر .

القول الثاني : أنه لا يجوز لضر نزل به من فقر أو مرض ، وأما إذا خاف فتنة في دينه فإنه يجوز . وهذا مذهب جماهير العلماء .

أ- أن النبي ﷺ أطلق - في حديث أبي هريرة - النهي عن تمني الموت ، وقيدته في حديث أنس ، بأن يكون تمنيه لضر نزل به ، فيحمل المطلق على المقيد .

ب- أن مطلق حديث أنس يشمل الضر الدنيوي والأخروي ، لكن المراد إنما هو الضر الدنيوي فقط ، بدليل رواية ابن حبان : (... لضر نزل به في الدنيا) حيث قيد الضر كونه في الدنيا .

ج- أنه قد ورد عن النبي ﷺ ما يدل على جواز الدعاء بالموت عند خوف الفتن ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال (... وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) رواه أحمد .

وقال ﷺ (والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول : ياليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدين إلا البلاء) رواه مسلم .

فقوله ﷺ (وليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين .

قال ابن رجب : وأما تمني خوف فتنة في الدين ، فإنه يجوز بغير خلاف .

وقال في موضع آخر : هو جائز عند أكثر العلماء .

● وقد ورد عن السلف تمني الموت خوف الفتنة .

قال عمر (اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط) .

وتمنت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر فاستكثرتة وقالت : اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعدها ، فماتت قبل أن يدركها عطاء ثان لعمر .

وسأل عمر بن عبد العزيز من ظن به إجابة الدعاء أن يدعو له بالموت ، لما ثقلت عليه الرعية ، وخشي العجز عن القيام بحقوقهم .

وطُلب كثير من السلف الصالح إلى بعض الولايات ، فدعوا لأنفسهم بالموت فماتوا .

واشتهر بعضهم واطلع على بعض عمل أحدهم أو معاملته مع الله فدعا لنفسه بالموت فمات .

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيراً فسئل عن ذلك فقال : ما يدريني لعلي أدخل في بدعة ، لعلي أدخل فيما لا يحل لي ، لعلي أدخل في فتنة أكون قد مت فسبقت هذا .

وفي المسند عن محمود بن لبيد . عن النبي ﷺ قال (اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت ، والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب) .

٤-الحكمة من تحريم تمني الإنسان الموت بسبب الضر الدنيوي ، لأمر :

أولاً : أنه يدل على عدم الصبر ، والمسلم مطالب بالصبر والاحتساب .

ثانياً : أن بقاء المسلم قد يكون خيراً له .

ففي الحديث - وقد سبق - (لا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب) أي يتوب ، وعند أحمد (وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً) .

قال الحافظ : فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت ، فإن الحياة يتسبب منها العمل ، والعمل يحصل زيادة الثواب ، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال .

وقد قال ﷺ : (إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله) .

ثالثاً : أن الإنسان لا يدري ما الأفضل له ، البقاء أم الموت .

٨- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } .
جَمَعَهُ سَعِيرٌ .

قَالَ مُجَاهِدٌ الْغُرُورُ الشَّيْطَانُ .

٦٤٣٣- عن ابنِ أبانٍ . قَالَ (أَتَيْتُ عُثْمَانَ بِطَهْوَرٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكِعَ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ قَالَ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَغْتَرُّوا) .

[م : ٢٢٦] .

(وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ) المقاعدُ بفتح الميم وبالقاف قيل : هي دكاكين عند دار عُثمان بن عفان وقيل : درج ، وقيل : موضع يقرب المسجد اتخذهُ للعود فيه لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ وَالْوُضُوءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، جاء في رواية (وَعِنْدَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ) ومعناه : أن عُثمان قال ما قاله والرِّجال عنده فلم يُخالِفُوهُ ، وقد جاء في رواية رواها البيهقي وغيره أن عُثمان رضي الله تعالى عنه تَوَضَّأَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّ هَذَا ؟ قَالُوا : نَعَمْ وَاللَّهِ أَعْلَمُ . (نووي) .

(من تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ) وفي رواية (تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا) أي : شبه وضوئي ، وهو بضم الواو ، لأن المراد به فعل الوضوء ، وقد ورد عند أبي داود (تَوَضَّأَ مِثْلَ وَضُوءِي هَذَا) .

غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ (المراد بها الصغائر عند جماهير العلماء) .

١- الحديث دليل على فضل الوضوء ، وأن من أحسن الوضوء وتوضأ كما توضأ النبي ﷺ ثم صلى ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه .

ومعنى إحسان الوضوء : أن يأتي به تاماً بكمال صفاته وآدابه ، قال العيني : معنى إحسان الوضوء : الإتيان به تاماً بصفته وآدابه وتكميل سننه .

٢- فضل إحسان العمل .

وإحسان العمل : إتقان العمل إخلاصاً ومتابعة .

قال ابن رجب : والحامل على ذلك أن يعبد العبد ربه كأنه يراه .

وعلم ﷺ معاذاً أن يقول (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وقد وصى ﷺ رجلاً أن يصلي صلاة مودع ، يعني يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى ، فيحمله على ذلك إتقانها وتكميلها وإحسانها .

وقد وردت أحاديث في فضائل الأعمال مقيدة بإحسان العمل .

كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسَنَ إِسْلَامَهُ يُكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ ، الْحَسَنَةُ بَعْشَرُ أُمَّتَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا) .
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أُمَّتَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا) متفق عليه .

وعن عثمان . قال : قال ﷺ (من توضع فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياها من جسده ..) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن بسر قال . قال ﷺ (خير الناس من طال عمره وحسن عمله) رواه الترمذي .

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون مجرد الإكثار منه ، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع عدم الإتقان .

٣- قوله (لَا تَعْتَرُوا) أي : لا تحملوا الغفران على عمومته في جميع الذنوب فتسترسلوا في الذنوب اتكالاً على غفرانها بالصلاة ، فإن الصلاة التي تكفر الذنوب هي المقبولة ، ولا اطلاع لأحد عليه .

وظهر لي جواب آخر ، وهو أن المكفر بالصلاة هي الصغائر ، فلا تغتروا فتمعملوا الكبيرة بناء على تكفير الذنوب بالصلاة ، فإنه خاص بالصغائر ، أو لا تستكثروا من الصغائر ، فإنها بالإصرار تعطي حكم الكبيرة فلا يكفرها ما يكفر الصغيرة ، أو أن ذلك خاص بأهل الطاعة فلا يناله من هو مرتبك في المعصية والله أعلم . (الفتح) .

٤- على المسلم أن يكون خائفاً من عدم قبول العمل ، فلا يُدِلُّ على الله بِعَمَلِهِ ، ولا يَمْتَنِّ بِهِ ، بل يَعْمَلُ الْعَمَلَ وهو خائفٌ ورجلٌ أن لا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ .

قال ابن حجر : قد يصحَّ الْعَمَلُ ويتخلف القبول لِمَانِعٍ .

قال الحسن البصري: إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنَّ الْمُتَّقِينَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا. يَعْنِي إِسَاءَةً فِي الْعَمَلِ وَأَمْنًا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ. الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَيَجْتَهِدُ فِي طَلَبِ رِضَا رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ .. وهو مع ذلك يَخَافُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَنْ تُؤْبِقَهُ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا . رواه البخاري .

قرأ وهيب بن الورد : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) ثم بكى وقال : يا خليل الرحمن ! تَرَفَّعَ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْكَ .

٥- قوله (غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) جمهور العلماء المراد بالذنوب الصغائر دون الكبائر ، فالكبائر لا بد من توبة .

لحديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال (الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ، ما اجتنبت الكبائر) رواه مسلم .

ولحديث عن عثمان ، عن النبي ﷺ قال (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ؛ إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة وكذلك الدهر كله) .

وخرج النسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (والذي نفسي بيده، ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل له: ادخل بسلام).

٩- باب ذهاب الصالحين ويقال الذهاب المطر

٦٤٣٤- عَنْ مِرْدَاسِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ وَيَبْقَى حُفَاةٌ كَحُفَاةِ الشَّعِيرِ ، أَوْ التَّمْرِ لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بِأَلَّةٍ) .
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يُقَالُ حُفَاةٌ وَحُثَالَةٌ .

(يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ) المراد موتهم .

(وَيَبْقَى حُفَاةٌ كَحُفَاةِ الشَّعِيرِ ، أَوْ التَّمْرِ) قال الخطابي : الحثالة الردىء من كل شيء ، وقال ابن التين : الحثالة سقطت الناس (لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بِأَلَّةٍ) أي : لا يرفع لهم قدراً ولا يقيم لهم وزناً .

١- الحديث دليل على أن ذهاب الصالحين من علامات الساعة .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً) رواه أحمد .

والشريطة: يعني أهل الخير والدين ، والعجاج: الغوغاء والأراذل، ومن لا خير فيه.

٢- أن موت الصالحين يكون شيئاً فشيئاً .

٣- الندب إلى الاقتداء بالصالحين .

٤- التحذير من مخالفتهم خشية أن يصير من خالفهم ممن لا يعبأ الله به .

١٠ - باب مَا يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . }

٦٤٣٥ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدَّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةَ وَالْحَمِيصَةَ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) .

٦٤٣٦ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) .
[م : ١٠٤٩] .

٦٤٣٧ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ (لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالًا لِأَحَبَّ أَنْ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ ، وَلَا يَمْلَأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَلَا أَذْرِي مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ أَمْ لَا قَالَ وَسَمِعْتُ ابْنَ الرُّبَيْرِ يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى الْمَنْبَرِ .)
[م : ١٠٤٩] .

٦٤٣٨ - عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ الرُّبَيْرِ عَلَى الْمَنْبَرِ بِمَكَّةَ فِي خُطْبَتِهِ يَقُولُ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلَأً مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا ، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) .

٦٤٣٩ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ (لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) .
[م : ١٠٤٨] .

٦٤٤٠ - عَنْ أَنَسٍ ، عَنْ أَبِي قَالَ : كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ } -----

١ - الحديث دليل على عظم حب الإنسان للمال ، وأنه يحرص على جمعه من جميع الوجوه .

٢ - خطر فتنة المال ، وأنه من أعظم الفتن ، لأنه يحمل صاحبه على الإعراض عن طريق الله تعالى ، ويحمّله أيضاً على الطغيان والبغي .

قال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) .

والمال - أيضاً - فتنة ، لأنه يشغل القلب ويلهي عن الطاعة وينسي الآخرة .

قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) .

وقال تعالى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) .

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) .

وقصة الثلاثة - الأقرع والأبرص والأعمى - الذين ابتلاهم الله ، فوجد اثنين منهما .

وقال تعالى (وَعَلَّمُوا أَمْثَلًا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) .

وقال ﷺ (إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (ما ذئبان جائعان أرسلتا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) .

قال ابن رجب : هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا ، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم ، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها .

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم .
فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا .

● الحرص على المال على نوعين :

الأول : شدة محبة المال مع شدة طلبه من جوهه المباحة المبالغة في طلبه والجد في تحصيله .

ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له ، وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم ، فضيعة بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم .

فالحرص يضيع زمانه الشريف يخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره .

قيل لبعض الحكماء : إن فلاناً جمع مالاً ، فقال : فهل جمع أياماً ينفقه فيها ؟ قيل : لا . قال : ما جمع شيئاً .

الثاني : أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة .

قال تعالى (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) .

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

قال طائفة من العلماء : الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنع حقوقها .

والبخل : هو إمساك الإنسان ما في يده .

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وذلك لإعانتها فيها ، ووجود الشرف بهما ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب

الشرف الأخروي ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً) أي : والأعمال

التي تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، في الجزاء والفائدة

وخير مما يتعلق بهما من الأمل ، فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال ، وما ينال بالباقيات الصالحات من

منازل القرب الرباني والنعيم الأبدي ، لا يزول ولا يحول . (تفسير القاسمي) .

غوائل المال :

أولاً : أنه يجر إلى المعاصي غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعث داعيته إليها .

ثانياً : أنه يجر إلى التمتع في المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات .

ثالثاً : أنه يلهيه عن ذكر الله ، وهذا الدال العضال ، فإن صاحب المال يمتسي ويصبح متفكراً في ماله وحفظه وزيادته .

٣- فضل القناعة والرضا باليسير .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) فَسَّرَ الحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ عَلِيًّا وَابْنَ عَبَّاسٍ وَالحَسَنَ - رضي الله عنهم - فقالوا : الحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ هِيَ القَنَاعَةُ .

وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه .

وعن فضالة (طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا ، وَقَنِعَ) .

وعن عبد الله بن عمرو . قال : قال ﷺ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم .

٤- التحذير من الطمع .

قال ابن الجوزي :

لا عيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير ، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهمم ، وتشتت القلب ، واستعبد العبد ، وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه ، ولا يبالي بمن هو مثله ، إذ عنده ما عنده كما قيل : من رضي بالخلِّ والبُخل لم يستعبده أحد

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعتُ لكنت حراً .

وقال ﷺ (وأعوذ بك من نفس لا تشبع) .

لأن النفس إذا ما رُبيت على القناعة والاقتصاد والاعتصام فإنها لا تشبع ، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله : ما طمحت نفس لشيء من هذه الدنيا فبلغته إلا طمحت إلى ما هو أعلى منه .

قال سعد لابنه : إياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وعليك بالقناعة فإنها مال لا ينفد .

قال علي (وما الخمر الصرف بأذهب لعقول الرجال من الطمع)

قيل :

حسبي بعلمي إن نفع ما الذل إلا في الطمع .

من راقب الله نزع عن سوء ما كان صنع .

وقال عبد العزيز الجرجاني رحمه الله ، يبعث برسالة للعلماء ، قال :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عَظَّموه في النفوس لِعُظْمًا

ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما .

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر : إنَّ الطمع فقر ، وإنَّ اليأس غنى ، وإنَّ الإنسانَ إذا أيسَّ من الشيء استغنى عنه .

والطمع يذهب العلم .

روي أنَّ عبد الله بن سلام لقي كعب الأحمري عند عمر ، فقال : يا كعب ، مَنْ أربابُ العلم ؟ قال : الذين يعملون به ، قال :

فما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد إذ حفظوه وعقلوه ؟ قال : يُذهبه الطمعُ ، وشرُّه النفسُ ، وتطلبُ الحاجات إلى النَّاسِ ،

قال : صدقت .

والطمع يمحق البركة .

فعن حكيم بن حزام ﷺ قال (سألت رسول الله فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم إن هذا

المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه ، كالذي يأكل ولا يشبع) .

قال أبو بكر الوراق : لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال : الشك في المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك؟ لقال : اكتساب الذل ، ولو قيل

ما غايتك؟ لقال : الحرمان .

قال ابن عطاء الله: أنت حر مما أنت عليه آيس، وعبد لما أنت له طامع .

قيل : العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع .

وقيل: إن العقاب يطير في مصاف عزه بحيث لا يرتقي طرف إلى مطاره، ولا تسمو الهمة إلى الوصول إليه، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبي يلعب به، فحين كان في عليائه كان عزيزاً حراً، فلما طمع في قطعة لحم ورغب فيها نزل إليها فقد حرته.

قال الحسن البصري: فساد الدين الطمع وصلاح الدين الورع .

قال الغزالي : وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا ابتغى لهما ثالثاً) وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمرور :

الأول : الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق ، وهو الأصل في القناعة ، فإن من كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة ، وفي الحديث (ما عال من اقتصد) وعنه ﷺ (ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب) وعنه ﷺ (الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضعة وعشرين جزءاً من النبوة) .

الثاني : أن يتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه .

الثالث : أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء ، وما في الحرص والطمع من الذل والمداهنة .

الرابع : أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء ، ويستمتع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجار أو الأبرار فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير .

الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه ، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر الصبر .

وقال بعضهم:

الحرص يُنقص قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه.

وقالوا: العبيد ثلاثة: عبد رِقٍّ، وعبد شهوة، وعبد طمع. (الثلاثة: ٥ / ٥ / ٥١٤٣٦هـ) .

١١- باب قول النبي ﷺ هَذَا الْمَالُ خَصْرَةٌ حُلُوءٌ

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

قَالَ عُمَرُ اللَّيْثِيُّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيْنَتْهُ لَنَا اللَّيْثِيُّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أَنْفَقَهُ فِي حَقِّهِ .

٦٤٤١- عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ (هَذَا الْمَالُ ، وَرَبِّمَا قَالَ سُفْيَانُ : قَالَ لِي يَا حَكِيمُ - إِنَّ هَذَا الْمَالُ خَصْرَةٌ حُلُوءَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ ، وَلَا يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) .

[م : ١٠٣٥] .

(سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ) أي : المال .

(إِنَّ هَذَا الْمَالُ خَصْرَةٌ حُلُوءَةٌ) بفتح الخاء وكسر الضاد ، قال النووي : شَبَّهَهُ فِي الرَّغْبَةِ فِيهِ وَالْمَيْلِ إِلَيْهِ وَحِرْصِ النَّفْسِ عَلَيْهِ بِالْفَاكِهَةِ الْخَضْرَاءِ الْحُلُوءَةِ الْمُسْتَلَدَّةِ ، فَإِنَّ الْأَخْضَرَ مَرْغُوبٌ فِيهِ عَلَى انْفِرَادِهِ ، وَالْحُلُوءُ كَذَلِكَ عَلَى انْفِرَادِهِ فَاجْتِمَاعُهُمَا أَشَدُّ .

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ بَقَائِهِ ؛ لِأَنَّ الْحُضْرَاوَاتِ لَا تَبْقَى وَلَا تُرَادُ لِلْبَقَاءِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(فَمَنْ أَخَذَهُ) أي : من أخذ المال الذي يُبدل له .

(بِطَيْبِ نَفْسٍ) أي : من غير شره ولا إلحاح ، وفي رواية (فمن أخذه بسخاوة نفس) .

قال النووي : وَأَمَّا طَيْبِ النَّفْسِ فَذَكَرَ الْقَاضِي فِيهِ إِحْتِمَالَيْنِ أَظْهَرُهُمَا : أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْإِحْدِ ، وَمَعْنَاهُ : مَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ سُؤَالٍ وَلَا إِشْرَافٍ وَتَطَلُّعٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الدَّفَاعِ ، وَمَعْنَاهُ : مَنْ أَخَذَهُ مِمَّنْ يَدْفَعُ مُنْشَرِحًا بِدَفْعِهِ إِلَيْهِ طَيْبِ النَّفْسِ لَا بِسُؤَالٍ اضْطُرَّ إِلَيْهِ أَوْ نَحْوَهُ مِمَّا لَا تَطْيِبُ مَعَهُ نَفْسُ الدَّفَاعِ .

(بُورِكَ لَهُ فِيهِ) أي : جعل الله تعالى البركة له في ذلك المال .

(وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ) يريد به شدة حرص السائل ، وإشرافه على المسألة .

قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِشْرَافِ النَّفْسِ تَطَلُّعُهَا إِلَيْهِ وَتَعَرُّضُهَا لَهُ وَطَمَعُهَا فِيهِ .

(وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ ، وَلَا يَشْبَعُ) قيل : هُوَ الَّذِي بِهِ دَاءٌ لَا يَشْبَعُ بِسَبَبِهِ ، وَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ التَّشْبِيهَ بِالْبَهِيمَةِ الرَّاعِيَةِ .

(وَالْيَدُ الْعُلْيَا) وهي المنفقة .

(خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) وهي الآخذة .

١- الحديث دليل على أن المال المحرم لا بركة فيه .

أ- قوله تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ) .

ب- لحديث قبيصة . قال : قال ﷺ (فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا) .

ج- حديث أبي سعيد الخدري قال (قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ ! إِلَّا مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا ... الحديث وفيه : فَمَنْ يَأْخُذُ مَالًا بِحَقِّهِ يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ يَأْخُذُ مَالًا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ) .

وفي لفظ (إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوَّةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعَمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ) .

د- حديث الباب (يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوَّةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ) متفق عليه .

ه- عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (الْبَيْعَانِ بِالْحَيْبَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَّتْ بَرَكَتُهُمَا) متفق عليه .

٢- قال ابن حجر رحمه الله : وفيه أن المكتسب للمال من غير حله لا يُبارك له فيه لتشبيهه بالذي يأكل ولا يشبع ، وفيه ذم الإسراف ، وكثرة الأكل والنهم فيه ، وأن اكتساب المال من غير حله ، وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لحقه فيصير غير مبارك ، كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ) .

٣- قال ابن تيمية : فِي الْأَخْذِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ ، فِي الصَّحِيحِ حَدِيثُ حَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ : لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ثُمَّ قَالَ (يَا حَكِيمُ : إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوَّةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) . قَالَ حَكِيمٌ : فَعُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرُزُّ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا . فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ الْعَطَاءَ فَيَأْتِي أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا ثُمَّ إِنَّ عَمَرَ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَتَى أَنْ يَقْبَلَهُ . فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ وَفِي رِوَايَةٍ إِنِّي أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَى حَكِيمٍ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَ

الله له في هذا الفيء فيأبى أن يأخذه فلم يزرأ حكيماً أحداً من الناس بعد النبي ﷺ .
 ففيه أن حكيماً ذكر للنبي ﷺ أنه لا يقبل من أحد شيئاً وأقره النبي ﷺ على ذلك وكذلك الخلفاء بعده . وهذا حجة في جواز الرد وإن كان عن غير مسألة ولا إشراف . وقوله (اليد العليا خير من اليد السفلى) تنبيه له على أن يد الأخذ سفلى .
 وسئل ابن تيمية : عن رجل أعطاه أخ له شيئاً من الدنيا أيقبله ؟ أم يردّه ؟
 فأجاب :

قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لعمر (ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذهُ وما لا فلا تُسعه نفسك)
 وثبت أيضاً في الصحيح (أن حكيماً بن حزام سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم قال : يا حكيماً ما أكثر مسألتك إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه فكان كالذي يأكل ولا يشبع فقال له حكيماً : والذي بعثك بالحق لا أزرأ بعدك من أحد شيئاً) . فكان أبو بكر وعمر يعطيانه فلا يأخذ . فتبين بهذين الحديثين أن الإنسان إذا كان سائلاً بلسانه ، أو مشرفاً إلى ما يُعطاه فلا ينبغي أن يقبله إلا حيث تُباح له المسألة والاستشراف .

وأما إذا أتاه من غير مسألة ؛ ولا إشراف فله أخذه إن كان الذي أعطاه حقه كما أعطى النبي ﷺ عمر من بيت المال فإنه قد كان عملاً فأعطاه عمالته وله أن لا يقبله كما فعل حكيماً بن حزام ما لا يستحقه عليه فإن قبله وكان من غير إشراف له عليه فقد أحسن .

٤- الحديث دليل على فضل الاستعفاف .

٥- من علامات البركة بالمال أخذه بطيب نفس .

٦- الحديث دليل على فضل الإنفاق لقوله (اليد العليا خير من اليد السفلى) .

والمراد باليد العليا : هي المنفقة . والسفلى : هي السائلة .

كما جاء في حديث آخر : (يد الله فوق يد المعطي ، ويد المعطي فوق يد المعطى ، ويد المعطى أسفل الأيدي) .

وقال ﷺ (الأيد ثلاثة : بيد الله العليا ، ويد المعطي التي تليها ، ويد السائل السفلى) .

وقد ورد في فضل الإنفاق في سبيل الله فضائل :

أولاً : أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا تبغ فيه ولا خلة ولا شفاعة) .

وقال تعالى (وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من

الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون) .

ثانياً : مضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مثل الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة والله يضاعف لمن

يشاء والله واسع عليم) .

ثالثاً : أن درجة البر تنال بالإنفاق .

قال تعالى (لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما أُحِبُّون) .

رابعاً : أنها من صفات المتقين .

كما قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين) . الذين يُنفقون في السراء

وَالضَّرَّاءِ وَالكَاطِمِينَ الْعَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهِ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم .

خامساً : الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر .

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

سادساً : أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل .

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِيَّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

سابعاً : أن الله يخلف المنفق .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

ثامناً : أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان .

قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم ، فالصدقة برهان على صحة الإيمان .

تاسعاً : ينال دعاء الملائكة .

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان : يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

عاشراً : فضل من سبق بالإنفاق والجهاد .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى) .

الحادي عشر : أنها ارغام للشيطان وحسن ظن بالله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الثاني عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير .

قال ﷺ (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلِطَ عَلَيْهِ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَفْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) .

الثالث عشر : أن المنفق خير من الآخذ .

قال ﷺ (اليد العليا خير من اليد السفلى) .

١٢ - باب مَا قَدَّمَ مِنْ مَالِهِ فَهُوَ لَهُ

٦٤٤٢ - عن عبد الله قال النبي ﷺ (أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ قَالَ فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ) .

(أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ) قال في (الفتح) أي إن الذي يخلفه الإنسان من المال وإن كان حالاً منسوباً إليه فإنه مجازيه ومن بعد حقيقه .

(مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ) أي : من مال وارثه .

(فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ) بأن تصدق أو أكل أو لبس كما في الحديث الآتي .

(وَمَالٌ وَارِثَةٌ مَا أُخْرَ) فإن عمل فيه بطاعة الله اختص بثوابه عن الميت وإن كان عمل فيه بمعصية الله تعالى فذلك أبعد للمالكة الأول من الانتفاع إن سلم من تبعته .

١- الحديث دليل على أن مال الإنسان حقيقة ما قدمه من عمل صالح وصدقة .

عن عبد الله بن الشَّخِير - بكسر الشين والحاء المعجمتين - رضي الله عنه - ، أنه قال : أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ (أَهْلَكُمْ التَّكَاثُرُ) قَالَ (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي ، مَالِي ، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟) رواه مسلم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ مَا أَكَلَ فَأَفْنَى أَوْ لَبَسَ فَأَبْلَى أَوْ أَعْطَى فَأَقْتَى وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ) رواه مسلم .

فهذا هو الذي يضاف إليه حياً وميتاً بخلاف ما يخلفه من المال .

قال ابن بطال: فيه التحريض على ما يمكن تقديمه من المال في وجوه البرّ والقرب لينتفع به في الآخرة، فإن كل ما يخلفه يصير ملكاً للوارث

وفي عن عائشة رضي الله عنها : أَنَّهُمْ دَبَّحُوا شَاءَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟) قَالَتْ : مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا . قَالَ (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) رواه الترمذي .

ومعناه : تَصَدَّقُوا بِهَا إِلَّا كَتِفُهَا . فَقَالَ : بَقِيَ لَنَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَتِفُهَا .

٢- الحديث دليل على الترغيب في الإنفاق في سبيل الله .

٣- وفيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القرية والبر لينتفع به في الآخرة .

٤- العمل للآخرة .

٥- مصداق لحديث (يشبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) .

٦- الدنيا دار ابتلاء واختبار لا دار قرار .

١٣- باب الْمُكْثِرُونَ هُمُ الْمُقْلُونَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

٦٤٤٣- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ (خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي وَحْدَهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِنْسَانٌ قَالَ : فَطَنَنْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ أَحَدٌ قَالَ : فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ فَالْتَفَتَ فَرَأَى فَقَالَ مَنْ هَذَا قُلْتُ أَبُو ذَرٍّ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَالَى قَالَ فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً فَقَالَ إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْمُقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا فَتَفَحَّ فِيهِ يَمِينُهُ وَشِمَالُهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا قَالَ فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً فَقَالَ لِي اجْلِسْ هَاهُنَا قَالَ فَأَجْلَسَنِي فِي قَاعِ حَوْلِهِ حِجَارَةٌ فَقَالَ لِي اجْلِسْ هَاهُنَا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ قَالَ فَانْطَلَقَ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى لَا أَرَاهُ فَلَبِثَ عَنِّي فَأَطَالَ اللَّبْثَ ثُمَّ إِنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُقْبِلٌ وَهُوَ يَقُولُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ فَلَمَّا جَاءَ لَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهُ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ مَنْ تُكَلِّمُ فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرْجِعُ إِلَيْكَ شَيْئًا قَالَ ذَلِكَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضَ لِي فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ قَالَ بِشَرِّ أُمَّتِكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ يَا جَبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ ، قَالَ : قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ .

قَالَ النَّضْرُ ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ وَحَدَّثَنَا حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ وَالْأَعْمَشُ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ زُفَيْعٍ ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهَبٍ بِهَذَا .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ حَدِيثُ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مُرْسَلٌ لَا يَصِحُّ إِنَّمَا أَرَدْنَا لِلْمَعْرِفَةِ وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ .

قِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ حَدِيثُ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ مُرْسَلٌ أَيْضًا لَا يَصِحُّ وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ وَقَالَ اضْرِبُوا عَلَيَّ حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ هَذَا إِذَا مَاتَ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عِنْدَ الْمَوْتِ .

[م : ٩٤] .

(قوله : باب الْمُكْثِرُونَ هُمُ الْمُقْلُونَ) ووقع في رواية المعرور عن أبي ذر (الأخسرون) بدل (المقلون) وهو بمعناه بناء على أن المراد بالقلة في الحديث قلة الثواب ، وكل من قلَّ ثوابه فهو خاسر . (الفتح) .

(عَنْ أَبِي ذَرٍّ) الصحابي الجليل .

(فَقَالَ إِنَّ الْمُكْثِرِينَ) أي : أموالاً .

(هُمُ الْمُقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ثواباً .

(إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا فَتَفَحَّ فِيهِ يَمِينُهُ وَشِمَالُهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ) كما في الرواية الأخرى (إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا

(والمعنى : إلا من تصدق من الأكثرين في جميع الجوانب ، وهو كناية عن كثرة التصدق ، فذلك ليس من الأخسرين .

١- الحديث دليل على ذم كثرة المال إلا إذا أنفقه في وجوه الخير .

٢- أن الغالب أن المال يكون سبباً للطغيان وقلة الإنفاق .

٣- فضل من كثر ماله وعمل فيها بالخيرات وأنواع الصدقات .

٤- خطر فتنة المال .

٥- الحث على الصدقة في وجوه الخير ، وأنه لا يقتصر على نوع من وجوه البر .

١٤- باب قول النبي ﷺ ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً

٦٤٤٤- عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ قَالَ : قَالَ أَبُو ذَرٍّ (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا يَسُرُّنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْضُدُّهُ لِدَيْنٍ إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمَنْ خَلْفَهُ ثُمَّ مَشَى فَقَالَ إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمَنْ خَلْفَهُ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ثُمَّ قَالَ لِي مَكَانَكَ لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ ثُمَّ انْطَلَقَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى فَسَمِعْتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ فَتَحَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ لِي لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى آتَانِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتًا تَحَوَّفْتُ فَذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ وَهَلْ سَمِعْتَهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ ذَاكَ جَبْرِيلُ آتَانِي فَقَالَ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ) .
[م : ٩٤] .

٦٤٤٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا لَسَرَّيْتُ أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْضُدُّهُ لِدَيْنٍ) .
[م : ٩٩١] .

(قَالَ أَبُو ذَرٍّ) الغفاري .

(كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ) الحرة أرض ذات حجارة سود ، قال الحافظ : الحرة مكان معروف بالمدينة ، من الجانب الشمالي منها .
(فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ) الجبل المعروف .

(مَا يَسُرُّنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ) وفي رواية حفص بن غياث (ما أحب أن لي أحدا ذهباً يأتي علي يوم وليلة أو ثلاث عندي منه دينار) وفي رواية أبي معاوية عن الأعمش عند أحمد (ما أحب أن لي أحدا ذاك ذهباً) وفي رواية أبي شهاب عن الأعمش في الاستئذان (فلما أبصر أحدا قال ما أحب أنه تحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث) .
(إِلَّا شَيْئًا أَرْضُدُّهُ لِدَيْنٍ) أي : أعده أو أحفظه .

(إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ) في هذا أن نفي محبة المال مقيد بعدم الإنفاق ، فيلزم محبة وجوده مع الإنفاق ، فما دام الإنفاق مستمراً لا يكره وجود المال ، وإذا انتفى الإنفاق ثبتت كراهية وجود المال .

(فَقَالَ إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) المراد الإكثار من المال ، والإقلال من ثواب الآخرة ، وهذا في حق من كان مكثراً ولم يتصف بما دل عليه الاستثناء بعده من الإنفاق .

(إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمَنْ خَلْفَهُ) معناه إلا من صرف المال على الناس يميناً وشمالاً وأماماً .

١- الحديث دليل على ذم كثرة المال إلا من أنفقه في وجوه الخير .

٢- الحديث دليل على قلة من يعطى المال وينفقه في وجوه الخير والصدقات .

٣- الحديث دليل على فضل من أعطي مالا وأنفقه في وجوه الخير .

٤-خطر فتنة المال .

٤- قليل من يسلم من فتنة المال .

٥- وجوب سداد الدين .

١٥- باب الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : {أَجْسِبُونَ أَنَّ مَا مُدَّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيِّنَ} إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : {مَنْ ذُوْنِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} .
قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ لَمْ يَعْمَلُوهَا لِأَبَدٍ مِنْ أَنْ يَعْمَلُوهَا .

٦٤٤٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) .

[م : ١٠٥١] . ثيوبي

(عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ) بفتح المهلة والراء ، والعرض : ما ينتفع به من متاع الدنيا .

قال النووي : الْعَرَضُ هُنَا يَفْتَحُ الْعَيْنَ وَالرَّاءَ جَمِيعًا ، وَهُوَ مَتَاعُ الدُّنْيَا .

١- الحديث دليل على أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس لا غنى اليد .

وقد جاء عند أحمد وسعيد بن منصور وغيرهما (إنما الغنى في النفس) وأصله في مسلم ولا بن حبان من حديث أبي ذر قال لي رسول الله ﷺ (يا أبا ذر أتري كثرة المال هو الغنى قلت نعم قال وترى قلة المال هو الفقر قلت نعم يا رسول الله قال : إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب) .

قال بن بطال معنى الحديث : ليس حقيقة الغنى كثرة المال ، لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه فكأنه فقير لشدة حرصه ، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس ، وهو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب فكأنه غني .

وقال القرطبي : ومعنى هذا الحديث : أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح ، هو غنى النفس ، وبيانه : أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع ، فعزت وعظمت ، فجعل لها من الخطوة والنزاهة والتشريف والمدح أكثر ممن كان غنياً بماله ، فقيراً بحرصه وشهره ، فإن ذلك يورطه في رذائل الأمور ، وخسائس الأفعال ، لبخله ودناءة همته ، فيكثر ذمُّه من الناس ، ويصغر قدره فيهم ؛ فيكون أحقر من كل حقير ، وأذل من كل صغير .

وقال النووي : وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : الْغِنَى الْمَحْمُودُ غِنَى النَّفْسِ وَشِبَعُهَا وَقَلَّةُ حِرْصِهَا ، لَا كَثْرَةُ الْمَالِ مَعَ الْحِرْصِ عَلَى الزِّيَادَةِ ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَعْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنَى .

٢-فضل غنى النفس .

٣-فضل العفاف .

٤-ذم الطمع .

٥-فضل تركية النفس وقمعها عن شهواتها .

١٦ - باب فضل الفقر

٦٤٤٧- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ وَإِنْ قَالَ : أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) .

٦٤٤٨- عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ (عُدْنَا خَبَابًا فَقَالَ هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ فَمَرَّةً فَإِذَا غَطَيْنَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا غَطَيْنَا رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ فَأَمَرْنَا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ نَغْطِيَ رَأْسَهُ وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ فَمَرَّتُهُ فَهُوَ يَهْدُهَا) .

[م : ٩٤٠] .

٦٤٤٩- عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ) .
تَابَعَهُ أَيُّوبُ وَعَوْفٌ .

وَقَالَ صَخْرٌ وَحَمَّادُ بْنُ نَجِيحٍ ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

[م : ٢٧٣٨] .

٦٤٥٠- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ (لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ) .

[م : ٥٣٨٦] .

٦٤٥١- عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ (لَقَدْ تُوِّفِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا فِي رَفِيٍّ مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَيْدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفِيٍّ لِي فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ فَكَلَيْتُهُ فَفَنِي) .

[م : ٢٩٧٣] .

(باب فضل الفقر) المراد بالفقر هنا الفقر من المال .

(رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ) أي : هذا رجل من أشرف الناس .

(هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ) أي : جدير وحقيق .

(إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ) أي : تجاب خطبته .

(وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ) أي : تقبل شفاعته ، وفي رواية (وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْمَعَ) وفي رواية ابن حبان (إِذَا سَأَلَ أُعْطِيَ وَإِذَا

حَضَرَ أُدْخِلَ) .

(ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ ...) في رواية (مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ) .

(نُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ) أي : جهة ما عنده من الثواب لا جهة الدنيا .

(فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ) أي : إثابتنا وأجرنا .

(فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ) أي : من عرض الدنيا .

(مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ) من السابقين إلى الإسلام ، ، وإلى الهجرة إلى المدينة .

(وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرْتُهُ فَهَوَّ يَهْدُبُهَا) بفتح أوله وسكون ثانيه أي : يقطفها .

١- الحديث دليل على فضل التقوى ، وأن العبرة عند الله بالتقوى والإيمان لا بالأحساب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَقِّ شَخْصَيْنِ : (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا) فَصَارَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَدْمِيِّينَ خَيْرًا مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي جَنْسِهِ ؛ وَهَذَا تَبَائِنٌ عَظِيمٌ لَا يَحْصُلُ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ مَنْ قَالَ : " مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ " . وَهُوَ الْيَقِينُ وَالْإِيمَانُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ : (وَزِنْتَ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحْتَ ثُمَّ وَزَنَ أَبُو بَكْرٍ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحَ ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وفي الحديث : أَنَّ السِّيَادَةَ بِمُجَرَّدِ الدُّنْيَا لَا أَتَرَ لَهَا ، وَإِنَّمَا الْإِعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِالْآخِرَةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ الَّذِي يُفَوِّتُهُ الْحُظُّ مِنَ الدُّنْيَا يُعَاضُ عَنْهُ بِحَسَنَةِ الْآخِرَةِ ، فَفِيهِ فَضِيلَةٌ لِلْفَقْرِ كَمَا تَرَجَمَ بِهِ ، لَكِنْ لَا حُجَّةَ فِيهِ لِتَفْضِيلِ الْفَقِيرِ عَلَى الْعَنِيِّ كَمَا قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ ، لَكِنْ تَبَيَّنَ مِنْ سِيَاقِ طُرُقِ الْقِصَّةِ أَنَّ جِهَةَ تَفْضِيلِهِ إِنَّمَا هِيَ لِفَضْلِهِ بِالتَّقْوَى .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : " فهذان رجلان أحدهما من أشرف القوم ، وممن له كلمة فيهم ، وممن يجاب إذا خطب ، ويسمع إذا قال ، والثاني بالعكس ، رجل من ضعفاء الناس ليس له قيمة ، إن خطب فلا يجاب ، وإن شفع فلا يشفع ، وإن قال فلا يسمع ، فقال النبي ﷺ (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) أي : خير عند الله عز وجل من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس ينظر إلى الشرف ، والجاه ، والنسب ، والمال ، والصورة ، واللباس ، والمركوب ، والمسكون ، وإنما ينظر إلى القلب والعمل ، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله عز وجل ، وأتاب إلى الله ، وصار ذاكرًا لله تعالى خائفًا منه ، محتبًا إليه ، عاملاً بما يرضي الله عز وجل ، فهذا هو الكريم عند الله ، وهذا هو الوجيه عنده ، وهذا هو الذي لو أقسم على الله لأبره .

فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة ، وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا ، ولكنه ليس له قدر عند الله ، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبة منحطة ، وليس له قيمة عند الناس ، وهو عند الله خير من كثير ممن سواه . (شرح رياض الصالحين) .

٢- جاءت الأحاديث بأن العبرة بالإيمان والتقوى :

منها : ما جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) رواه مسلم .

وعَنْ أَبِي دَرٍّ قَالَ ... كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً فَلِثُ مِنْهَا فَذَكَرْتَنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِي أَسَابَيْتَ فُلَانًا قُلْتُ نَعَمْ قَالَ أَفَلَيْتَ مِنْ أُمِّهِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ... الحديث (رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية : فقلت له : يا ابن السوداء . وقوله عليه الصلاة والسلام : فيك جاهليَّة أي خصلة من خصال الجاهلية .

وحديث الباب .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : لَيْسَتْ هِيَ أَقْوَامٌ يَفْتَحِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ أَوْ لَيْكُونُ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَعَلِ الَّذِي يُدْهَدُهُ الْحِرَاءُ بِأَنْفِهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ (رواه الترمذي .

(والجعل) بضم جيم وفتح عين وهو دويبة سوداء تُدِيرُ الْعَائِطَ يُقَالُ لَهَا الْخُنْفَسَاءُ ، ومعنى (يُدْهَدُهُ) أي يُدْخِرُهُ " بِأَنْفِهِ ، وَالْحِرَاءُ بِكسْرِ الحَاءِ ممدودًا وهو العذرة .

(وعيبة الجاهلية) بضم عين المهملة وكسر الموحدة المُشَدَّدة وَفَتْحِ التَّحِيَّةِ المُشَدَّدة أَي نَحْوَتَهَا وَكِبَرَهَا .

فكل هذه الأحاديث تدل على ما سبق ذكره من أن الشكل واللون لا يُشكِّل تفاخراً وميِّزة وعلوّاً ورفعة ، والواجب على المسلم أن يقرب المتقين والصالحين .

عن عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جَهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ (إِنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ... الحديث) متفق عليه .
٣- اختلف العلماء أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر على أقوال :

القول الأول : أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر .

قال الحافظ في الفتح : وصرح كثير من الشافعية بأن الغني الشاكر أفضل .

أ- لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنُورِ بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . فَقَالَ « وَمَا ذَاكَ » . قَالُوا يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَفَلَا أَعَلَّمْتُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ » . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً » . قَالَ أَبُو صَالِحٍ فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم .

قال النووي : وفي هذا الحديث دليل لمن فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر ، وفي المسألة خلاف مشهور بين السلف والخلف من الطوائف . والله أعلم .

ب- ولقوله ﷺ لسعد (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ...) متفق عليه .

ج- ولحديث كعب بن مالك حين استشار في الخروج من ماله كله فقال (أُمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) متفق عليه .

د- ولحديث عمرو بن العاص . قال : قال ﷺ (يَا عَمْرُو ، نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) رواه مسلم .

هـ- ولحديث سعد . قال : قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْحَقِيَّ) رواه مسلم .

قال ابن حجر : وهو دال لما قلته سواء حملنا الغني فيه على المال أو على غنى النفس فإنه على الأول ظاهر وعلى الثاني يتناول القسمين فيحصل المطلوب .

هـ- أن الغني الشاكر نفعه متعدي ، بخلاف الفقير الصابر فنفعه قاصر على نفسه ، فيكون الأول أفضل من الثاني كما في نظائرها من المسائل .

القول الثاني : الفقير الصابر .

لقوله ﷺ (يدخل الفقراء قبل الأغنياء بخمسائة عام) .

ولقوله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء) .

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن من كان تقياً فهو أفضل .

قال ابن تيمية : قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد وقد حكى في ذلك عن الامام احمد روايتان ، وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر وقال طائفة ثالثة : ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ، وان استويا في ذلك استويا في الفضيلة وهذا أصح الأقوال ، لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالايمن والتقوى وقد قال الله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) .

وقال القرطبي : ذهب قوم إلى تفضيل الغني ؛ لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز ، قال الماوردي : وهذا

مذهب من غلب عليه حب النباهة ، وذهب آخرون إلى تفضيل الفقير ؛ لأن الفقير تارك والغني ملابس ، وترك الدنيا أفضل من ملابسها قال الماوردي : وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين قال الماوردي : وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال ، وأن خيار الأمور أوساطها .

قال ابن هبيرة الوزير الحنبلي : ولو لم يكن في الفقر إلا أنه باب رضاء الله ولو لم يكن في الغنى إلا أنه باب سخط الله ، لأن الإنسان إذا رأى الفقير رضي عن الله في تقديره ، وإذا رأى الغني تسخط بما هو عليه ، وذلك يكفي في فضل الفقير على الغني .
٩- قوله (فَمِمَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ) وهذا مشكل على ما تقدم من تفسير ابتغاء وجه الله ، ويجمع بأن إطلاق الأجر على المال في الدنيا بطريق المجاز بالنسبة لثواب الآخرة ، وذلك أن القصد الأول هو ما تقدم ، لكن منهم من مات قبل الفتح كمصعب بن عمير ، ومنهم من عاش إلى أن فتح عليهم ، ثم انقسموا فمنهم من أعرض عنه وواسى به المحاويع أولاً فأولاً ، بحيث بقي على تلك الحالة الأولى وهم قليل ، منهم أبو ذر ، وهؤلاء ملتحقون بالقسم الأول .
ومنهم من تبسط في بعض المباح فيما يتعلق بكثرة النساء والسراري أو الخدم والملابس ونحو ذلك ولم يستكثر وهم كثير ، ومنهم ابن عمر ، ومنهم من زاد فاستكثر بالتجارة وغيرها مع القيام بالحقوق الواجبة والمندوبة وهم كثير أيضاً ، منهم عبد الرحمن بن عوف .

والى هذين القسمين أشار حباب ، فالقسم الأول وما التحق به توفر له أجره في الآخرة ، والقسم الثاني مقتضى الخبر أنه يحسب عليهم ما وصل إليهم من مال الدنيا من ثوابهم في الآخرة ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه (ما من غازية تغزو فتغنم وتسلم الا تعجلوا ثلثي أجرهم) الحديث ، ومن ثم أثر كثير من السلف قلة المال وقنعوا به اما ليتوفر لهم ثوابهم في الآخرة واما ليكون أقل لحسابهم عليه . (فتح الباري) .

٤- قولها (فكلته ففني) جاء عند أخرجه مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر (أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً فيأتيها بنوها فيسألون الأدم فتعمد إلى العكة فتجد فيها سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته فأتى النبي ﷺ فقال لو تركتها ما زال قائماً) .

وقد استشكل هذا النهي مع الأمر بكيل الطعام وترتيب البركة على ذلك كما تقدم في البيوع من حديث المقدم بن معد يكرب بلفظ (كيلوا طعامكم بيارك لكم فيه) .

وأجيب بأن الكيل عند المبايعه مطلوب من أجل تعلق حق المتبايعين فلهذا القصد يندب ، وأما الكيل عند الإنفاق فقد يبعث عليه الشح فلذلك كره ويؤيده :

ما أخرجه مسلم : عن جابر (أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقٍ شَعِيرٍ فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَأْكُلُ مِنْهُ وَأَمْرَأَتُهُ وَضَيْفُهُمَا حَتَّى كَالَهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ « لَوْ لَمْ تَكَلَّهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ وَلَقَامَ لَكُمْ ») .

قال القرطبي : سبب رفع النماء من ذلك عند العصر والكيل والله أعلم الالتفات بعين الحرص مع معاينة ادرار نعم الله ومواهب كراماته وكثرة بركاته والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها ، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة ، ويستفاد منه أن من رزق شيئاً أو أكرم بكرامة أو لطف به في أمر ما فالمتعبد عليه موالاة الشكر ورؤية المنة لله تعالى ولا يحدث في تلك الحالة تغييراً والله أعلم .

١٧- باب كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَتَحْلِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا

٦٤٥٢- عن أَبِي هُرَيْرَةَ . قَالَ (اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْ كُنْتُ لِأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ وَإِنْ كُنْتُ لِأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يُخْرِجُونَ مِنْهُ فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِشِبَعِي فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِشِبَعِي فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَيْتِي وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي ثُمَّ قَالَ أبا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْحَقُّ وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ فَقَالَ مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ قَالُوا أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ ، أَوْ فُلَانَةٌ قَالَ أبا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي قَالَ وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَصْيَافُ الْإِسْلَامِ لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ ، وَلَا مَالٍ ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا فَسَاءَ بِي ذَلِكَ فَقُلْتُ وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقْوَى بِهَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرِي فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ وَمَا عَسَى أَنْ يُبْلَغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدًّا فَاتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لِي وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ قَالَ يَا أبا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ خُذْ فَأَعْطِهِمْ قَالَ فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَأَعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى يَرَوْى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلُّهُمْ فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ فَقَالَ أبا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَفْعُدْ فَأَشْرَبْ فَفَعَدْتُ فَشَرِبْتُ فَقَالَ اشْرَبْ فَشَرِبْتُ فَمَا زَالَ يَقُولُ اشْرَبْ حَتَّى قُلْتُ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا قَالَ فَارِنِي فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ فَحَمِدَ اللَّهُ وَسَمِيَ وَشَرِبَ الْفُضْلَةَ) .

(إِنْ كُنْتُ لِأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ) أي : ألصق بطني بالأرض .

(وَإِنْ كُنْتُ لِأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ) عند أحمد في طريق عبد الله بن شقيق (أقمت مع أبي هريرة سنة فقال لو رأيتنا وإنه ليأتي على أحدنا الأيام ما يجد طعاماً يقيم به صلبه ، حتى إن كان أحدنا ليأخذ الحجر فيشده به على أخص بطنه ثم يشده بثوبه ليقيم به صلبه) قال العلماء : فائدة شد الحجر المساعدة على الاعتدال والانتصاب أو المنع من كثرة التحلل من الغذاء الذي في البطن لكون الحجر بقدر البطن فيكون الضعف أقل أو لتقليل حرارة الجوع ببرد الحجر ، أو لأن فيه الإشارة إلى كسر النفس .

(وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يُخْرِجُونَ مِنْهُ) الضمير للنبي ﷺ وبعض أصحابه ممن كان طريق منازلهم إلى المسجد متحدة .

(ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ) يشير إلى أنه استمر في مكانه بعد ذهاب أبي بكر إلى أن مر عمر .

(ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَيْتِي وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي) استدلل أبو هريرة بتبسمه ﷺ على أنه عرف ما به ، لأن التبسم تارة يكون لما يعجب وتارة يكون لإيناس من تبسم إليه ولم تكن تلك الحال معجبة فقوي الحمل على الثاني .

(قَالَ الْحَقُّ) أي : اتبع .

(وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ فَدَخَلَ) في رواية (إلى أهله) .

(الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي) وفي رواية أخرى (انطلق) .

(قَالَ وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَصْيَافُ الْإِسْلَامِ) وللسبب في استدعائهم فإنه ﷺ كان يخصصهم بما يأتيه من الصدقة ويشركهم فيما يأتيه من الهدية وقد وقع في رواية يونس بن بكير هذا القدر في أول الحديث ولفظه عن أبي هريرة قال (كان أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال والله الذي لا إله إلا هو الخ) وفيه إشعار بأن أبا هريرة كان منهم .

(لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ ، وَلَا مَالٍ ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ) وقد وقع في حديث طلحة بن عمرو عند أحمد وابن حبان والحاكم (كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة) .

(وَإِذَا أَنْتَهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا) وقد تقدم في الزكاة وغيرها بيان أنه ﷺ كان يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وتقدم في الهبة من حديث أبي هريرة مختصراً من رواية محمد بن زياد عنه (كان النبي ﷺ إذا أتى بطعام سأل عنه فإن قيل صدقة قال لأصحابه كلوا ولم يأكل ، وإن قيل هدية ضرب بيده فأكل معهم) ولأحمد وابن حبان من هذا الوجه (إذا أتى بطعام من غير أهله) ويجمع بين هذا وبين ما وقع في حديث الباب بأن ذلك كان قبل أن تبنى الصفة فكان يقسم الصدقة فيمن يستحقها ويأكل من الهدية مع من حضر من أصحابه .

(فَسَأَعْنِي ذَلِكَ) الإشارة إلى ما تقدم من قوله (ادعهم لي)

(فَقُلْتُ) في نفسي .

(وَمَا هَذَا اللَّبْنُ) أي ما قدره .

(فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ) ووقع في رواية (وأين يقع هذا اللبن من أهل الصفة وأنا ورسول الله) .

(فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ) أي : ففعد كل منهم في المجلس الذي يليق به .

١- الحديث دليل على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من التقلل من الدنيا والزهد فيها .

٢- استحباب الشرب من قعود .

٣- ان خادماً القوم إذا دار عليهم بما يشربون يتناول الإناء من كل واحد فيدفعه هو إلى الذي يليه ولا يدع الرجل يناول رفيقه لما في ذلك من نوع امتهان الضيف .

٤- فيه معجزة عظيمة وقد تقدم لها نظائر في علامات النبوة من تكثير الطعام والشراب ببركته ﷺ .

قال النووي في حديث طعام جابر : فيه الدليل الظاهر والعلم الباهر من أعلام نبوة رسول الله ﷺ ، وَقَدْ تَطَاهَرَتْ أَحَادِيثُ آخَادٍ بِمِثْلِ هَذَا حَتَّى زَادَ جَمُوعُهَا عَلَى التَّوَاتُرِ ، وَحَصَلَ الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ بِالْمَعْنَى الَّذِي اِشْتَرَكَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآخَادِ ، وَهُوَ اِنْخِرَاقُ الْعَادَةِ بِمَا أَتَى بِهِ ﷺ مِنْ تَكْثِيرِ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ الْكَثْرَةَ الظَّاهِرَةَ ، وَتَبَعِ الْمَاءِ وَتَكْثِيرِهِ ، وَتَسْبِيحِ الطَّعَامِ وَحَبْنِ الْجُدْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، وَقَدْ جَمَعَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ فِي كُتُبِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ ، كَالدَّلَائِلِ لِلْفَقَّالِ الشَّاشِيِّ ، وَصَاحِبِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَلِيمِيِّ ، وَأَبِي بَكْرٍ الْبَيْهَقِيِّ الْإِمَامِ الْحَافِظِ وَغَيْرِهِمْ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ ، وَأَحْسَنَهَا كِتَابُ الْبَيْهَقِيِّ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا نَبِيِّنَا مُحَمَّدًا ﷺ ، وَعَلَيْنَا بِإِكْرَامِهِ ﷺ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ . (نووي) .

٥- وفيه جواز الشبع ولو بلغ أقصى غايته ، أخذاً من قول أبي هريرة (لا أجد له مسلماً) وتقرير النبي ﷺ على ذلك خلافاً لمن قال بتحريمه وإذا كان ذلك في اللبن مع رفته ونفوذه فكيف بما فوقه من الأغذية الكثيفة ، لكن يحتمل أن يكون ذلك خاصاً بما وقع في تلك الحال فلا يقاس عليه ، وقد أورد الترمذي عقب حديث أبي هريرة هذا حديث ابن عمر رفعه (أكثرهم في الدنيا شبعاً أطولهم جوعاً يوم القيامة) وقال حسن وفي الباب عن أبي جحيفة .

قلت : وحديث أبي جحيفة أخرجه الحاكم وضعفه أحمد ، وفي الباب أيضاً حديث المقدم بن معد يكرب رفعه (ما ملأ بن آدم وعاء شراً من بطنه) الحديث أخرجه الترمذي أيضاً وقال حسن صحيح .

ويمكن الجمع : بأن يحمل الزجر على من يتخذ الشبع عادة لما يترتب على ذلك من الكسل عن العبادة وغيرها ، ويحمل الجواز على من وقع له ذلك نادراً ولا سيما بعد شدة جوع واستبعاد حصول شيء بعده عن قرب .

قال النووي في قوله (فَأَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرُؤُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فِيهِ : دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الشَّبَعِ ، وَمَا جَاءَ فِي كِرَاهَةِ الشَّبَعِ فَمَحْمُولٌ عَلَى الْمُدَاوِمَةِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ يُعَسِّي الْقَلْبَ وَيُنْسِي أَمْرَ الْمُحْتَاجِينَ . (نووي) .

وقال القرطبي : وقوله (حتى شبعوا ، ورووا) دليل على جواز الشبع من الحلال ، وما جاء مما يدل على كراهة الشبع عن النبي ﷺ ، وعن السلف : إنما ذلك في الشبع المثقل للمعدة ، المبطئ بصاحبه عن الصلوات ، والأذكار ، المضر للأنسان بالتخم ، وغيرها ؛ الذي يفضي بصاحبه إلى البطر ، والأشر ، والنوم ، والكسل . فهذا هو المكروه ، وقد يلحق بالمُحَرَّم إذا كثرت آفاته ، وعمت بليّاته . (المفهم) .

٦- وفيه أن كتمان الحاجة والتلويح بها أولى من إظهارها والتصريح بها .

٧- وفيه كرم النبي ﷺ وإيثاره على نفسه وأهله وخادمه .

٨- وفيه ما كان بعض الصحابة عليه في زمن النبي ﷺ من ضيق الحال .

٩- وفضل أبي هريرة وتعففه عن التصريح بالسؤال واكتفاؤه بالإشارة إلى ذلك وتقديمه طاعة النبي ﷺ على حظ نفسه مع شدة احتياجه .

١٠- مشروعية التبسّم في الأحوال التي تدعو إلى التبسّم، فمن ذلك تبسّمه ﷺ في وجه أبي هريرة، ليطمئنه أنه عرف ما خفي من حاله، وأنه سيلبي حاجته، وتبسّم أخرى تعجباً من حال أبي هريرة، فقد أدرك ما قام في نفسه من خشيته أن لا يبقى له من اللبن شيء، فأمره أن يشرب حتى لم يبق من جوعه شيء، وإنه لموضع تبسّم.

١١- فضل أهل الصفة .

١٢- وفيه أن المدعو إذا وصل إلى دار الداعي لا يدخل بغير استئذان .

١٣- ضيّف الرسول أصحابه من أهل الصفة من اللبن الذي أُهدِيَ إليه، وهذا يدل على جواز تضييف الرجل مما أُهدِيَ إليه، كما يجوز بيعه، وهو يدل على خطأ ما يدور على ألسنة الناس من أن : الهدية لا تُهدى ولا تُباع .

١٤- جواز التحايل لأمر مشروع كما فعل أبوهريرة حيث سأل أبوبكر وعمر (رضي الله عنهم جميعاً) لاقصد السؤال ولكن لقصد الإطعام.

١٥- وجوب طاعة الرسول ﷺ في المنشط والمكروه، فأبو هريرة مع شدة جوعه ومعاناته، أطاع، ودعا أهل الصفة، وصبر على جوعه، ولم يرد على الرسول ﷺ أمره .

١٦- وفيه جلوس كل أحد في المكان اللائق به .

١٧- وفيه إشعار بملازمة أبي بكر وعمر للنبي ﷺ .

١٨- العمل بالفراسة .

١٩- واستئذان الخادم على مخدومه إذا دخل منزله .

٢٠- ساقى القوم آخريهم شرباً، فأبو هريرة شرب بعد أن سقى القوم، والرسول ﷺ بعد أن صار إليه الإناء شرب بعد شرب أبي هريرة.

٢١- لا حرج على ولي الأمر أو العالم أن يكلف بعض أتباعه ببعض المهمات، كما كلف الرسول ﷺ أبا هريرة بدعوة أهل

الصفة، وإسقاء القوم اللبن.

٢٢- يجب على العاملين بالإسلام أن لا يحتجوا بضيق ذات اليد في ترك العمل للإسلام، فالذين بنوا الأمة الإسلامية في عهدها الأول، كانوا على ما وصفتهم الأحاديث الدالة على قلّة ما كان في أيديهم، ولكنهم بذلوا جهدهم فأعانهم رهم ، العسر لا يدوم، فقد وسّع الله على الذين طالت أعمارهم من الصحابة، فجاءتهم الدنيا صاغرة، وملكوا كنوز كسرى وقيصر .

٢٣- معرفة الكيفية التي كان يعالج بها الرسول ﷺ بعض المشكلات في المجتمع المسلم، ومن ذلك فقراء الصحابة الذين خصّص لهم الرسول ﷺ موضعاً في المسجد لمبيتهم، وفيهم يقول أبو هريرة في هذا الحديث (وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال، ولا على أحد) .

٢٤- الحمد على النعم .

٢٥- والتسمية عند الشرب .

٦٤٥٣- عن سعد . قال (إِنِّي لِأَوَّلِ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَأَيْتُنَا نَغْزُو وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحَبْلَةِ وَهَذَا السَّمُرُ وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خِلْطٌ ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أُسْدٍ تُعَزِّرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ خَبْتُ إِذَا وَضَلَّ سَعْيِي) . [م : ٢٩٦٦] .

(الحبلّة) ثمره السمر من فصيلة البقوليات ذات فلتتين تنفتح عندما تنضج

(السمر) جمع سمرة وهو نوع من الشجر صغار الورق قصار الشوك .

قال النووي : (الحبلّة) بِضَمِّ الحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَإِسْكَانِ الْمُوَحَّدَةِ . وَ (السَّمُرُ) بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّ المِيمِ وَهُمَا نَوْعَانِ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، كَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَآخَرُونَ ، وَقِيلَ : الْحَبْلَةُ ثَمَرُ الْعِضَاءِ ، وَهَذَا يَظْهَرُ عَلَى رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ : (إِلَّا الْحَبْلَةَ وَوَرَقَ السَّمُرِ) .

(وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ) بالضاد المعجمة كناية عن الذي يخرج منه في حال التغوط .

(كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ) زاد بيان (والبعر) .

(مَا لَهُ خِلْطٌ) بكسر المعجمة وسكون اللام أي : يصير بعبراً لا يختلط من شدة اليبس الناشيء عن كشف العيش .

(ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أُسْدٍ) وبنو أسد هم إخوة كنانة بن خزيمة جد قريش وبنو أسد ، كانوا فيمن ارتد بعد النبي ﷺ وتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي لما ادعى النبوة ، ثم قاتلهم خالد بن الوليد في عهد أبي بكر وكسرهم ورجع بقيتهم إلى الإسلام وتاب طليحة وحسن إسلامه وسكن معظمهم الكوفة بعد ذلك ، ثم كانوا ممن شكوا سعد بن أبي وقاص وهو أمير الكوفة إلى عمر حتى عزله وقالوا في جملة ما شكوه أنه لا يحسن الصلاة .

(تُعَزِّرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ) أي : توفقي والتعزير التوقيف على الأحكام والفرائض ، قاله أبو عبيد الهروي ، وقال الطبري معناه تقومني وتعلمني ومنه تعزير السلطان وهو التقويم بالتأديب والمعنى : أن سعداً أنكر أهلية بني أسد لتعليمه الأحكام مع سابقته وقدم صحبته .

١- في هذا الحديث بَيَانٌ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالتَّقَلُّبِ مِنْهَا ، وَالصَّبْرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمَشَاقِّ الشَّدِيدَةِ . وجاء في صحيح مسلم من حديث عتبة بن غزوان (وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى فَرِحْتُ أَشْدَأَقُنَا) .

٢- في الحديث مَنْقَبَةٌ ظَاهِرَةٌ لسعد .

٣- في الحديث جَوَازٌ مَدَحَ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ .

قال الله عز وجل : (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) .

وفي هذا نهي عن تزكية النفس وإطرائها والإخبار عنها بطهارتها وبعدها عن الذنوب والآثام لغير حاجة إلى ذلك ، إلا مجرد حب المدح والثناء .

قال الطبري رحمه الله : يقول جل ثناؤه : لا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي .

وقال الشوكاني رحمه الله : أي : لا تمدحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها ، فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع .

وقال ابن عقيل رحمه الله : نهى عن تزكية النفس بالمدح والإطراء المورث عجباً وتيهاً ومرحاً

فالأصل في ذكر محاسن النفس ، ومدحها بذلك : المنع ، وأقل أحواله الكراهة ، لكن في موضع الحاجة والمصلحة الشرعية : يرخص في مثل ذلك ، بقدر ما تقتضيه الحاجة

قال النووي رحمه الله : اعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان : مذموم ؛ ومحجوب .

فالمذموم : أن يذكره للافتخار ، وإظهار الارتفاع ، والتميز على الأقران ، وشبه ذلك .

والمحجوب : أن يكون فيه مصلحة دينية ، وذلك بأن يكون أمراً معروفاً ، أو ناهياً عن منكر ، أو ناصحاً أو مشيراً بمصلحة ، أو معلماً ، أو مؤدباً ، أو واعظاً ، أو مدكراً ، أو مُصلحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً ، أو نحو ذلك ، فيذكر محاسنه ، ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد ما يذكره ، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به ، أو نحو ذلك .

وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص :

كقول النبي ﷺ (أنا النبي لا كذب) ، (أنا سيد ولد آدم) ، (أنا أول من تنشق عنه الأرض) ، (أنا أعلمكم بالله وأتقاكم) ، (إني أبيت عند ربي) ، وأشباهه كثيرة .

وقال يوسف ﷺ (اجعلني على خزائن الأرض إني خفيظٌ عليهم) .

وقال شعيب ﷺ (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) .

وقال عثمان ﷺ حين حُصر ما رويناه في صحيح البخاري أنه قال: أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال (من جهز جيش العسرة فله الجنة) فجهزتهم ؟

أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال (من حفَرَ بئرَ رومة فله الجنة) فحفرتها ؟ فصدّقه بما قال

ورويناه في صحيحيهما عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال حين شكاه أهل الكوفة إلى عمر بن الخطاب ﷺ وقالوا: لا يُحسن يصلي .! فقال سعد (والله إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله تعالى) .

ورويناه في صحيح مسلم عن عليّ ﷺ قال (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبي ﷺ إليّ : أنه لا يجني إلا مؤمناً ، ولا يبغي في الدنيا ما لا يفيده) .

ونظائر هذا كثيرة لا تنحصر ، وكلها محمولة على ما ذكرنا . (الأذكار للنووي) .

قال بن الجوزي : إن قيل كيف ساغ لسعد أن يمدح نفسه ومن شأن المؤمن ترك ذلك لثبوت النهي عنه ؟

فالجواب : أن ذلك ساغ له لما عيّر الجهال بأنه لا يحسن الصلاة فاضطر إلى ذكر فضله ، والمدحة إذا خلعت عن البغي والاستطالة وكان مقصود قائلها إظهار الحق وشكر نعمة الله لم يكره ، كما لو قال القائل : إني لحافظ لكتاب الله عالم بتفسيره وبالفقه في الدين قاصداً إظهار الشكر ، أو تعريف ما عنده ليستفاد ولو لم يقل ذلك لم يعلم حاله ، ولهذا قال يوسف عليه

السلام (إني حفيظ عليم) وقال علي (سلوني عن كتاب الله) وقال ابن مسعود : لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني لأتيته (وساق في ذلك أخباراً وآثاراً عن الصحابة والتابعين تؤيد ذلك . (الفتح) .

وقال ابن مفلح رحمه الله : قَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ : عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ مَدَحَ نَفْسَهُ بِهَذَا الْقَوْلِ ، وَمِنْ شَأْنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ التَّوَضُّعُ ؟

فَالجَوَابُ : أَنَّهُ لَمَّا خَلَا مَدْحُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ بَعْغٍ وَتَكَبُّرٍ ، وَكَانَ مُرَادُهُ بِهِ الْوُصُولَ إِلَى حَقِّ يُقِيمُهُ ، وَعَدَلَ يُحْيِيهِ ، وَجَوْرَ يُبْطِلُهُ : كَانَ ذَلِكَ جَمِيلاً جَائِزاً .

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام : وَاللَّهِ مَا آيَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ بِلَيْلٍ نَزَلَتْ أُمَّ بِنَهَارٍ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : " لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبَلُّغُهُ الْإِبِلَ لِأَتَيْتُهُ .

فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الشُّكْرِ لِلَّهِ وَتَعْرِيفِ الْمُسْتَفِيدِ مَا عِنْدَ الْمُفِيدِ . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ الْجُوزِيِّ

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : " وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ سُورَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ أَنْزَلْتُ ، وَمَا مِنْ آيَةٍ

إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أَنْزَلْتُ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبَلُّغُهُ الْإِبِلَ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ .

وَفِي تَرْجَمَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه : " سَلُونِي فَوَاللَّهِ لَنْنُ فَقَدْتُ رَجُلًا عَظِيمًا .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَيَّاشٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاءُ وَبَكَتْ ابْنَتُهُ : يَا بِنْتِي لَا تَبْكِي ، أَتَخَافِينَ أَنْ يُعَذِّبَنِي اللَّهُ وَقَدْ خَتَمْتَ فِي هَذِهِ الرَّأْيَةِ

أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفَ خَتَمَةٍ ؟

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَيَّاشٍ أَيْضًا : نَظَرْتُ إِلَى أَقْرَأِ النَّاسِ فَلَزِمْتُهُ عَاصِمًا ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى أَفْقَهِ النَّاسِ فَلَزِمْتُهُ مُغَيَّرَةً ، فَأَيْنَ تَجِدُ مِثْلِي ؟

(الآداب الشرعية) .

قال النووي في قول ابن مسعود (وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَيَّ أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ . قَالَ شَقِيقٌ : فَجَلَسْتُ فِي حَلْقِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَعِيبُهُ) .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ ذِكْرِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِالْفَضِيلَةِ وَالْعِلْمِ وَنَحْوِهِ لِلْحَاجَةِ ، وَأَمَّا النَّهْيُ عَنِ تَرْكِيَةِ النَّفْسِ فَإِنَّمَا هُوَ لِمَنْ رَكَهَا وَمَدَحَهَا لِعَبْرِ حَاجَةٍ ، بَلْ لِلْفَخْرِ وَالْإِعْجَابِ ، وَقَدْ كَثُرَتْ تَرْكِيَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَمَائِلِ عِنْدَ الْحَاجَةِ كَدَفْعِ شَرِّ عَنْهُ بِذَلِكَ ، أَوْ تَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ لِلنَّاسِ ، أَوْ تَرْغِيبِ فِي أَخْذِ الْعِلْمِ عَنْهُ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

فَمِنْ الْمَصْلَحَةِ قَوْلُ يُوسُفَ عليه السلام (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) .

وَمِنْ دَفْعِ الشَّرِّ قَوْلُ عُثْمَانَ رضي الله عنه فِي وَقْتِ حِصَارِهِ (أَنَّهُ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْتَرَةِ ، وَحَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ) .

وَمِنْ التَّرْغِيبِ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ هَذَا .

وَقَوْلُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (مَا بَقِيَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنِّي) .

وَقَوْلُ غَيْرِهِ : عَلَى الْحَبِيرِ سَقَطَتْ ، وَأَشْبَاهُهُ .

٦٤٥٤- عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ (مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامٍ بُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قَبِضَ) .
[م : ٢٩٧٠] .

٦٤٥٥- عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ (مَا أَكَلَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكَلْتَيْنِ فِي يَوْمٍ إِلَّا إِحْدَاهُمَا تَمَرٌ) .
[م : ٢٩٧٠] .

٦٤٥٦- عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ (كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَحَشْوُهُ مِنْ لَيْفٍ) .
[م : ٢٠٨٢] .

٦٤٥٧- عَنْ قَتَادَةَ قَالَ (كُنَّا نَأْتِي أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَخَبَّازَهُ قَائِمٍ وَقَالَ كُلُوا فَمَا أَعْلَمُ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَغِيْفًا مُرَقَّقًا حَتَّى حَقَّ بِاللَّهِ ، وَلَا رَأَى شَاةً سَمِيْطًا بَعِيْنِهِ قَطُّ) .

٦٤٥٨- عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . قَالَتْ (كَانَ يَأْتِي عَلَيْنَا الشَّهْرُ مَا نُوقِدُ فِيهِ نَارًا إِلَّا مَا هُوَ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلَّا أَنْ نُؤْتَى بِاللَّحِيْمِ) .
[م : ٢٩٧٢] .

٦٤٥٩- عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ (ابْنُ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ فَقُلْتُ مَا كَانَ يُعِيْشُكُمْ قَالَتْ الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ) .
[م : ٢٩٧٢] .

٦٤٦٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوْتًا .
[م : ١٠٥٥] .

(مِنْ أَدَمٍ) بفتح الهمزة والذال .

(رَأَى رَغِيْفًا مُرَقَّقًا) أي : ليناً واسعاً .

١- هذه الأحاديث فيها بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التقلل من الدنيا وزخرفها .

وجاء عند الترمذي وصححه من حديث بن عباس قال (كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوين لا يجدون عشاء) .
وعند بن ماجه من حديث أبي هريرة (أتى النبي ﷺ بطعام سخن فأكل فلما فرغ قال الحمد لله ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا) وسنده حسن .

ومن شواهد الحديث ما أخرجه بن ماجه بسند صحيح عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول مراراً (والذي نفس محمد بيده ما أصبح عند آل محمد صاع حب ولا صاع تمر وان له يومئذ لتسع نسوة) .

٢- قوله (اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوْتًا) .

قال النووي : قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ وَالْعَرَبِيَّةِ : الْقُوْتُ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ ، وَفِيهِ فَضِيلَةٌ التَّقَلُّلُ مِنَ الدُّنْيَا وَالِإِقْتِصَارُ عَلَى الْقُوْتِ مِنْهَا وَالِدُّعَاءُ بِذَلِكَ .

قال ابن بطال : فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك ، رغبة في توفر نعيم الآخرة وإيثاراً لما يبقى على ما يفنى ، فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك .

وقال القرطبي معنى الحديث : أنه طلب الكفاف فإن القوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة وفي هذه الحالة سلامة من آفات

الغنى والفقر جميعاً والله أعلم .

وقال الحافظ ابن حجر : أَيْ أَكْفِهِمْ مِنْ الْقُوتِ بِمَا لَا يُزِيهِهُمْ إِلَى ذُلِّ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ فُضُولٌ تَبَعَتْ عَلَى التَّرَفِّهِ وَالتَّبَسُّطِ فِي الدُّنْيَا .

قال ابن حجر : قوله (اللهم ارزق آل محمد قوتاً) هكذا وقع هنا وفي رواية الأعمش عن عمارة عند مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) وهو المعتمد ، فإن اللفظ الأول صالح لأن يكون دعاء بطلب القوت في ذلك اليوم ، وأن يكون طلب لهم القوت بخلاف اللفظ الثاني ، فإنه يعين الاحتمال الثاني وهو الدال على الكفاف وقد تقدم تقرير ذلك في الباب الذي قبله وعلى ذلك شرحه بن بطال .

٣- فضل العفاف .

٤- فضل القناعة والحث عليها .

فالقناعة هي السعادة والحياة لمن أراد الحياة .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

قال العلماء : الحياة الطيبة : الرضا والقناعة .

ولهذا قال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه .

والقناعة أفضل الحسنات والخيرات .

قال رب الأرض والسموات (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

حسنة الدنيا : القناعة في الرزق .

والقناعة سبب للنعيم .

قال تعالى (إن الأبرار لفي نعيم)

قال الرازي : قال بعضهم : النعيم القناعة ، والجحيم الطمع .

وقال النيسابوي : وقال آخرون : النعيم : القناعة والتوكل .

والقناعة من أسباب الفلاح .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنِعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم .

هي القناعة فالزمها تعيش ملكاً ---- لو لم يكن لك إلا راحة البدن .

فأين من ملك الدنيا بأجمعها ---- هل راح منها بغير القطن والكفن .

وأخبر النبي ﷺ أن من قنع فله طوبى .

عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ) رواه

الترمذي .

القناعة سبب للغنى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ) . فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ

فَقُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَعْنَى النَّاسِ

وَأَحْسِنَ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا نُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ)

قالت الحكماء : اقنع تشعب .

وخير من قول الحكماء ، قول سيد الحكماء ، عليه الصلاة والسلام في الأرض والسماء :
عن عُبيدِ اللهِ بنِ مُحْصِنِ الأَنْصَارِيِّ الخَطْمِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ ، مُعَانِيًّا فِي جَسَدِهِ ،
عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حَيَّرَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَائِفِهَا) رواه الترمذي .

والقناعة فيها العز ، والذل في الطمع .

ذلك أن القانع لا يحتاج إلى الناس فلا يزال عزيزاً بينهم، والطمع يُذل نفسه من أجل المزيد .

جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعاً (شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس) .

وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يبيل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول : من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لا تزال كريماً على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تغط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك .

كما أن الإمامة في الدين والسيادة في الدنيا والرفعة في الذكر لا يحصلها المرء إلا إذا استغنى عن الناس وما في أيديهم، واحتاج الناس إليه في العلم والوعظ والإحسان .

قال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم .

قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس همًّا الحسود واهنأهم عيشاً القنوع .

قيل : للذل من أبوك؟ قال : الطمع ، وقيل : للغز والكرامة من أبوك؟ قال : الرضا والقناعة .

من طمع ذل ، ومن قنع عز .

قال سعد لابنه : يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وعليك باليأس مما في أيدي الناس .

قيل للحسن للبصري : وقيل له : ما الذي زهدك في الدنيا ، ما سر زهدك ، فقال : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فانا في استعداد له .

وقال ابن حبان : من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا القناعة، وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقسم، ولو لم يكن في القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة، وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب الفضل، لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حالة من الأحوال .

وكان محمد بن واسع يبيل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد .

٥- التعلق بالآخرة وعدم التعلق بالدنيا .

٦- نعيم الدنيا زائل قليل .

٧- الاقتداء بالنبي ﷺ .

١٨- باب القصد والمداومة على العمل

٦٤٦١- عن مسروق ، قال : سألت عائشة ، رضي الله عنها ، أي العمل كان أحب إلى النبي ﷺ قالت الدائم ، قال : قلت فأبي حين كان يقوم قالت كان يقوم إذا سمع الصرخ .

[م : ٧٤١] .

٦٤٦٢- عن عائشة أنها قالت (كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه) .

[م : ٧٤١] .

٦٤٦٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لن ينجي أحدًا منكم عمله قالوا ، ولا أنت يا رسول الله قال ، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته سددوا وقاربوا واعدوا وروحووا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا) .

[م : ٢٨١٦] .

٦٤٦٤- عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال (سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل) .

[م : ٧٨٢] .

٦٤٦٥- عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها قالت (سئل النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله قال أدومها وإن قل وقال اكلفوا من الأعمال ما تطيقون) .

[م : ٧٨٢] .

٦٤٦٦- عن علقمة ، قال : سألت أم المؤمنين عائشة قلت يا أم المؤمنين كيف كان عمل النبي ﷺ هل كان يخص شيئاً من الأيام قالت لا كان عمله ديمةً وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع) .

[م : ٧٨٣] .

٦٤٦٧- عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال (سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يدخل أحدًا الجنة عمله قالوا ، ولا أنت يا رسول الله قال ، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة) قال أظنه ، عن أبي النضر ، عن أبي سلمة ، عن عائشة

٦٤٦٧م- عن عائشة ، عن النبي ﷺ سددوا وأبشروا .

وقال مجاهد { قولاً سديداً } وسداً صدقاً .

[م : ٧٨٢] .

٦٤٦٨- عن أنس بن مالك . قال (إن رسول الله ﷺ صلى لنا يوماً الصلاة ثم رقي المنبر فأشار بيده قبل قبلة المسجد فقال : قد أريت الآن - منذ صليت لكم الصلاة - الجنة والنار ممثلتين في قبل هذا الجدار فلم أر كاليوم في

الخير والشر فلم أر كاليوم في الخير والشر) .

[٢٣٥٩] .

(عن مسروق) ابن الأجدع الهمداني ، ثقة فقيه عابد .

(قالت الدائم) أي : العمل الذي يدوم عليه صاحبه .

(قال : قلت فأبي حين كان يقوم) أي : في أي أوقات الليل كان ﷺ يقوم فيصلي .

(إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ) أي : أنه يقوم في الليل وقت سماعه صوت الصارخ ، وهو الديك .

قال النووي : الصَّارِخُ هُنَا هُوَ الدِّيكُ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ قَالُوا : وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ صِيَاغِهِ .

قال ابن حجر : الصارخ أي : الديك، ووقع في مسند الطيالسي في هذا الحديث (الصارخ الديك) والصرخة الصيحة الشديدة، وجرت العادة بأن الديك يصيح عند نصف الليل غالباً ، قاله محمد بن ناصر .

١- هذه الأحاديث فيها فضل المداومة على العمل الصالح .

قال النووي : وفيه : الْحَثُّ عَلَى الْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعَمَلِ وَأَنَّ قَلِيلَهُ الدَّائِمُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يَنْقَطِعُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْقَلِيلُ الدَّائِمُ خَيْرًا مِنْ الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ ؛ لِأَنَّ بَدَوَامَ الْقَلِيلِ تَدْوَمُ الطَّاعَةِ وَالذِّكْرُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَالنِّيَّةُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْحَالِقِ سُبْحَانَهُ تَعَالَى ، وَتُثْمِرُ الْقَلِيلُ الدَّائِمُ بِحَيْثُ يَزِيدُ عَلَى الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ أضعافاً كثيرة .

وقال ابن الجوزي : إنما أحب العمل الدائم لمعينين :

أحدهما : أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصول ، فهو متعرض لهذا .

والثاني : أن مداومة الخير ملازم للخدمة ، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتاً ما كمن لازم يوماً كاملاً ثم انقطع .

وقال ابن رجب : وهكذا كان عمل النبي ﷺ وعمل آله وأزواجه من بعده ، وكان ينهى عن قطع العمل ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) وقال ﷺ (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء) وقال الحسن : إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً على طاعة الله فبغاك وبغاك ، فإن رآك مداوماً ملكاً ورفضك ، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك .

وقال القرطبي : وسبب محبته للدائم : أن فاعله لا ينقطع عن عمل الخير ، ولا ينقطع عنه الثواب والأجر ، ويجتمع منه الكثير وإن قل العمل في الزمان الطويل ، ولا تزال صحائفه مكتوبة بالخير ، ومصعد عمله معموراً بالبر ، ويحصل به مشابحة الملائكة في الدوام ، والله أعلم .

٢- فضائل المداومة على العمل الصالح :

أولاً : أن هذا عمل يحبه الله .

كما قال ﷺ (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)

ثانياً : أن هذا هو هدي النبي ﷺ .

كما قال عائشة قالت (كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبتته) رواه مسلم .

وعنها قالت (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه) متفق عليه ، أي : لازموا وداوموا عليه .

وعنها قالت (كان عمله - يعني النبي ﷺ - ديمة) رواه مسلم ، (ديمة) بكسر الدال أي : دائماً .

وقال لعبد الله بن عمرو (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) رواه مسلم .

ثالثاً : أن المداومة على العمل الصالح سبب لمحبة الله .

كما في حديث أبي هريرة (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ..) رواه البخاري .

رابعاً : أن المداومة سبب لإزالة العبد في ظل الله .

كما قال ﷺ في حديث (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : وذكر منها : وشاب نشأ في عبادة الله ...) ومن المعلوم أنه لا بد من الاستمرار على ذلك ليحصل على الأجر .

خامساً : أن المداومة سبب لطهارة القلب من النفاق .

لأن المنافق تتقل عليه العبادة والطاعة ولا يستطيع أن يستمر بها . (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) .
 وفي الحديث (من حافظ على تكبيرة الإحرام أربعين يوماً كتبت له براءتان ، براءة من النفاق ، وبراءة من النار) .
 سادساً : أن المداومة على العمل سبب للنجاة من الشدائد .

في الحديث قال ﷺ (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) رواه الترمذي .

سابعاً : أن المداومة على العمل فيه دوام اتصال القلب بالله .
 وهذا يزيد القلب قوة وثباتاً ونشاطاً وتوكلاً وتعلقاً بالله .

ثامناً : أن المداومة على العمل ترويض للنفس على الطاعة .
 ولهذا قيل : نفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية .

فائدة : الحكمة من النهي عن استدامة الصيام ؟

قد أشار النبي ﷺ إلى الحكمة في ذلك من وجوه :

منها : قوله ﷺ في صيام الدهر (لا صام ولا أفطر) يعني أنه لا يجد مشقة الصيام ولا فقْد الطعام والشراب والشهوة ، لأنه صار الصيام له عادة مألوفة ، فربما تضر بتركه ، فإذا صام تارة وأفطر تارة حصل له بالصيام مقصوده بترك هذه الشهوات ، وفي نفسه داعية إليها ، وذلك أفضل من أن يتركها ونفسه لا تتوق إليها .

ومنها : قوله ﷺ في حق داود عليه السلام (كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى) يشير إلى أنه كان لا يضعفه صيامه عن ملاقاته عدوه ومجاهدته في سبيل الله .

ومنها : ما أشار إليه بقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو (لعله أن تطول بك حياة) يعني أن من تكلف الاجتهاد في العبادة فقد تحمّل قوة الشباب ما دامت باقية ، فإذا ذهب الشباب وجاء المشيب والكبر عجز عن حمل ذلك ، فإن صابر وجاهد واستمرّ فربما هلك بدنه ، وإن قطع فقد فاتته أحب الأعمال إلى الله تعالى ، وهو المداومة على العمل الصالح .

١٩- باب الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ

وَقَالَ سُفْيَانُ مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ {لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رِبِّكُمْ} .

٦٤٦٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ) .

[م : ٢٧٥٢] .

(فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً) وفي الرواية الأخرى (وأخر تسعاً وتسعين رحمة) قال الطيبي : رحمة الله تعالى لا نهاية لها

فلم يرد بما ذكره تحديداً بل تصويراً للتفاوت بين قسط أهل الإيمان منها في الآخرة وقسط كافة المرؤبين في الدنيا .

(وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً) وفي رواية مسلم (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً بِهَا عِبَادُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

(فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ) قدم ذكر الكافر لأن كثرتها وسعتها تقتضي أن يطمع فيها كل أحد، ثم ذكر المؤمن استطراداً.

١- شرح الحديث: في هذا الحديث يبين النبي ﷺ سعة رحمة الله تعالى لأهل الجنة في الآخرة، فإذا كانت الرحمة التي نراها في الأرض والتي شملت كل الخلائق تساوى واحداً في المائة من رحمة الله تعالى، فكيف برحمته تعالى في الجنة التي تساوي تسعاً

وتسعين!

إنه إغراء كبير ورفع لهمم المؤمنين الذين يرجون رحمة الله في الآخرة ، إنها رحمة شاملة كبيرة ينعم فيها الإنسان ولا ييأس، إنه الفوز الكبير كما سماه الله تعالى في كتابه، وهو العطاء الممدود الأبدي غير المقطوع.

قال ابن حجر : ومطابقة الحديث للترجمة ، أنه اشتمل على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف ، فمن علم أن من صفات الله تعالى الرحمة لمن أراد أن يرجمه والانتقام ممن أراد أن ينتقم منه لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة . (الفتح) .

٢- الحديث دليل على أن المسلم ينبغي أن يكون راجياً خائفاً .

قال النووي : هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين ، قال العلماء : لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار - المبنية على الأكدار - بالإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به ، فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة ، وهي دار القرار ودار الجزاء . والله أعلم . هكذا وقع في نسخ بلادنا جميعاً (جعل الله الرحمة مائة جزء) . (نووي) .

٣- تعريف الرجاء : الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويُطَيَّب لها السير .

وقيل: هو الاستيثار بجود فضل الرب - تبارك وتعالى - والارتياح لمطالعة كرمه - سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة الله.

٤- وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرغبة .

فقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

عن أنس (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ: كَيْفَ بَجْدِكَ؟ قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ دُؤُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ). رواه الترمذي وقد وصف الله المؤمنين بعمل الصالحات مع الخوف من الله .

كما قال الله تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) .

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ : لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) رواه الترمذي .

وقد ذكر الله - تعالى - الخوف مقروناً بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة .

قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) .

وقوله تعالى (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقوله تعالى (نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) .

وقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا).

وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) .

وكما في قوله - سبحانه - (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) .

ولهذا قال السلف - رحمهم الله - كلمة مشهورة، وهي : مَنْ عبدَ اللهَ بالحبِّ وحده، فهو زنديق، وَمَنْ عبدَهُ بالخوف وحده، فهو حروريٌّ - أي: خارجي - وَمَنْ عبدَهُ بالرَّجاء وحده، فهو مرجئي، ومن عبدَهُ بالخوف والحب والرَّجاء، فهو مؤمن موحِّد .

قال ابن القيم : القلب في سيره إلى الله - عزَّ وجلَّ - بمنزلة الطائر؛ فالحبَّ رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرأس والجناحان، فالطائر جيِّد الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر .

٥- قال ابن القيم : من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف .

كان الصديق يقول : وددت لو أُنِّي شعرة في جنب عبد مؤمن .

وكان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان يبكي كثيراً ويقول : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وهذا عمر قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاءه حتى مرض وعادوه .

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتحنقه العبرة ، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً .

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته .

وهذا علي وبكائه وجوفه ، وكان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق .

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرة تعضد ، وودت أني لم أخلق . (الجواب الكافي) .

قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

وقال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم مأمونوا العواقب ومع ذلك هم أشد خوفاً، والعشرة المشهود لهم بالجنة كذلك، وقد قال عمر رضي الله عنه: لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .

وقد بوب البخاري في صحيحه . باب: الرجاء مع الخوف . قال ابن حجر في الفتح: أي استحباب ذلك فلا يقطع النظر في

الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم،

والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها،

وأما من اتهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذه بغير ندم ولا إقلاع، فهذا في غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من

علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل ومن علامة الشقاء أن تعطي وترجو أن تنجو. انتهى.

٦- قال ابن القيم : وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنَّ مَنْ رَجَا شَيْئًا اسْتَلَزِمَ رَجَاؤُهُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ :

أَحَدُهَا : مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ .

الثَّانِي : خَوْفُهُ مِنْ فَوَاتِهِ .

الثَّالِثُ : سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ .

وَأَمَّا رَجَاءُ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالْأَمَانِيُّ شَيْءٌ آخَرٌ ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ ، وَالسَّائِرُ عَلَى

الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الْفَوَاتِ .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ خَافَ أَدْبَجَ ، وَمَنْ أَدْبَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ

غَالِيَةً ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ) .

وَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا جَعَلَ الرَّجَاءَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ الْخَوْفَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَعُلِمَ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ النَّافِعَ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْعَمَلُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقُلْتُ : أَهْمُ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ الْحَمْرَ ، وَيَزْنُونَ ، وَيَسْرِقُونَ ، فَقَالَ : لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ . وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ بِالْإِحْسَانِ مَعَ الْخَوْفِ ، وَوَصَفَ الْأَشْقِيَاءَ بِالْإِسَاءَةِ مَعَ الْأَمْنِ .

من كان رجاءه جاذباً إلى الطاعة ، زاجراً عن المعصية ؛ فهو رجاء صحيح .

ومن كانت بطالته رجاء ، ورجاؤه بطالة وتفريطاً ؛ فهو المغرور . (الجواب الكافي) .

قال ابن القيم : كلما كان العبد حسن الظن بالله ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه : فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة ؛ فإنه سبحانه لا يخيب أمل آملٍ ، ولا يضيع عمل عاملٍ ، وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة ؛ فإنه لا أشرح للصدر ، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ، ورجائه له ، وحسن ظنه به .

وقال أيضاً : فعلى قدر حسن ظنك برّبك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ؛ ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله ، والتحقق : أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه ، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه .

٢٠ - باب الصبر عن محارم الله

{ إِنَّمَا يُوقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } .

وَقَالَ عُمَرُ وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ .

٦٤٧٠ - عن أَبِي سَعِيدٍ (أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَعْطَاهُ حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفَدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدْخِرُهُ عَنْكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعْفِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَعِنْ يُغْنِهِ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) .

[م : ١٠٥٣] .

(الصبر عن محارم الله) يدخل في ذلك الصبر على الطاعات في أداؤها ، وعن المحرمات في تركها وتجنبها .

(وعن أبي سعيد) الأنصاري الخزرجي ، غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة ، أولها غزوة الخندق سنة خمس ، وكان قبلها صغيراً ، كان من علماء الأنصار مات سنة (٧٤) ودفن في البقيع .

(أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) أي : شيئاً من المال .

(فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ) بتكرير السؤال والإعطاء مرتين .

(حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ) أي : انقطع .

(مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ) أي : فلن أحبسها عنكم .

(وَمَنْ يَسْتَعِفِّ) أي : من طلب العفة وتكلفتها أعطاه الله إياها ، والاستعفاف : هو الكف عن الحرام ، والسؤال من الناس .

(يُعْغِهُ اللَّهُ) أي : يرزقه الله العفة ، قال القرطبي : أي يجازره على استغفائه بصيانه وجهه ورفع فاقته .
(وَمَنْ يَسْتَعْنِ) أي : من يستغن بالله عن سواه ، أو يُظهر الغنى بالاستغناء عن أموال الناس .
(يُغْنِيهِ اللَّهُ) يرزقه الله غنى القلب .

(وَمَنْ يَنْصَبِرْ) أي : يتكلف في تحمل مشاق الصبر .

(يُصَبِّرُهُ اللَّهُ) أي : يعينه الله ويسهل عليه الصبر .

(وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) أي : الصبر من أفضل ما يعطاه أحد وأوسع .

١- الحديث دليل على فضل الصبر ، وأنه من يتبصر ويجاهد نفسه على الصبر يصبره الله ويوفقه ويسهل عليه الصبر .

٢- على العبد أن يعرف الأسباب التي تعين على الصبر عن المعصية ، وقد ذكرها ابن القيم ، فقال :

أحدها : علم العبد بقبحها ورتالتها ودناءتها .

السبب الثاني : الحياء من الله عز وجل ، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه ، وأنه بمراى منه ومسمع - وكان حياً حياً - استحي من ربه أن يتعرض لمساخته .

السبب الثالث : مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك .

السبب الرابع : خوف الله وخشية عقابه .

السبب الخامس : محبة الله سبحانه ، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه .

السبب السادس : شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفعتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها .

السبب السابع : قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها .

السبب الثامن : قصر الأمل وعلمه بسرعة انتقاله .

السبب التاسع : مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس .

السبب العاشر : وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : وهو ثبات شجرة الإيمان في القلب ، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه . (طريق المهجرتين) .

٢- الحديث دليل على أن أفضل ما أعطي العبد الصبر لقوله (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) .

قال ابن القيم : فإن هذا بعد نزول البلاء ، ليس للعبد أوسع من الصبر ، وأما قبله فالعافية أوسع له

وقال السعدي : وإنما كان الصبر أعظم العطايا ، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته ، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر ، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله ، حتى يقوم بها ويؤديها ، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله ، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها ، بل إلى صبر على نعم الله ومحوبات النفس ، فلا يدع النفس ترحم وتفرح الفرح المدموم ، بل يشتغل بشكر الله ، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر ، وبالصبر ينال الفلاح ، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) وكذلك قوله (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) .

فهم نالوا الجنة بنعيمها ، وأدركوا المنازل بالصبر ، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته ، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر ، فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان ، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته ، والله هو المعين .

٤- فضائل الصبر ، فضائل الصبر كثيرة :

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

ثالثاً : إطلاق البشري لهم .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) .

وقال تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) .

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا

بآياتنا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما في حديث الباب (والصبر ضياء) .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

٥- الحديث دليل على فضل الاستعفاف عن الناس والاستغناء عنهم .

قال السعدي : هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة .

إحداها : قوله : (ومن يستعفف يعفه الله) .

والثانية : قوله : (ومن يستغن يغنه الله) .

وهاتان الجملتان متلازمتان ، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين ، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا

الكمال ، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك ، حتى يكون عبداً لله حقاً حرّاً من رق المخلوقين ، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين : انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستغناء عما في أيديهم ، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله ، ولهذا قال ﷺ لعمر (ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذها، وما لا فلا تتبعه نفسك) فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففاً وترفعاً عن من الخلق ، وعن تعلق القلب بهم ، سبب قوي لحصول العفة .

وقام ذلك : أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني : وهو الاستغناء بالله والثقة بكفائته ، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه ، وهذا هو المقصود ، والأول وسيلة إلى هذا ، فإن من استعف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم ، أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله ، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه ، ويحسن ظنه وثقته بربه ، والله تعالى عند حسن ظن عبده به ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن غيرَه فله ، وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه ، فكلما قوي تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس .

ومن دعاء النبي ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى) فجمع الخير كله في هذا الدعاء ، فالهدى : هو العلم النافع ، والتقى : هو العمل الصالح ، وترك المحرمات كلها ، هذا صلاح الدين .

وتمام ذلك بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله ، ومن كان غنياً بالله فهو الغني حقاً، وإن قلت حواصله ، فليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى القلب ، وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة ، والتعيم الديني ، والقناعة بما آتاه الله .

وقال ابن تيمية : سبحانه أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه .

وقال ابن القيم : يستعين الإنسان على التجرد من الطمع والفرغ ؟ بالتوحيد والتوكل والثقة بالله ، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، وأن الأمر كله لله ، ليس لأحد مع الله شيء

وقال ابن رجب : وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستغناء عن مسألة الناس والاستغناء عنهم ، فمن سأل الناس ما بأيديهم كرهوه وأبغضوه ، لأن المال محبوب لنفوس بني آدم ، فمن طلب منهم ما يحبونه ، كرهوه لذلك .

وكان عمر يقول في خطبته : إن الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه .

وقال رحمه الله : وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً، منهم : أبو بكر الصديق ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته ، فلا يسأل أحداً أن يُناولَه إياه .

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين ؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدره المسؤول على دفع هذا الضرر ، ونيل المطلوب ، وجلب المنافع ، ودرء المضار ، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده ؛ لأنه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السُّجود لغيرك فصُنْهُ عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضرر وجلب النفع سواه . كما قال (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) وقال (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) .

وقال ابن تيمية : سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفسدات :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك .

والثانية : مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق .

والثالثة : فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة .

٦- من فضائل العفة :

أولاً : أئمة من خصال أهل الإيمان :

قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) .

ثانياً : أئمة من أسباب الفوز بظلال الله يوم القيامة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَحَقَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) . متفق عليه

ثالثاً : أن أهل العفة ينالون عون الله .

ففي سنن الترمذي وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ : الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ) .

رابعاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بها .

عن ابن مسعود قال (كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

خامساً : أئمة من أسباب سعادة المرء .

كما قال بعض السلف : والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب .

وقال الغزالي : ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت .

قال حكيم : إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وأكساه العفاف .

عن وهب بن منبه أنه قال: الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفة .

وقال الحسن : لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استحقوا بك، وكرهوا حديثك، وأبغضوك .

وقال أيوب السخيتياني : لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان: العفة عمّا في أيدي الناس، والتجاوز عمّا يكون منهم .

وقال أعرابيٌّ لأهل البصرة: من سيّد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال : بما سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه ، واستغنى هو عن دنياهم .

٧- كيفية السبيل إلى التعلق بالله والتعفف عن الناس :

أولاً : بالصبر ومجاهدة النفس .

لحديث الباب (ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله) .

ثانياً : بالدعاء .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

قال ابن تيمية : وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه له ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم ، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها ، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها ، لا سيما إذا ذرت بفرقه إليها وعشقه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر

الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتياط في الخلاص ، وأما إذا كان القلب -الذي هو الملك- رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب .
وعبودية القلب وأسرته هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك ، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس ، فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس .

وقال ابن القيم : أعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله ، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به ، وهو معرض للزوال والفوات ، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد بيت العنكبوت أو هن البيوت .
وقال : الجاهل يشكو الله إلى الناس ، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه ، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم ، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فآفته وضرورته ، فقال : يا هذا ، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ، وفي ذلك قيل :

وإذا شكوت إلى ابن آدم ---- إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

٦٤٧١- عن الْمُغْبِرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرَمَ ، أَوْ تَنْتَفِخَ - قَدَمَاهُ فَيَقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) .

[م : ٢٨١٩] .

١- الحديث دليل على شدة عبودية النبي ﷺ لربه سبحانه وتعالى .

٢- الحديث دليل على مشروعية قيام الليل ، ولقيام الليل فضائل :

أولاً : أن الله تبارك وتعالى مدح أهله .

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قال ابن كثير : تتجافى جنوبهم عن المضاجع : يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيفة .

يدعون ربهم خوفاً وطمعاً : أي خوفاً من وبال عقابه وطمعاً في جزيل ثوابه .

ومما رزقناهم ينفقون : فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية .

ثانياً : قيام الليل من علامات المتقين .

قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

قال الحسن البصري في الآية : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وفي قوله سبحانه (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) قال الرازي في الآية : إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، فيستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، واللثيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به .

ثالثاً : قيام الليل من صفات عباد الرحمن . أولياء الله ومن أسباب دخول الجنة .

يقول تعالى في وصف عباد الرحمن (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ... أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

رابعاً : وفرق تعالى بين من قام الليل ومن لم يقمه ، ممتدحاً صاحب القيام .

فقال تعالى (أَمْنَ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

خامساً : قيام الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم .

قال ابن رجب : وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار ، لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص ، ولأن صلاة الليل أشق على النفوس ، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار ، فتترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة ، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر ، فإنه تنقطع الشواغل بالليل ، ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم كما قال تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً) .

سادساً : من أسباب دخول الجنة .

عن عبد الله بن سلام . قال : قال ﷺ (أيها الناس ! أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي .

سابعاً : قيام الليل سبب للنجاة من الفتن .

فالصلاة عموماً ، وصلاة الليل خصوصاً سبب من أسباب النجاة من الفتن .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ (اسْتَيْقِظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحَجْرِ ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ) رواه البخاري .
ففي هذا الحديث دليل وتنبيه على أثر الصلاة بالليل في الوقاية من الفتن .

ثامناً : أنه شرف للمؤمن .

فقد جاء في الحديث عن سهل قال : قال ﷺ (جاءني جبريل ! فقال يا محمد ! اعمل ما شئت فإنك مجزي به ، ... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) رواه الطبراني وحسنه الألباني .

فقيام الليل شرف للمؤمن ، لأنه دليل على إخلاصه ، ودليل على ثقته بربه ، ودليل على قوة إيمانه ، فيرفع الله ويعزه ويرفع مكانته ويعلي درجته لأنه خلى بالله تعالى .

تاسعاً : لهم غرف في الجنة .

قال ﷺ (إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعداها الله لمن أطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى بالليل والناس نيام) رواه أبو داود .

عاشراً : بقيام الليل يدرك المصلي وقت النزول الإلهي .

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له) متفق عليه

الحادي عشر : وصف النبي ﷺ من يقوم الليل بنعم الرجل .

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ (كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِذَا رَأَى رُؤْيَا فَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَتَمَنَيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأُفْصِّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا ، وَكُنْتُ أَنَا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَ يَأْتِيَنِي فَذَهَبَ بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبَعْرِ ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ ، وَإِذَا فِيهَا أَنَا قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَلَقِينَا مَلَكَ آخَرَ فَقَالَ لِي لَمْ تُرْعَ ، فَصَصَّصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَصَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ ، فَكَانَ بَعْدَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا) رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر : فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نعم الرجل .

الثاني عشر : قيام الليل من أسباب المغفرة والرحمة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ، وَأَيَّقَطَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ، وَأَيَّقَطَتْ زَوْجَهَا ، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِ الْمَاءِ) رواه أبو داود .

الثالث عشر : من فضل قيام الليل أنه من مظان الإجابة .

عن جابر . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه وذلك كل ليلة) متفق عليه .

٣-السلف وقيام الليل .

قالت عائشة (يا عبد الله ! لا تدع قيام الليل ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يدعه ، وكان إذا مرض أو كسل صلى وهو قاعد) متفق عليه .

وجاء في موطأ الإمام عن ابن عمر قال (كان عمر يصلي في الليل حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله وقرأ : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) .

وقال أبو عثمان النهدي : تضيفت أبا هريرة سبعة أيام [أي نزلت عليه ضيفاً] فكان هو وزوجه وخادمه يقتسمون الليل أثلاثاً ، الزوجة ثلثاً وخادمه ثلثاً وأبو هريرة ثلثاً .

وكان سليمان التيمي عنده زوجتان وكانوا يقتسمون الليل أثلاثاً .

والحسن بن صالح كان يقتسم الليل هو وأخوه وأمه أثلاثاً ، فماتت أمه ، فافتسم الليل هو وأخوه علي ، فمات أخوه فقام الليل بنفسه .

وكان محمد بن واسع إذا جنّ عليه الليل يقوم ويتهدج ، يقول أهله : كان حاله كحال من قتل أهل الدنيا جميعاً .

وكان الإمام أبو سليمان الداراني يقول : والله لولا قيام الليل ما أحببت الدنيا ، والله إن أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم ، وإنه لتمر بالقلب ساعات يرقص فيه طرباً بذكر الله فأقول : إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه من النعيم إنهم لفي نعيم عظيم .

وكانت امرأة حبيب بن محمد الزاهد توقظه بالليل وتقول : ذهب الليل ، وبين أيدينا طريق بعيد ، وزادنا قليل ، وقوافل الصالحين قدامنا ونحن قد بقينا ، وكانت تقول :

يا راقداً الليل كم ترقدُ	قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وأوقاته	ورداً إذا ما هجع الرقادُ
من نام حتى ينقضي ليله	لم يبلغ المنزل أو يجهدُ
قل لأولي الألباب أهل التقى	قنطرة العرض لكم موعدُ

وقال أبو الدرداء : صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور .

وقال أحمد بن حرب : عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقه ، والنار تضرم تحته ، كيف ينام بينهما .

وكان شداد بن أوس إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلني حتى يصبح .

وحين سألت ابنة الربيع بن خثيم أباهما : يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ قال : يا بنية إن أباك يخاف السيئات .

ويروى أن طاووساً جاء في السحر يطلب رجلاً ، فقالوا : هو نائم ، قال : ما كنت أرى أن أحداً ينام في السحر .

وكان عبد الله بن داود يقول : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه ، كان لا ينام الليل .

وذكر أن عامراً لما احتضر جعل يبكي ، فقيل : ما يبكيك يا عامر ؟ قال : ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ، ولكنني أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الشتاء .

وقال محمد بن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، والصلاة في جماعة .

وقال الحسن البصري : ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال ، وإن الرجل ليزنب الذنب فيحرم به قيام الليل .

٤- الحديث دليل على وجوب شكر النعم ، وأن شكر النعمة من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

● فضائل الشكر :

أولاً : الله أمر به .

قال تعالى : (بَلِ اللّٰهِ فَاغْبُذْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

ثانياً : التوبيخ على عدم الشكر .

قال تعالى : (وَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) .

ثالثاً : الثناء على الشاكرين وأنه سبل الرسل .

قال تعالى : (ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) .

وقال تعالى عن إبراهيم (شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

رابعاً : الشكر نفع للشاكر نفسه .

قال تعالى : (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ) .

خامساً : أن الشكر إذا صدر من المؤمنين فهو مانع من نزول العذاب .

قال تعالى : (مَا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَدَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) .

سادساً : أن الشكر سبب لزيادة النعم .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

سابعاً : أن الصفة من عباد الله يسألون الله أن يوزعهم شكر نعمته .

قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

ثامناً : أن الشاكرين قليلون .

قال تعالى : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ) .

وهذا يدل على أنهم هم خواص الله .

٥- الحديث دليل على أن الشكر يكون بالجوارح كما يكون بالقلب واللسان .

قال ابن حجر : وفيه أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان كما قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا) .

ثم قال : والشكر الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة فمن كثرت ذلك منه سمي شكورا ومن ثم قال سبحانه: وقليل من عبادي الشكور.

ولذلك تعريف الشكر : هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب ، وثناء باللسان ، وطاعة بالأركان .

بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

وباللسان ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

وبالجوارح ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ، وحديث الباب .

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةٌ
يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين : أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة المال : أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله .

○ كيف يتحقق الشكر ؟

أولاً : سؤال الله ذلك .

كما قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

وقال ﷺ لمعاذ : (يا معاذ ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) رواه أبو داود .

ثانياً : أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

ثالثاً : أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه .

قال تعالى : (تُمْ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

قال ابن كثير : أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة .

رابعاً : أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا ، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله .

قال ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه .

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ) . وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) .

وتعريفه كما سبق وهو أن يستعمل نعمه في طاعة الله .

وشكر الله لعبده :

كقوله تعالى (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) .

وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ) .

ومعنى شكر الله لعبده: هو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل ، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه ،

وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة .

لما عقر سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره ، فأراد ألا تشغله مرة أخرى ، أعاضه عنها متن الريح .

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته ، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء

٦- الحديث دليل على أن من خصائص النبي ﷺ أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

أولاً : لحديث الباب .

ثانياً : لحديث علي قال : قال ﷺ (وجعلت أمتي خير الأمم ، وسميت أحمد ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي) رواه أحمد .

٧- الحديث دليل على شرف وفضل العبودية لله تعالى ، وأن الإنسان كلما كان أكثر عبودية لله كان أكثر رفعة عند الله .

وقد وصف الله نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات :

أولاً : في مقام التحدي .

قال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) .

ثانياً : في مقام الإساءة .

كما قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) .

سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ...) .

ثالثاً : في حال إنزال القرآن .

كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) .

رابعاً : في مقام الدعوة إلى الله .

قال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا) .

٢١- باب { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ .

٦٤٧٢- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ ،

وَلَا يَنْتَطِرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

[م : ٢٢٠] .

١- الحديث دليل على فضل التوكل على الله وأنه من أسباب دخول الجنة .

تعريف التوكل :

قال الإمام أحمد : هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق .

قال ابن رجب : التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب المصالح ودفْع المضار من أمور الدنيا والآخرة .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله : وحقيقة التوكل على الله : أن يعلم أن الأمر كله لله ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ،

وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

قال ابن القيم أيضاً : فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

٢- فضائل التوكل :

أولاً : أنه سبب لدخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمُوتُونَ زَكَاتُهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .
ولحديث الباب .

ولحديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (يدخل الجنة أقوام أفعدتهم مثل أفعدة الطير) رواه مسلم .

حكى النووي في هذا الحديث : أن المراد بمؤلاء القوم هم المتوكلون .

ثانياً : أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل .

قال تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَىٰ تَوَكُّلٍ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

ثالثاً : التوكل من شيم أنبياء الله ورسوله وأوليائه .

قال تعالى في نوح (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) .

وقال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

رابعاً : أهل التوكل هم أهل الإيمان .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي : وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون .

قال ابن القيم : فجعل التوكل شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى ،

وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد .

خامساً : التوكل على الله مجلبة للرزق .

عن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً)

رواه الترمذي .

سادساً : المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل .

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

سابعاً : المتوكلون الله حسبهم وكافهم .

قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال (ومن يتوكل على الله

فهو حسبه) ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه

وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره . (بدائع الفوائد)

ثامناً : أهل التوكل على الله هم أهل العزة والاستعلاء .

قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

قال في الإحياء : أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجناحه والتجأ إلى زمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير أمر من توكل على تدبيره .

تاسعاً : لا توكل بدون إيمان .

قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

● الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز .

قال ابن القيم : والفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتركيتها ، كغارس الشجر وبأذر الأرض .

والمغتر العاجز : قد أفرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود .

٣- من أقوال السالف :

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك ، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وقال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

وقال ابن القيم - رحمه الله - ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله .

قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربعة :

علمت أن رزقي لا يأكله غيري ... فاطمأنت به نفسي .

وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ... فأنا مشغول به .

وعلمت أن الموت يأتي بغتة ... فأنا أبادره .

وعلمت أنني لا أخلو من عين الله ... فأنا مستحي منه .

قال بعض العلماء لا تتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه .

قال منصور بن عمار : قلوب المتوكلين أوعية الرضا .

وقال بعضهم : علامة التوكل انقطاع المطامع : أي في الخلق والأسباب .

وقال آخر : التوكل إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى العلائق .

٢٢- باب ما يُكره من قيل وقال

٦٤٧٣- عَنْ وَرَادٍ كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى الْمُغِيرَةِ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيَّ بِحَدِيثِ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ أَنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الصَّلَاةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ : وَكَانَ يَنْهَىٰ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَمَنْعَ وَهَاتِ وَعُقُوقِ

الْأُمَّهَاتِ وَوَادِ الْبَنَاتِ) .

[م : ٥٩٣] .

١- الحديث دليل على النهي عن هذه الأمور :

قوله (وَكَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ) فَهُوَ الْخَوْضُ فِي أَخْبَارِ النَّاسِ ، وَحِكَايَاتِ مَا لَا يَعْني مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ .
قال الطبري في المراد (بقيل وقال) أوجه :

المراد الأول: الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام لأنها تتول إلى الخطر، وإنما كرره للمبالغة في الزجر منه .

المراد الثاني: إرادة حكاية أقوال الناس والبحث عنها ليخبر عنها (والنهي عنها للزجر عن الإستكثار منها) .

المراد الثالث: الإختلاف في أمور الدين (والنهي عنه لإن كثرة الإختلاف تؤدي إلى الزلل) .

وهو مخصوص لمن ينقل ذلك من غير تثبت ولكن يقلد ويسمع ، ويؤيد ذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع) .

وهذه الوجوه جميعاً داخله في النهي فإن كثرة الكلام قد تجر صاحبها على الوقوع في المكروه بل إلى الوقوع في المحرم من غيبة ونميمة وغيرها .

وقال ابن عبد البر : فالمعنى في قيل وقال - والله أعلم - الخوض في أحاديث الناس التي لا فائدة فيها وإنما جلتها الغلط وحشو وغيبة وما لا يكتب فيه حسنة ولا سلم القائل والمستمع فيه من سيئة .

قوله (كَثْرَةُ السُّؤَالِ) .

قال النووي : فْقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ الْقَطْعُ فِي الْمَسَائِلِ ، وَالْإِكْتَارُ مِنَ السُّؤَالِ عَمَّا لَمْ يَقَعْ ، وَلَا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةٌ ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ السَّلْفُ يَكْرَهُونَ ذَلِكَ ، وَيَرَوْنَهُ مِنَ التَّكْلِيفِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ . وَفِي الصَّحِيحِ : كَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ سُؤَالُ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ ، وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ ، وَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ كَثْرَةَ السُّؤَالِ عَنْ أَخْبَارِ النَّاسِ ، وَأَحْدَاثِ الزَّمَانِ ، وَمَا لَا يَعْني الْإِنْسَانَ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ هَذَا مِنَ النَّهْيِ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ ، وَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ كَثْرَةَ سُؤَالِ الْإِنْسَانَ عَنْ حَالِهِ وَتَفَاصِيلِ أَمْرِهِ ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي سُؤَالِهِ عَمَّا لَا يَعْنيهِ ، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ حُصُولَ الْحُرْجِ فِي حَقِّ الْمَسْئُولِ ، فَإِنَّهُ قَدْ لَا يُؤَثِّرُ إِخْبَارُهُ بِأَحْوَالِهِ ، فَإِنْ أَخْبَرَهُ شَقَى عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَذَّبَهُ فِي الْإِخْبَارِ أَوْ تَكَلَّفَ التَّعْرِيزَ لِحَقِّقَتِهِ الْمَشَقَّةَ ، وَإِنْ أَهْمَلَ جَوَابَهُ إِزْتَكَبَ سُوءَ الْأَدَبِ وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ : قوله : (وكثرة السؤال) هل هو سؤال المال ، أو السؤال عن المشكلات والمعضلات ، أو أعم من ذلك ؟ الأولى حملة على العموم .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد به كثرة السؤال عن أخبار الناس وأحداث الزمان ، أو كثرة سؤال إنسان بعينه عن تفاصيل حاله ، فإن ذلك مما يكره المسئول غالباً، وقد ثبت النهي عن الأغلوطات . أخرجه أبو داود من حديث معاوية ، وثبت عن جمع من السلف كراهة تكلف المسائل التي يستحيل وقوعها عادة أو يندر جداً ، وإنما كرهوا ذلك لما فيه من التنطع والقول بالظن ، إذ لا يخلو صاحبه من الخطأ . (الفتح) .

وقال القرطبي رحمه الله : يحتمل وجوهاً :

أحدها : أن يريد به كثرة سؤال الناس الأموال ، والحوائج إلحاحاً ، واستكثاراً .

وثانيها : أن يكثر من المسائل الفقهية تنطعاً وتكلفاً فيما لم ينزل . وقد كان السلف يكرهون ذلك ، ويرونه من التكلف . وقال مالك في هذا الحديث : لا أدري أهو ما أحاكم عنه من كثرة المسائل ، فقد كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، أو هو : مسألة الناس أموالهم .

وثالثها : أن يكثر من السؤال عمماً لا يعنيه من أحوال الناس، بحيث يؤدي ذلك إلى كشف عوراتهم والإطلاع على مساوئهم .

قلت : والوجه : حمل الحديث على عمومهم ، فيتناول جميع تلك الوجوه كلها .

قوله (وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) فَهُوَ صَرَفُهُ فِي غَيْرِ وُجُوهِهِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَتَعْرِيزُهُ لِلتَّلْفِ ، وَسَبَبُ النَّهْيِ أَنَّهُ إِفْسَادٌ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ، وَلِأَنَّهُ إِذَا أَضَاعَ مَالَهُ تَعَرَّضَ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

قوله (وَمَنْعٌ وَهَاتٍ) وَفِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى : (وَلَا وَهَاتٍ) فَهُوَ بِكَسْرِ التَّاءِ مِنْ (هَاتٍ) . وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَمْنَعَ الرَّجُلُ مَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ أَوْ يَطْلُبَ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ .

قوله (عُقُوقُ الْأُمَّهَاتِ) فَحَرَامٌ ، وَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ ، وَقَدْ تَطَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى عَدِّهِ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَكَذَلِكَ عُقُوقُ الْأَبَاءِ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَإِنَّمَا اِئْتَصَرَ هُنَا عَلَى الْأُمَّهَاتِ لِأَنَّ حُرْمَتَهُنَّ أَكْثَرُ مِنَ حُرْمَةِ الْأَبَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ السَّائِلُ : مَنْ أَبَرُّ ؟ قَالَ : " أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ " ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ : " ثُمَّ أَبَاكَ " . وَلِأَنَّ أَكْثَرَ الْعُقُوقِ يَقَعُ لِلْأُمَّهَاتِ ، وَيَطْمَعُ الْأَوْلَادُ فِيهِنَّ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعُقُوقِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ .

قوله (وَأَدُّ الْبَنَاتِ) بِأَهْمَزٍ ، فَهُوَ دَفْنُهُنَّ فِي حَيَاتِهِنَّ ؛ فَيَمُتْنَ تَحْتَ التُّرَابِ ، وَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ الْمُؤَبَّهَاتِ ، لِأَنَّهُ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَتَضَمَّنُ أَيْضًا قَطِيعَةَ الرَّحِمِ ، وَإِنَّمَا اِئْتَصَرَ عَلَى الْبَنَاتِ ، لِأَنَّهُ الْمُعْتَادُ الَّذِي كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ .

٢٣ - بَابُ حِفْظِ اللِّسَانِ

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } .

٦٤٧٤- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَتَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) .

٦٤٧٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) . [م : ٤٧] .

٦٤٧٦- عَنْ أَبِي شَرِيحٍ الْخَزَاعِيِّ قَالَ سَمِعَ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ جَائِزَتُهُ قِيلَ مَا جَائِزَتُهُ قَالَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ) . [م : ٤٨] .

٦٤٧٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُنَّ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ) . [م : ٢٩٨٨] .

٦٤٧٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) .

(بَابُ حِفْظِ اللِّسَانِ) أَي : عَنِ النُّطْقِ بِمَا لَا يَسُوغُ شَرْعًا مِمَّا لَا حَاجَةَ لِلتَّكَلُّمِ بِهِ .

١- ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هَذِهِ الْأَحَادِيثَ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى فَضْلِ حِفْظِ اللِّسَانِ ، وَخَطَرِ إِطْلَاقِهِ وَالتَّكَلُّمِ الْكَثِيرِ .

• وَحِفْظُ اللِّسَانِ لَهُ فُضَائِلٌ :

أولاً : مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَانِ .

لحديث الباب .

وعند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ) رواه الترمذي .

ثانياً : أن عدم حفظ اللسان سبب لدخول النيران .

كما في أحاديث الباب (وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ...) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : (تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ) ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فَقَالَ (الْفَمُّ وَالْفَرْجُ) رواه الترمذي .

ثالثاً : حفظ اللسان من علامات الإيمان .

قال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم فليقل خيراً أو ليصمت) .

رابعاً : حفظ اللسان سبب للنجاة .

عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ (أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَاسْمَعْ بِئْتِكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ) .

وقال ﷺ (من صمت نجاً) .

فإمساك اللسان سبب للنجاة : لأن في ذلك سلامة من الكلام في الأعراض النيات ، وسلامة من التصنيف والتحليلات .

إذا رُمِتْ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الْأَذَى - وَدِينُكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّبٌ لِسَانَكَ لَا تَذْكُرُ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ - فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ خَامِسًا : حفظ اللسان سبب للسيادة ورفعة الدرجات .

كان الأحنف بن قيس سيد بني تميم .

قال : قال لي عمر : يَا أَحْنَفُ ، مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ .

سادساً : حفظ اللسان علامة الإسلام الحقيقي .

سئل ﷺ أي المسلمين أفضل؟ فقال: من سلم المسلمون من لسانه و يده " .

سابعاً : حفظ اللسان سبب لغفران الذنوب .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) .

ثامناً : حفظ اللسان سبب للفوز برضوان الله تعالى .

قال ﷺ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ) .

وقال ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ) رواه الترمذي .

تاسعاً : حفظ اللسان علامة على من حسن إسلام الإنسان

قال ﷺ (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

فمن حسن إسلامه لا ينشغل بالقليل والقال ، ولا بتتبع عورات الناس .

من حسن إسلامه : قل كلامه ، وكثر ذكره ، وطال فكره .

من حسن إسلامه انشغل بعبادة ربه ، وطاعة مولاه ، والتزود إلى يوم يلقاه .
من حسن إسلامه أكثر من الأذكار ، واستغفر بالليل والنهار ، وأطال قراءة القرآن .
من حسن إسلامه : استعد للقاء ربه ، قبل غياب شمسهِ ، ورحيل يومهِ .

عاشراً : حفظ اللسان سبب للنجاة من النيران .

عن مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ قَالَ : (لَقَدْ سَأَلْتَ عَنِّ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَيَّ مَن يَسِّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ : ... أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ !) قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ (كُفَّ عَالِيكَ هَذَا) قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ (تَكَلَّمْ أُمَّكَ ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَيَّ وَجُوهَهُمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟) .

قال رجل للقمان الحكيم كيف وصلت إلى ما وصلت إليه ، فقال لقمان بأمرين : بقلة كلامي ، وعدم تدخلتي فيما لا يعنيني وقال لابنه : يا بني إذا افتخر الناس بكلامهم فافتخر أنت بسكوتك .

قيل في مأثور الحكم : إذا تم العقل نقص الكلام .

وقال بعض الحكماء : في ابن آدم من العيوب ! فقال : هي أكثر من أن تحصى ، والذي أحصيته : ثمانية آلاف عيب ، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها ، قال ما هي؟ قال : حفظ اللسان وقيل : الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها الصمت والعاشرة قلة الكلام .

وقيل : راحة الجسم في قلة الطعام ، وراحة النفس في قلة الآثام ، وراحة القلب في قلة الاهتمام ، وراحة اللسان في قلة الكلام . قال الأوزاعي : ما بلي أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه .

٢٤ - باب البكاء من خشية الله

٦٤٧٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ) . [م : ١٠٣١] .

١ - ذكر المصنف - رحمه الله - هذا الحديث ليستدل به على فضل البكاء من خشية الله .
وللبكاء من خشية الله فضائل :

أولاً : أنه من صفات المؤمنين عند سماع المواعظ ، البكاء والخوف .

قال ابن رجب رحمه الله : هذان الوصفان بهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر .

كما قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) .

وقال سبحانه (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) .

وقال تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) .

ثانياً : سبب للنجاة من النار .

قال رضي الله عنه (لن يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي .

وقال رضي الله عنه (عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله) رواه الترمذي .

ثالثاً : البكاء مع الذكر سبب لإظلال الله للعبد .

لحديث الباب (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

رابعاً : أن البكاء من خشية الله سمة من سمات الصحابة .

عن العرياض بن سارية قال (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ! كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى ...) رواه الترمذي .

ولحديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، قال : فغضى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين) متفق عليه .

خامساً : البكاء من خشية الله وصية النبي ﷺ ؟

قال ﷺ (أمسك عليك لسانك ، وابتك على خطيئتك ، ...) رواه الترمذي .

سادساً : البكاء من خشية الله من سمات الأنبياء .

قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) .

وعن عبد الله بن الشَّخِيرِ ﷺ قال (أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يُصَلِّي ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ مِنَ البُكَاءِ) رواه أحمد .
(المرجل : القدر الذي يغلي فيه الماء) .

● أمثلة على بكاء الصحابة :

ثبت في ترجمة عمر بن الخطاب أنه كان في وجهه خطان أسودان .

وكان عثمان إذا وقف على قبر يبكي حتى تبتل لحيته من البكاء .

ثبت عن ابن عمر أنه ما قرأ قول الله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا بكى حتى يغلبه البكاء .

فائدة : قال أبو سليمان الداراني : لكل شيء علم ، وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله .

إن هذا البكاء ثمره العلم النافع ، كما قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : (وَيَجْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ) "هذه مبالغة في صفتهم

ومدح لهم ؛ وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة ؛ فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويدل ،

وفي مسند الدارمي عن أبي محمد عن التيمي قال : من أوتي من العلم ما لم يبك لخليق ألا يكون أوتي علماً ؛ لأن الله تعالى

نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية ، ... (الجامع لأحكام القرآن) .

٢٥- باب الخوف من الله

٦٤٨٠- عَنْ حُدَيْفَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمِ صَائِفٍ فَفَعَلُوا بِهِ فَجَمَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ قَالَ مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتَكَ فَغَفَرَ لَهُ) .

[م : ٢٧٥٦] .

٦٤٨١- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ ، أَوْ قَبْلَكُمْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا ، يَعْنِي أَعْطَاهُ قَالَ : فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لِبَنِيهِ أَيُّ أَبٍ كُنْتُ قَالُوا خَيْرَ أَبٍ قَالَ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَرِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا - فَسَرَهَا فَتَادَهُ لَمْ يَدَّخِرْ - وَإِنْ يَقْدَمُ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبُهُ فَاَنْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحَمًّا فَاسْحَقُونِي ، أَوْ قَالَ فَاسْهَكُونِي ، ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا فَأَخَذَ مَوَائِقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي فَفَعَلُوا فَقَالَ اللَّهُ كُنْ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ ثُمَّ قَالَ أَيُّ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ قَالَ مَخَافَتِكَ ، أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ - فَمَا تَلَا فَا هُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ فَحَدَّثْتُ أَبَا عُثْمَانَ فَقَالَ : سَمِعْتُ سَلْمَانَ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ فَأَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ ، أَوْ كَمَا حَدَّثَ)

٦٤٨١م- وَقَالَ مُعَاذٌ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ فَتَادَةَ سَمِعْتُ عُقْبَةَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

[م : ٢٧٥٧] .

(كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) وفي حديث أبي سعيد (آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا) وصرح في حديث حذيفة وأبي مسعود عند الطبراني أنه كان من بني إسرائيل .

(يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ) وفي رواية (أسرف رجل على نفسه) وفي رواية (لم يعمل حسنة قط) .

(فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ) أي : فرقوني في البحر .

(فَجَمَعَهُ اللَّهُ) وفي رواية (فأمر الله البرّ فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه) أي : من أجزائه .

(ثُمَّ قَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ) أي : ما ذكر من الوصية الجائرة .

(قَالَ) الرجل .

(مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتَكَ) أي : من أجل خشيتي لعذابك .

(فَغَفَرَ لَهُ) وفي حديث أبي سعيد (فما تلافاه أن رحمه) .

١- الحديث دليل على فضل الخوف من الله ، وبه انتفع هذا المسرف وحصلت له المغفرة .

والخوف الله من لوازم الإيمان ، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله .

والخوف المحمود : ما حجزك عن محارم الله .

● وللخوف من الله فضائل :

أولاً : أنه من علامات الإيمان .

قال تعالى (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

ثانياً : مدح الله أنبياءه بالخوف منه .

كما قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

ثالثاً : الخوف من الله يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة .

ذكر النبي ﷺ في حديث السبعة (ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) فالخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة .

رابعاً : الخوف سبب للنجاة من كل سوء

قال ﷺ (ثلاث منجيات : خشية الله تعالى في السر والعلانية) فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتنجيهِ من كل سوء .

خامساً : أثنى الله على ملائكته بشدة خوفهم منه .

كما قال تعالى (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) .

سادساً : من صفات الرجال العظماء .

قال تعالى (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) .

سابعاً : من صفات الأبرار خوفهم من عدم القبول .

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أي : والذين يعطون ويعملون ويخافون أن لا يتقبل منهم .

ثامناً : وعد الله الخائفين الجنة .

كما في هذه الآية (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) .

تاسعاً : أنه من صفات نبينا محمد ﷺ وأصحابه .

قال ﷺ (إني أخشاكم لله وأتقاكم له) رواه مسلم .

وعن أنس قال (خطبنا رسول الله خطبة ما سمعت مثلها قط قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ولهم خنين) متفق عليه .

عاشراً : من أسباب النجاة من النار .

كما قال ﷺ (عينان لا تمسهما النار : عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله) رواه الترمذي .

وقد قال ﷺ (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة) .

الحادي عشر : الخوف سبب للبعد عن المعاصي .

قال تعالى (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقُورُ الْمُبِينُ) .

قال بعض السلف: إذا سكن الخوف في القلب أحرقت موضع الشهوات منه .

الثاني عشر : سبب في إخلاص العمل لله .

قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) .

الثالث عشر : سبب لعلو الهمة في العبادة .

قال تعالى (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) .

الرابع عشر : الخوف يجعل العبد سائراً على طريق الهداية .

قال ذو النون المصري : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق .

الخامس عشر : الخوف يضيء المهابة على صاحبه .

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : على قدر حبك الله يجبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق .

السادس عشر : الخوف من أسباب قبول الدعاء .

قال تعالى : (وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين) .

السابع عشر : الخوف من أسباب الانتفاع بكلام الله تعالى .

قال تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

٢- من أقوال السلف في الخوف .

قال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة ، وزينة العبادة الخوف من الله .

وقال عامر بن قيس : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

وحين سئل عطاء السلمي : ما هذا الحزن ؟ قال ويحك ؟ الموت في عنقي ، والقبر بيتي ، وفي القيامة موقفي ، وعلى جسر جهنم

طريقي ، لا أدري ما يصنع بي ؟

وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير .

وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبدالعزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما .

وقال السبكي رحمه الله : ما خفت الله يوماً ، إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبارة ما رأيت قط .

وقال حكيم : الحزن يمنع الطعام ، والخوف يمنع الذنوب ، والرجاء يقوي على الطاعة ، وذكر الموت يزهد في الفضول .

وقال الحسن : الرجا والخوف مطيتا المؤمن .

وقال إبراهيم التيمي : ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار لأن أهل الجنة قالوا (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن).

وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا (إننا كنا قبل في أهلنا مشفقين) .

٣- استشكل العلماء هذا الحديث ، كيف يغفر لهذا الرجل وهو منكر للبعث ؟

وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة :

الجواب الأول : أن هذا الرجل كان جاهلاً .

وإلى هذا ذهب ابن قتيبة ، والخطابي ، وابن حزم ، وابن عبد البر ، وابن تيمية ، وابن القيم .

قال الخطابي عن هذا الرجل : إنه ليس بمنكر للبعث ، إنما رجل جاهل ، ظن أنه إذا فعل به هذا الصنيع ترك فلم ينشر ولم يعذب

وقال ابن تيمية : فَهَذَا رَجُلٌ شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي إِعَادَتِهِ إِذَا دُرِّيَ ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يُعَادُ ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، لَكِنَّ

كَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَكَانَ مُؤْمِنًا يَخَافُ اللَّهُ أَنْ يُعَاقِبَهُ فَعَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ .

الجواب الثاني : أن قوله (لئن قدر علي ربي) بمعنى ضيق ، فهو من التقدير الذي هو التضييق ، وليس من القدرة التي هي صفة

من صفات الله .

وإلى هذا ذهب الطحاوي ، وابن جماعة .

واستشهدوا بعدة آيات من كتاب الله : كقوله (الله ييسر الرزق ...) وقوله (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) .

وقوله عن يونس (فظن أن لن نقدر عليه) .

فقالوا : إن المعنى في هذه الآيات كلها صائر إلى التضييق ، وعليه يحمل معنى هذا الحديث .

الجواب الثالث : أن معنى (لئن قدر علي ربي) أي : قدر ، من القدر الذي هو القضاء ، وليس من باب القدرة في شيء .

ويكون المعنى على هذا : لئن كان قد سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين .

الجواب الرابع : أن هذا الرجل غلب عليه الخوف والجزع، فقال هذا الكلام وهو لا يدري ما يقول، فهو كالرجل الذي قال (اللهم أنت عبيدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح)، والله لا يؤاخذ إلا بما عقد عليه القلب، لا بما سها أو غلط به اللسان .

واختار هذا القول القرطبي ، وابن حجر .

قال ابن حجر : أظهر الأقوال : أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه ، حتى ذهب بعقله لما يقول ، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه .

وهذا التفسير ضعيف لوجهين :

الأول : أنه لو كان غير مدرك ولا عاقل لما يقول ، لفهم أولاده ذلك ، ولما نفذوا هذه الوصية .

الثاني : أن هذا الحديث يذكر لبيان سعة رحمة الله تعالى ، حيث غفر لهذا الرجل رغم هذا الجهل الكبير ، فلو كانت المغفرة لرجل أخطأ في كلامه قاله دون شعور منه ولا إدراك لما كان للمغفرة في هذه الحالة مزية . (نواقض الإيمان الاعتقادية) .

٢٦- باب الانتهاء عن المعاصي

٦٤٨٢- عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ رَأَيْتُمُ الْجَيْشَ بَعِثْنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْتَجَا النَّجَاءَ فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَذْجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَفَجَّوْا وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَا حُهُمْ) .

[م : ٢٢٨٣] .

(باب الانتهاء عن المعاصي) أي : تركها أصلاً ورأساً والإعراض عنها بعد الوقوع فيها .

(مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ) إليكم .

(كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا) أي : لينذرهم بقرب عدوهم منهم وأحم لا قدرة لهم على لقاءه .

(فَقَالَ رَأَيْتُمُ الْجَيْشَ) العسكر الكثير .

(بِعِثْنِي) قيل ذكر العينين ارشاداً إلى أنه تحقق عنده جميع ما أخبر عنه تحقق من رأى شيئاً بعينه لا يعتريه وهم ولا يخالطه شك .

(وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ) النذير العريان: مثل مشهور سائر بين العرب يضرب لشدة الأمر ودنو المخدور وبراءة المخدور عن التهمة .

(فَالْتَجَا النَّجَاءَ) أي : اطلبوا النجاء بأن تسرعوا الهرب إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش .

(فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَذْجُوا) أي : ساروا أول الليل .

(عَلَى مَهْلِهِمْ) بفتحتين والمراد به الهينة والسكون .

(وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ) أي : أتاهم صباحاً .

(فَاجْتَا حُهُمْ) أي : استأصلهم .

١- الحديث دليل على حرصه ﷺ على هداية أمته والناس أجمعين :

٢- شبه النبي ﷺ نفسه بالنذير العريان، (وهو مَثَلٌ مَشْهُورٌ سَائِرٌ بَيْنَ الْعَرَبِ، يُضْرَبُ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ وَدُنُوِّ الْمَخْدُورِ وَبَرَاءَةِ الْمُحَدَّرِ عَنِ التُّهْمَةِ، وَأَصْلُهُ: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا رَأَى الْعَدُوَّ قَدْ هَجَمَ عَلَى قَوْمِهِ، وَأَزَادَ أَنْ يُفَاجِئَهُمْ وَكَانَ يَحْشَى لِحُوقِهِمْ قَبْلَ حُوقِهِ بَجَرَدٍ عَنْ تَوْبِهِ، وَجَعَلَهُ عَلَى رَأْسِ خَشْبَةٍ وَصَاحَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ،

وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي غَشِيَهُ الْعَدُوُّ وَكَانَ رَيْبَةً قَوْمِهِ، أَيْ: حَاسُوسَهُمْ، فَأَخَذُوهُ وَتَعَلَّفُوا بِتِيَابِهِ، فَانْسَلَّ مِنْهَا وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ فَأَنْدَرَهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ عَلَى خَالَتِهِ تَلَّكَ اِزْتَحَلُّوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُ الَّذِي سَلَبَ الْعَدُوُّ مَا عَلَيْهِ مِنَ التِّيَابِ فَأَتَى قَوْمَهُ غُرْبَانًا يُخْبِرُهُمْ، فَصَدَّقُوهُ لِمَا عَلَيْهِ مِنْ آثَارِ الصِّدْقِ، وَخُصَّ الْغُرْبَانُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَبِينٌ فِي الْعَيْنِ وَأَعْرُ وَأَشْنَعُ عِنْدَ الْبَصَرِ .

٣- وفي تشبيهه النبي ﷺ نفسه بالنذير العريان بيان لكونه حريصاً كل الحرص علي هداية الناس أجمعين، ويتبين ذلك في أنه لم يدع باباً من الخير إلا ودل الناس عليه، ولم يدع باباً من الشر إلا وحذر الناس منه، فقد أخرج أحمد والطبراني في الكبير -واللفظ له- وصححه ابن حبان عن أبي ذرٍّ ﷺ قَالَ (تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا وَهُوَ يُدَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا، قَالَ: فَقَالَ: ﷺ: بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ) .

ولم يدع شيئاً مما يكون بينه وبين الساعة للأمة خير في معرفته إلا أخبرهم به، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه .
فقد أخرج البخاري عن عُمَرَ ﷺ قال: (قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَ مَنْ نَسِيَهُ) .

وأخرج مسلم عن حُدَيْفَةَ ﷺ قَالَ: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا، مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، إِلَّا حَدَّثَ بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ) .

وأخرج مسلم أيضا عن عُمَرُو بْنِ أَحْطَبٍ ﷺ قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهُرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا) .

وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ، ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا، فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَ مَنْ نَسِيَهُ) .

ومن ذلك أنه حذر أمته من التنافس على الدنيا، ومن المتابعة لأعدائها، ومن الفتن التي تموج كموج البحر، ومن فتنة الدجال، وأطلع الأمة على علامات الساعة الصغرى والكبرى، لتبقى الأمة في حالة يقظة مستمرة.

٤- قيامه ﷺ بالإنذار وانقطاع عذر الكفار والمنافقين وإقامة الحجّة عليهم:

أرسل الله نبيه ﷺ (شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) أي: شاهدا على الأمة، ومبشرا للمطيعين بالجنة ومنذرا للعصاة بالنار، وقد قام ﷺ بالندارة بما أنزل الله عليه من الآيات (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) يعني ينذر الناس عقاب ربهم، ويخوفهم عذابه إن لم يوحدوه ولم يخلصوا له العبادة ويخلصوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان .

٣- وجوب الانتهاء عن معصية الله ورسوله .

٤- أن طاعة الرسول سبب للنجاة .

٥- أن مهمة الرسول التبليغ دون الهداية .

٦- دعاء الله للتوفيق للاستجابة والهداية .

٧- انقسام الناس إلى مطيع وعاص .

٨- أن الناس ينقسمون في دعوة الرسل إلى قسمين .

٩- ضرب الأمثال تقريبا لإفهام المخاطبين .

٦٤٨٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخِذٌ بِمُحَرِّكُمْ ، عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا) .

[م : ٢٢٨٤]

(فَأَنَا آخِذٌ بِمُحَرِّكُمْ) جمع حُجْرَة ، وهي معقد الإزار والسرراويل .

(وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا) التَّقْحِم : هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت .

١- قال النووي : مَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم شَبَّهَ تَسَاقُطَ الْجَاهِلِينَ وَالْمُخَالَفِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فِي نَارِ الْآخِرَةِ ، وَحَرِّصَهُمْ عَلَى الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ ، مَعَ مَنَعِهِ إِيَّاهُمْ ، وَقَبْضِهِ عَلَى مَوَاضِعِ الْمَنَعِ مِنْهُمْ ، بِتَسَاقُطِ الْفَرَاشِ فِي نَارِ الدُّنْيَا ، لَهُوَ ، وَضَعْفِ تَمْيِيزِهِ ، وَكِلَاهُمَا حَرِيصٌ عَلَى هَلَاكِ نَفْسِهِ ، سَاعٍ فِي ذَلِكَ لِجَهْلِهِ .

٢- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية الناس .

٣- مجاهدة النفس على طاعة الرسول .

٤- خطر الهوى والشهوات .

٥- مهمة الرسول التبشير والإنذار .

٦٤٨٤- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) .

(المسلم) المراد به هنا المسلم الكامل وليس المراد نفي أصل الإسلام .

(من لسانه) من سب وشتم ولعن .

(ويد) أي ضرب وبطش .

قال النووي : معناه : من لم يؤذ مسلماً بقول ولا فعل ، وخصَّ اليد بالذكر لأن معظم الأفعال بها .

١- الحديث دليل على تحريم إيذاء المسلمين بأي نوع من أنواع الأذى .

وخص الحديث اللسان واليد بالذكر لأن أكثر الأفعال بهما .

ومما يدل على تحريم إيذاء المسلمين :

قوله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ أَنْ يَكْتَسِبُوا فَقَدْ اِخْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا) .

٢- أن من علامات المسلم الكامل أن يسلم الناس من إيذائه بأي نوع من الأذى .

٣- أن إيذاء المسلمين من علامات نقص الإيمان .

٤- قوله (سلم المسلمون) ذُكِرَ الْمُسْلِمِينَ هُنَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، لِأَنَّ مَحَافِظَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى كَيْفِ الْأَذَى عَنِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَشَدُّ

تَأْكِيداً ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْكَافِرَ الْمُسْتَأْمِنَ وَالْمُعَاهِدَ فِي بِلَدِنَا يَجِبُ كَيْفِ الْأَذَى عَنْهُ .

٥- وجوب العناية بحقوق العباد وعدم ظلمهم بشيء .

٦- أن الإيمان يزيد وينقص .

٧- أن خصال الإسلام متفاوتة .

٨- حرص الشريعة على حماية حقوق الناس .

٩- فضل هجر ما نهي الله عنه ، بل هي من أفضل الطاعات .

١٠- أن من هجر ما نهي الله عنه عوضه الله ورزقه .

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) ومن ذلك الهجرة من بلد لا يستطيع أن يقيم فيها دينه، فإن هذا من هجرة ما نهي الله عنه .

وإبراهيم لما هاجر وترك قومه عوضه الله (وَأَعْتَزَلْتُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) .

● والهجرة فضلها عظيم :

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين :

أولهما : مراغماً كثيراً .

وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

● وهي ٣ أنواع :

الأول : هجرة ترك المعاصي ، كما قال ﷺ (والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه) .

والثاني : مفارقة الدار والتحول عنها ، وهذا له صور أعظمها مفارقة بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

ومن أعظم الهجرة هجرة القلوب: وهي الهجرة العظيمة، وهي إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله ﷺ بالمتابعة .

قال ابن رجب : أصل الهجرة : هجران الشر ومباعدته لطلب الخير ومحبتة والرغبة فيه .

والهجرة عند الإطلاق في كتاب السنة إنما تنصرف إلى هجران بلد الشرك إلى دار الإسلام رغبة في تعلم الإسلام والعمل به ، وإذا

كان كذلك فأصل الهجرة : أن يهجر ما نهاه الله عنه من المعاصي ، فيدخل في ذلك هجران بلد الشرك رغبة في دار الإسلام ،

وإلا فمجرد هجرة بلد الشرك مع الإصرار على المعاصي ليس بهجرة تامة كاملة ، بل الهجرة التامة الكاملة : هجران ما نهي الله

عنه ، ومن جملة ذلك : هجران بلد الشرك مع القدرة عليه .

٢٧- باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا

٦٤٨٥- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) .

٦٤٨٦- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) .

[م : ٢٣٥٩] .

١- قال ابن حجر : قوله (لو تعلمون ...) والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه والأهوال التي تقع عند

النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة والمراد به التخويف .

وعن الحسن البصري : من علم أن الموت مورده والقيامة موعده والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده فحقه أن يطول في الدنيا

حزنه .

وقال النووي : وَلَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ ، وَعَلِمْتُمْ مَا عَلِمْتُمْ مِمَّا رَأَيْتَهُ الْيَوْمَ ، وَقَبِلَ الْيَوْمَ ، لَأَشْفَقْتُمْ إِشْفَاقًا بَلِيغًا ، وَأَقْلَبَ ضَحِكُكُمْ ، وَكَثُرَ بُكَاءُكُمْ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا كِرَاهَةَ فِي اسْتِعْمَالِ لَفْظَةِ (لَوْ) فِي مِثْلِ هَذَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقال القرطبي رحمه الله ك قوله ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) يعني ما يعلم هو من أمور الآخرة وشدة أهوالها ، ومما أعد في النار من عذابها وأنكالها ، ومما أعد في الجنة من نعيمها وثوابها ، فإنه ﷺ قد كان رأى كل ذلك مشاهدة وتحقيقاً ، ولذلك كان ﷺ متواصل الأحزان ، قليل الضحك ، جُلُّه التبس .

وقال المناوي رحمه الله قوله (لو تعلمون ما أعلم) أي : من عظم انتقام الله من أهل الجرائم وأهوال القيامة وأحوالها ما علمته لما ضحكتم أصلاً ، المعبر عنه بقوله (لضحكتم قليلاً) إذ القليل بمعنى العدم على ما يقتضيه السياق ، لأن (لو) حرف امتناع لامتناع .

ومن أعظم سياقات هذا الحديث ما رواه الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّتْ لَهَا أَنْ تَنطَبَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَدَّدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ) .

قال المباركفوري رحمه الله :

قوله : (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ) أي : أبصر ما لا تبصرون ، (أَطَّتِ السَّمَاءُ) أي : صَوَّتت ، أي : أصدرت صوتاً . وأطيط الإبل : أصواتها وحينئذ ، (وَحَقَّتْ) أي : ويستحق وينبغي (لها أن تنطَبَّ) أي : تصوت ، (مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ) أي : فيه ملك) (وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ) (وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَدَّدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ) أي : سجد ، كما قال تعالى حكاية عنهم : (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) أو خص السجود باعتبار الغالب منهم ، أو هذا مختص بإحدى السماوات ، (إِلَى الصُّعَدَاتِ) أي : الطرق . وقيل : المراد بالصعدت هنا البراري والصحاري ، (تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ) أي : تتضرعون إليه بالدعاء ليدفع عنكم البلاء " انتهى باختصار .

٢٨- باب حجب النار بالشهوات

٦٤٨٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ) .

[م : ٢٨٢٣] .

١- في هذا الحديث جعل النبي ﷺ الجنة والنار محجوبتان بالمكاره والشهوات ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة باقتحام بالمكاره-وهي العبادات الشاقة على النفس- وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات المحرمة .

وقد أخرج الترمذي وأبو داود هذا الحديث عن أبي هريرة ﷺ بلفظ آخر أطول من هذا- وفيه قصة -

ولفظ الترمذي

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ انظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا قَالَ فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا قَالَ فَرَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ فَوَعَرَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا . فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا قَالَ فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ وَعَرَّتِكَ لَمَّا حُفَّتْ أَنْ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ . قَالَ أَذْهَبَ إِلَى النَّارِ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا . فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ وَعَرَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا . فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَقَالَ ارْجِعْ إِلَيْهَا . فَرَجَعَ إِلَيْهَا

فَقَالَ وَعَزَيْتَكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا .

قال النووي : قوله (حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ) .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِي أُوتِيَهَا ﷺ مِنَ التَّمَثِيلِ الْحَسَنِ ، وَمَعْنَاهُ : لَا يُوصَلُ الْجَنَّةُ إِلَّا بِإِتِّكَابِ الْمَكَارِهِ ، وَالنَّارِ بِالشَّهَوَاتِ ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحْجُوبَتَانِ بِيَمَّا ، فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَى الْمَحْجُوبِ ، فَهَتَكَ حِجَابَ الْجَنَّةِ بِإِتِّكَابِ الْمَكَارِهِ ، وَهَتَكَ حِجَابَ النَّارِ بِإِتِّكَابِ الشَّهَوَاتِ ، فَأَمَّا الْمَكَارِهِ فَيَدْخُلُ فِيهَا الْإِجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ ، وَالْمُؤَاظَبَةُ عَلَيْهَا ، وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَاقِقِهَا ، وَكُظْمُ الْعَيْظِ ، وَالْعَفْوُ وَالْحِلْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيءِ وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الَّتِي النَّارُ مَحْجُوفَةٌ بِهَا ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَةُ كَالْخُمْرِ وَالزَّيْنِ وَالنَّظَرَ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ وَالْغَيْبَةِ وَاسْتِعْمَالَ الْمَلَاهِي وَنَحْوُ ذَلِكَ .

٢- عواقب اتباع الشهوة :

أولاً : مرض القلب :

ومرض القلوب نوعان مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى وكلاهما في القرآن .

قال تعالى في مرض الشبهة (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) ، وأما مرض الشهوات فقال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) فهذا مرض شهوة الزنا (زاد المعاد) .
الأسير هو أسير شهوته وهواه ، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار كعصفور في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب . (روضة المحبين) .

ثانياً : الضلال عن الحق بسبب سكر الشهوة .

قال تعالى في قوم لوط (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) .

وهذا السكر أشد من سكر الخمر ، فإن سكر الخمر يكون يوماً أو قريباً من يوم ، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة فقوي دائم ، وقد يصل إلى الجنون . (قاعدة في المحبة) .

ثالثاً : الشهوة بريد الكفر والخروج عن الدين .

فإن الشهوة خطوة من خطوات الشيطان التي يتدرج بالعبد عن طريقها حتى يفسد عليه دينه وقد يخرج منه .

قال عدي ابن ثابت كان في زمن بني إسرائيل راهب يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يعوذهم فيبرأون على يديه وإنه أتى بامرأة ذات شرف من قومها قد جنت وكان لها إخوة فأتوه بها فلم يزل الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت فلما استبان حملها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها فذهب الشيطان في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً فجعل الرجل يلقي أخاه فيقول والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئاً كبر علي ذكره فذكر ذلك بعضهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم فسار الناس إليه حتى استنزروه من صومعته فأقر لهم بالذي فعل فأمر به فصلب فلما رفع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال أنا الذي زينت لك هذا وألقيتك فيه فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأخلصك قال نعم قال تسجد لي سجدة واحدة فسجد له وقتل الرجل فهو قول الله تعالى كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . (روضة المحبين) .

رابعاً : الحجب عن الرب جل وعلا .

فإن العبد إذا قدم شهوته على مراد ربه عرض نفسه للحجب والجفاء بينه وبين ربه ، فإن أراد الله خذلانه وكله إلى شهوته وتركه محجوباً عنه ، وإن أراد الله عصمته نغص عليه الشهوة وحال بينه وبين اللذة المحرمة حتى لا تكون حجاباً بينه وبينه . (مدارج

السالكين) .

خامساً : إدمان الشهوة وتعلق القلب بها .

مدمنو الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها.

ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاز من يفعله في بعض الأحيان . (روضة المحبين) .

سادساً : الغفلة عن ذكر الله والصلاة .

لأن العبد إذا قهر شهوته وهواه قوي قلبه على الصلاة والخشوع فيها ، وهذا بخلاف من قهرته الشهوة وأسرته الهوى ووجد الشيطان فيه مقعداً فإنه لا يمكن أن يتخلص من الوسوس والأفكار . (الوابل الصيب) .

سابعاً : الشقاء والحسرة في الدنيا .

فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمان بخس وشهوة عاجلة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها . (إغاثة اللهفان)

ثامناً : العقوبة عند الموت .

شهووات الدنيا في القلب كشهووات الأطعمة في المعدة ، وسيجد العبد عند الموت لشهووات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت إلى غايتها . (عدة الصابرين) .

تاسعاً : العقوبة في البرزخ .

ففي حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري (أن النبي قال رأيت الليلة رجلين أتياي فأخرجاني فانطلقت معهما فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت من هؤلاء قال هم الزناة) .

الجزاء من جنس العمل ، فهؤلاء كانوا في الدنيا كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة عادوا إليه فكان هذا عذابهم في تنور الآخرة . (روضة المحبين) .

عاشراً : العذاب في النار .

قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا) .

قال بعض العلماء : إذا علا الذكر الذكر هربت الملائكة ، وعجت الأرض إلى ربها ، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم ، وغشيتهم اللعنة ، وحفت بهم الشياطين ، واستأذنت الأرض ربها أن تحسف بهم ، وثقل العرش على حملته ، وكبرت الملائكة ، واستعرت الجحيم ، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه ، نقلوها إلى ديار إخوانهم وموضع عذابهم فكانت روحه بين أرواحهم وذلك أضييق مكانا وأعظم عذابا من تنور الزناة . (روضة المحبين) .

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، تمتعوا قليلاً وعذبوا طويلاً ، أسكرتهم حمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين ، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم ، وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون . (الجواب الكافي) .

٣- ثمرات الانتصار على الشهوة .

لانتصار على الشهوة عدة ثمرات في الدنيا والآخرة ، منها :

أولاً : سلامة القلب .

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ،

ومن كل شبهة تعارض خبره . (إغاثة اللفهان) .

ثانياً : علو النفس والالتحاق بالملأ الأعلى .

فالإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة ، التحق بالملائكة ، وان غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين ، وان غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهايم . (عدة الصابرين) .

ثالثاً : النجاة من عذاب الله .

وإذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى ، فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه ، والشاب المؤثر عبادة الله على داعي شبابه ، لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك ، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد ، إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات ، والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك ، والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه ، والذي ذكر الله عز وجل خاليا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة . (روضة المحبين) .

قال أبو سليمان الداراني : ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه .

رابعاً : دخول الجنة .

قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) .

خامساً : كمال الإيمان ولذة الأنس بالله والشوق إليه .

فإن لذة الأنس بالله والشوق إليه والفرح والابتهاج به لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم . (الفوائد) .

○ قال ابن القيم : الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجهه الشهوة ، فإنها أما أن توجب ألماً وعقوبة ، وإما أن تقطع لذة أكمل منها ، وإما أن تضيق وقتاً وإضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه ، وأما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه ، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه ، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألد وأطيب من قضاء الشهوة ، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك ، وإما أن تجلب همماً وغماً وحرزاً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة .، وإما أن تنسي علماً ذكره ألد من نيل الشهوة ، وإما أن تشمت عدواً ، وتحزن ولياً ، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة ، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول ، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق . (الفوائد) .

وقال رحمه الله : فما أخذ المرء ما حرم عليه إلا من وجهين :

أحدهما : سوء ظنه بربه ، وأنه لو أطاعه وآثره لم يُعْطه خيراً منه حلالاً .

والثانية : أن يكون عالماً بذلك ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، ولكن تغلب شهوته صبره ، وهواه عقله ، فالأول

من ضعف علمه .. والثاني من ضعف عقله وبصيرته . (الفوائد) .

٤- أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن.

٥- الحديث مثال لجوامع الكلم التي أوتيها ﷺ .

٦- أن الجنة محفوفة بما يشق على النفوس من التكليف، فلا بد لسالك طريقها من الصبر على المكاره.

٧- أن الشهوات قد حفت بها النار، فعلى المسلم أن يصبر عنها ويحذر من الوقوع فيها.

٨- الحث على الطاعة وإن كرهتها النفوس.

٩- ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس .

١٠- أن الصبر على المكارِه عاقبته حسنة .

١١- أن تعاطي الشهوات عاقبته وخيمة .

١٠- الإيمان بالغيب .

١١- التنبيه إلى الحكمة في حِفِّ الجَنَّةِ بالمكارة والنار بالشهوات ، لِيتميز المؤمنون بالغيب وغيرهم .

٢٩- باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله والنار مثل ذلك

٦٤٨٨- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شَرَاكٍ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ) .

(شَرَاكٍ نَعْلِهِ) قال الحافظ : هو السير الذي يدخل فيه إصبع الرجل .

١- الحديث دليل على أن الجنة سهلة حصولها لمن وفقه الله ، وكذلك النار سهل دخولها لمن خذله الله .

قال ابن الجوزي : معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة ، والنار كذلك ، بموافقة الهوى وفعل المعصية .

ولذلك على المسلم أن لا يحتقر شيئاً من الطاعات أن يفعله ، ولا يتهاون بشيء من المعاصي أن يتجنبه .

كما قال ﷺ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ مَا فِيهَا يَهْوَى بِهَا فِي النَّارِ أَوْ بَعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) .

وقال ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُوبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُوبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ) رواه الترمذي من حديث بلال بن الحارث .

وعن طارق بن شهاب . أن رسول الله ﷺ قال (دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزُهُ أحد حتى يَقْرَبَ له شيئاً ، فقالوا لأحدهما قَرِّبْ قال : ليس عندي شيءٌ أقرب قالوا له : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً ، فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة) رواه أحمد في الزهد عن سلمان موقوفاً وإسناده صحيح .

وكحديث الذي سقت كلباً .

وكحديث الذي دخل الجنة بغصن شجرة أزاحه عن الطريقة .

وقد قال ﷺ (لا تحقرن من المعروف شيئاً) .

٢- الحديث دليل على وجود الجنة والنار ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد تقدم ذلك .

٣- التحذير من الذنوب الصغيرة .

٦٤٨٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ) .

[م : ٢٢٥٦] .

(أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ) وفي رواية (أصدق كلمة) قال الحافظ : يحتل أن يريد بالكلمة البيت الذي ذكر شرطه ، ويحتل أن يريد القصيدة كلها ويؤيد الأول رواية (أصدق بيت ...) .

١- كل شيء ما خلا الله باطل ، كل شيء في هذه الدنيا بنعيمها وبمرحها باطل ولا نفع منه إذا لم يكن مقترناً بذكر الله ولم

يكن فيه رضا الله ، كل ما في الحياة من أمور لا قيمة لها ولن تنفعك في آخرتك إذا لم تبغني بها وجه الله، نعم على قدر علاقتك مع الله سترتفع منزلتك في دنياك وأخرتك، وهي ما سيبقى وما سواه سيفنى، ليتنا نعي هذا الأمر جيداً قبل فوات الأوان فلا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال ابن تيمية : فقد جعل هذه الكلمة أصدق كلمة قالها شاعر وهذا كقوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) .

وقال (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) ونحو ذلك يتناول كل معبود من دون الله من الملائكة والبشر وغيرهم من كل شيء فهو باطل وعبادته باطله وعباده على باطل وإن كان موجوداً كالأصنام.

والباطل يراد به الذي لا ينفع عابده ولا ينتفع المعبود بعبادته فكل شيء سوى الله باطل بهذا الاعتبار ، حتى الدرهم والدينار كما في الدعاء المأثور (أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم) فإن كل نفس لا بد لها أن تأله إلهاً هو غاية مقصودها ، فكل ما سوى الله باطل ، وهو ضال عن عابده كما أخبر بذلك في كتابه.

والضلال يراد به الهلاك كما قال تعالى (وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) قالوا معناه هلكننا وصرنا تراباً وأصله من قوله ضل الماء في اللبن إذا هلك فيه وتلاشى ، فإذا كان الضال في الشيء هالكاً فيه فالضال عنه هالكاً عنه ولهذا قال (ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي هلك وذهب وهو بمعنى بطل.

فكل معبود سوى الله فهو باطل وضال يضل عابده ويضل عنه ويذهب عنه وهالك عنه إلا وجه الله، فعبادة ما سواه فاسدة وباطل وضلال والمعبود سواه فاسد.

قال مجاهد في قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) قال إلا ما أريد به وجهه .

وقال سفيان الثوري : إلا ما ابتغي به وجهه كما يقال ما يبقى إلا الله والعمل الصالح .

وفي الحديث (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم) فأى شيء قصده العبد وتوجه إليه بقلبه أو رجاه أو خافه أو أحبه أو توكل عليه أو والاه فإن ذلك هالك مهلك ولا ينفعه إلا ما كان لله.

وهذا بخلاف قوله (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فإنه حصر كل من عليها ولم يستثن مع أن هذا المعنى تدل عليه فإن جميع الأعمال تفتى ولا يبقى منها شيء ينفع صاحبه إلا ما كان لوجه ذي الجلال والإكرام كما قال مالك وما كان لله فهو يبقى وما كان لغير الله لا يدوم ولا يبقى.

وقال تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) .

ولهذا قيل : الناس يقولون قيمة كل امرئ ما يحسن وأهل المعرفة يقولون قيمة كل امرئ ما يطلب.

ومما روي عن بني إسرائيل يقول الله إني لا أنظر إلى كلام الحكيم ولكني إنما أنظر إلى همته.

وقد روي أن الله سبحانه يقول إن أدنى ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أمنع قلبه حلاوة ذكري وتصديق ذلك في القرآن (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) .

وقال (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

وفي الصحيح حديث الثلاثة الذين أول ما سعرت بهم النار ذكر منهم العالم الذي يقول تعلمت العلم فيك وعلمته فيك ، فيقال له : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم وقد قيل ، ثم يؤمر به فيسحب إلى النار ، ومعاوية لما سمع هذا الحديث بكى وقال

صدق الله وبلغ رسوله ثم قرأ قوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهُ نُفْسٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَاهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْحَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وكذلك في الحديث في السنن (من طلب علمًا مما يتغنى به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة) .

وفي الحديث الآخر (من طلب علمًا أو قال : من تعلم علمًا ليحاري به العلماء ، ويماري به السفهاء ، ويتأكل به الدنيا ويصرف به وجوه الناس إليه لقي الله وهو عليه غضبان) ، وفي رواية لم يجد عرف الجنة.

وهذا باب واسع قد بسط في غير هذا الموضوع وتكلمنا فيه على آية هود وآية سبحان وآية الشورى وغير ذلك من الآيات والأحاديث والآثار في ذم العالم وغيره المرید للدنيا والقالة وبيننا فيه أمارات ذلك وبيننا أن الدين كله لله وأن الله أغنى الشركاء عن الشرك وأن الصحابة والسلف كانوا من أخوف الخلق في هذا المقام الخطر.

٢- الحديث دليل على أن ما يراد به وجه الله يبقى وينفع ويدوم ، وما يراد به غير الله لا ينفع ولا يدوم .

٣- الحديث دليل على حقارة الدنيا وذم طلبها والسعي لها .

٤- الحث على العمل لله .

٣٠- باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه

٦٤٩٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ) .

[م : ٢٩٦٣] .

(فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ) بفتح الخاء أي : الصورة .

١- الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم أن ينظر في أمور الدنيا - من مال وجاه - إلى من هو تحته ، وأن لا ينظر إلى من فوقه وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (انظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ) . قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ « عَلَيْكُمْ » .

وفي ذلك فوائد :

أولاً : القيام بشكر الله على نعمة وعدم احتقارها .

قال المباركفوي : (انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) أي في أمور الدنيا (وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ) .

فيها (فَإِنَّهُ) أي فَالْتَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ لَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقُ (أَجْدَرُ) أي أَحْسَى (أَنْ لَا تَزِدُّوا) أي بَأَنْ لَا تَحْتَقِرُوا وَالْإِزْدِرَاءُ الْإِحْتِقَارُ فَكَانَ أَصْلُهُ الْإِزْتِرَاءُ فَأُبْدِلَتْ التَّاءُ بِالذَّالِ (نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) .

فَإِنَّ الْمَرَّةَ إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ فَضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا اسْتَصْعَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ فَكَانَ سَبَبًا لِمَقْتِهِ ، وَإِذَا نَظَرَ لِلدُّنْيَا شَكَرَ النَّعْمَةَ وَتَوَاضَعَ وَحَمِدَ . فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى بَحْمَلِ أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُحْرِكُ دَاعِيَةَ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَمُضْدَاقَهُ : { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } . (التحفة) .

وقال القرطبي : أي : اعتبروا بمن فضلتكم عليه في المال ، والخلق ، والعافية ، فيظهر عليكم ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه على ذلك ، فتقومون بحق النعمة ، وذلك بخلاف ما إذا نظر إلى ما فضل عليه غيره من ذلك ؟ فإنه يضحل عنده ما أنعم الله عليه به من النعم ، ويحتقرها ، فلا يحسبها نعمًا ، فينسى حن الله فيها ، وربما حمله ذلك النظر إلى أن تمتد عينه إلى الدنيا فينافس أهلها ، ويتقلع لحسرة فؤيها ، ويحسد أهلها ، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة .

وقال النووي : قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ : هَذَا حَدِيثٌ جَامِعٌ لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْخَيْرِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَنْ فَضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا طَلَبَتْ

نَفْسِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَاسْتَصْعَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَحَرَصَ عَلَى الْإِزْدِيَادِ لِيَلْحَقَ بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبَهُ . هَذَا هُوَ الْمَوْجُودُ فِي غَالِبِ النَّاسِ . وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَشَكَرَهَا ، وَتَوَاضَعَ ، وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْرَ .

وقال السعدي : وقد أرشد ﷺ إلى هذا الدواء العجيب ، والسبب القوي لشكر نعم الله ، وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم ، فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه ، فإنه لا يزال يرى خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف ، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيته من عافية ومال ورزق ، وخلق وخلق ، فيحمد الله على ذلك حمداً كثيراً ، ويقول : الحمد لله الذي أنعم علي وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً . ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم ، فيحمد ربه على كمال العقل ، ويشاهد عالماً كثيراً ليس لهم قوت مدخر ، ولا مساكن يأوون إليها ، وهو مطمئن في مسكنه ، موسع عليه رزقه .

ويرى خلقاً كثيراً قد ابتلوا بأنواع الأمراض ، وأصناف الأسقام وهو معافي من ذلك ، مسربل بالعافية . ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتلوا ببلاء أقطع من ذلك ، بانحراف الدين ، والوقوع في قاذورات المعاصي ، والله قد حفظه منها أو من كثير منها . ويتأمل أناساً كثيراً قد استولى عليهم الهم ، وملكهم الحزن والوساوس ، وضيق الصدر ، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء ، ومنة الله عليه براحة القلب ، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة - نعمة القناعة وراحة القلب - كثيراً من الأغنياء . ثم من ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالماً كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة ، فيحمد الله على وجود العافية وعلى تخفيف البلاء ، فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه .

فمن وفق للاهتمام بهذا الهدى الذي أرشد إليه النبي ﷺ لم يزل شكره في قوة ونمو ، ولم تزل نعم الله عليه تتراى وتتوالى . ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك ، فإنه لا بد أن يزدري نعمة الله ، ويفقد شكره ، ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم ، وتسابقت إليه النقم ، وامتحن بالغم الملازم ، والحزن الدائم ، والتسخط لما هو فيه من الخير ، وعدم الرضى بالله رباً ومديراً ، وذلك ضرر في الدين والدنيا وخسران مبين . (شرح جوامع الأخبار) .

وقال رحمه الله : ومن أنفع الأشياء في هذا الموضوع (للحياة السعيدة) استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) ، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل ، رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها ، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال ، فيزول قلقه وهمه وغمه ، ويزداد سروره واعتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها . وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، رأى ربه قد أعطاه خيراً ودفع عنه شروراً متعددة ، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم ، ويوجب الفرح والسرور . (الوسائل المفيدة) .

عن عون بن عبد الله قال : صحبت الأغنياء فلم يكن أحداً أطول غماً مني إن رأيت أحداً أحسن ثياباً مني وأطيب ريحاً مني فصحبت الفقراء فاسترحت .

ثانياً : القناعة .

وقد نقدم الكلام عليها .

٢- الحديث دليل على وجوب شكر الله على نعمه ، وقد تقدمت مباحث الشكر .

٣- الحذر من التسخط من نعم الله .

٤- علو منزلة الشكر لله .

٥- فضل مجالسة المساكين والفقراء ، لأنها تؤدي إلى شكر الله .

قال ابن رجب رحمه الله :

♦ اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة :

منها : أنها توجب إخلاص العمل لله .

لأن الإحسان إليهم محبتهم لا يكون إلا لله تعالى ، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً .

ومنها : أنها تزيل الكبر .

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين ، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب .

ومنها : أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه .

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ فسوة قلبه ، فقال له : إن أحببت أن يلين قلبك فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد .

ومنها : أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله ، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه ، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

ومنها : أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين .

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم) . وكان عون بن عبد الله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم ، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً وطعاماً ومسكناً ، فتركهم وجالس المساكين فاستراح .

وفي الحديث (اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... وحب المساكين) .

ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول : مسكين بين مساكين .

قال ابن رجب: وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه .

ولم يزل السلف يوصون بحب المساكين .

كتب الثوري إلى بعض إخوانه : عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم ، فإن رسول الله ﷺ كان يسأل ربه حب المساكين .

ويروى عن أبي هريرة قال: كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه ، وكان النبي ﷺ يكتنيه أبا المساكين .

وكانت زينب بنت خزيمة تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم ، وتوفيت في حياة النبي ﷺ .

ومر الحسن بن علي على مساكين يأكلون ، فدعوه فأجابهم وأكل معهم وتلا (إِنَّهُ لَا يُجِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) .

وكان ابن عمر لا يأكل غالباً إلا مع المساكين ، وكان يقول : لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكاً يوم القيامة .

وكان سفيان الثوري يعظم المساكين ، ويجفو أهل الدنيا ، فكان الفقراء في مجلسه هم الأغنياء والأغنياء هم الفقراء .

وقال سليمان التيمي : كنا إذا طلبنا علياً أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين .

وقال الفضيل : من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين .

٣١- باب من هم بحسنة أو بسيئة

٦٤٩١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيَمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : قَالَ (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) .
[م : ١٣١] .

(كتب الحسنات والسيئات) معنى كونه كتب الحسنات والسيئات أي أنه قدرها وأثبتها في سابق علمه ، أو أمر الحفظة بكتابتها في اللوح المحفوظ بدليل قوله (إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه) .
(بين ذلك) أي فصله ووضحه .

(حسنة كاملة) قيدها بقوله (كاملة) لدفع توهم النقص، فهي كاملة لا نقص فيها . وفي رواية (عنده) وفي ذلك إشارة إلى الشرف .

(سيئة واحدة) قيدها بقوله (واحدة) للتأكيد أن السيئة لا تضاعف كما تضاعف الحسنة .
(من جزائي) أي بسبي .

(إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) الكتابة بمعنى التدوين والإحصاء ، والمراد أنها مكتوبة على العبد في الأزل .
(ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ) أي : فضله .

١- في هذا الحديث بيان كتابة الحسنات والسيئات والهـم بالحسنة والسيئة .

والكتابة القدرية للحسنات والسيئات تشمل أمرين :

أحدها : كتابة عمل الخلق لها . والآخر : كتابة ثوابها وتعيينه .

وكلاهما حق ، إلا أن المراد منها في هذا الحديث الثاني .

والحسنة شرعاً : اسم لكل ما تُوعَد عليه بالثواب الحسن ، وهي كل ما أمر به الشرع .

والسيئة شرعاً : اسم لكل ما تُوعَد عليه بالثواب السيئ ، وهي كل ما نهى عنه الشرع نهي تحريم .

٢- الحديث دليل على أن من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة .

لقوله ﷺ (فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) .

وفي رواية (إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة ، فأنا أكتبها له حسنة) .

● والمراد بالهم هنا هو هم الخطرات، فإذا وجد في القلب خطرة إلى الحسنة كتبها الله له حسنة وإن لم يعمل .

٣- الحديث دليل على أن من همَّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات .

لقوله ﷺ (وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ) وهذا شامل لكل الحسنات .

كما قال تعالى (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) .

وأما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له تكون حسب الإخلاص والإحسان في العمل .

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وعن ابن مسعود قال (جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول الله ! هذه في سبيل الله ، فقال : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) رواه مسلم .

وفي حديث الصيام (قال تعالى : إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به) متفق عليه .

قال ابن رجب : إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام ، ويكون بحسب كمال الإخلاص ، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه ، وبحسب الحاجة إليه .

وقال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال الشيخ ابن عثيمين : (إلى سبعمائة ضعف) وهذا تحت مشيئة الله تعالى ، فإن شاء ضاعف هذا ، وإن شاء لم يضاعف .

قال ابن تيمية : وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف بيثر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا فليس كل بغى سقت كلباً يغفر لها .

وكذلك هذا الذي نَحَى غصن الشوك عن الطريق ، فعلة إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك ، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص ، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، وليس كل من نَحَى غصن شوك عن الطريق يغفر له .

وقال : والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس مجرد صورها الظاهرة ، بل لحقائقها التي في القلوب ، والناس يتفاضلون في ذلك بتفاضلاً عظيماً .

وقال رحمه الله : والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله ، فيغفر الله له به كبائر ، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : (يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقال : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : لا ظلم عليك ، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، فيقول : أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فتوضع هذه البطاقة في كفه ، والسجلات في كفة ، فنقلت البطاقة وطاشت السجلات) .

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق ، كما قالها هذا الشخص ، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون : لا إله إلا الله ، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة .

٤- الحديث دليل على أن من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة .

لقوله ﷺ (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) .

وهذا : إذا كان تركها من خشية الله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أحلي أو من جرائي) .

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله ، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفجرت الصخرة .

ب- فإن تركها مخافة المخلوقين ومرآتهم فيعاقب على هذا .

ج- فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها ، فهذا يعاقب كمن عمل ، فتكتب عليه سيئة .

قال الشيخ ابن عثيمين : من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها ، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً ، دليل ذلك ،

قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

٥- الحديث دليل على أن من همّ بسيئة وعملها فإنها تكتب عليه سيئة واحدة من غير مضاعفة .

لقوله ﷺ (وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلُهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) .

كما قال تعالى (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .

- فمن عمل سيئة تكتب عليه سيئة يمثلها من غير مضاعفة ولهذا قال (كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) إشارة إلى أنها غير مضاعفة .
- لكن السيئة تعظم أحياناً بشرف الزمان أو المكان .

٦- اختلف العلماء فيمن نوى وهمّ بالعمل الصالح واقترب من النية قول أو سعي بأسبابها ، لكنه لم يدرك هذا العمل على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه يكتب له الأجر كاملاً مع المضاعفة .

وهو اختيار القرطبي في أحكام القرآن ، والقرطبي في المفهم .

القول الثاني : أن له أجر النية فقط .

وهو اختيار السبكي الكبير - فيما نقله ابن حجر في الفتح ولم يتعقبه ابن حجر - فلعله يرى رأيه ! وهو اختيار الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - في شرح رياض الصالحين .

القول الثالث : أنه يكتب له أجر النية مع العمل دون المضاعفة .

وهو اختيار ابن رجب - رحمه الله - في جامع العلوم والحكم .

ولعل القول الثالث هو الراجح - والله أعلم - ، وذلك لما يلي :

أولاً : قال تعالى (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرْرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) .

وجه الاستدلال : أن الله - سبحانه - نفى في هذه الآية التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر بدرجة ، وتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر بدرجات

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : القاعدون المفضل عليهم المجاهدون درجة هم القاعدون من أهل الأعدار ، والقاعدون المفضل عليهم المجاهدون درجات هم القاعدون من غير أهل الأعدار .

ثانياً : قوله تعالى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

وجه الاستدلال : أن من خرج مهاجراً ثم مات قبل أن تتم هجرته فإن له أجر المهاجر الذي تمت هجرته ؛ ولا يحصل على أجر المضاعفة بدليل ما سيأتي في الذي بعده ، أو يقال : إن هذه المسألة خارج البحث ، وذلك أن هذه المسألة فيمن بدأ بالعمل

وشرع فيه ثم أدركته المنية فيحصل على أجر العمل مع المضاعفة

ثالثاً : عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَزَاةٍ فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبْسَهُمُ الْمَرَضُ » وفي رواية : إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ) رواه مسلم .

وجه الاستدلال : أن قوله ﷺ (ما سرنا مسيراً ، ولا قطعنا وادياً) وفي اللفظ الآخر (ما سلكتنا شعباً) يدل على أن لهم أجر هذه الأعمال ولم يتعرض للمضاعفة ، فإذا نظرنا إلى حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - المتقدم : ... فمن همّ بها فعملها

كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ... ، اتضح لنا أن المضاعفة معلقة على مباشرة العمل

والفعل ، وهذا الذي من أهل الأعدار لم يباشر العمل وإن همَّ به ، فلا يحصل إلا على أجر العمل فقط .

٧- الحديث دليل على عظم فضل الله ورحمته بعباده .

فمن رحمته : أن الحسنه مضاعفة ، والسيئة لا تضاعف .

ومن رحمته : جعل أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة .

ومن رحمته : ما جاء في قوله ﷺ (إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

ومن رحمته : ما جاء في حديث (وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأبما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي) .

ومن رحمته : أن أمة الإسلام هي أقل الأمم عملاً ، وأكثرهم أجراً .

٨- جاء في رواية في آخر الحديث (ولا يهلك على الله هالك) .

قال ابن رجب رحمه الله : يعني بعد هذا الفضل العظيم من الله والرحمة الواسعة منه بمضاعفة الحسنات والتجاوز عن السيئات ، لا يهلك على الله إلا من هلك ، وألقى بيده إلى التهلكة ، وتجراً على السيئات ، ورغب عن الحسنات ، وأعرض عنها .

٩- أسلوب الترغيب والترهيب من أفضل أساليب التربية .

١٠- اطلاع الملائكة على ما يهم به الإنسان .

١١- على المسلم أن ينوي فعل الخير دائماً وأبداً ، لعله يكتب له أجره وثوابه .

١٢- الحث على العمل الصالح والمسارة فيه .

٣٢- باب مَا يَتَّقِي مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ

٦٤٩٢- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ (إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدْقُ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُوَبَّاتِ) .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَغْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ .

١- الحديث فيه التحذير من محقرات الذنوب .

والمحقرات هي : ما لا يبالي المرء بها من الذنوب .

وقال العمري في عمدة القاري: هي الذنوب التي يحتقرها فاعلمها .

عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ) فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شَهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ (رواه البخاري) .

قال الحافظ في الفتح : قوله (الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ) قال ابن أبي حمزة : السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور ، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه .

والحكمة في التمثيل بالجبل ، أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة ، وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان ، فلا يأمن العقوبة بسببها ، وهذا شأن المسلم ، أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ .

قوله (وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ) في رواية أبي الربيع الزهراني عن أبي شهاب عند الإسماعيلي (ذُنُوبَهُ كَأَنَّهَا ذَبَابٌ مَرَّ عَلَى

أنفه) أي : ذنبه سهلٌ عنده ، لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضررٍ ، كما أن ضررَ الذُّباب عنده سهل ، وكذا دفعه عنه .
قوله (فقال به هكذا) أي : نحاه بيده ، أو دفعه ، هو من إطلاق القول على الفعل ، قالوا : وهو أبلغ .
قال المحبُّ الطَّبري : إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته ؛ لأنه على يقين من الذنب ، وليس على يقين من المغفرة ، والفاجر قليل المعرفة بالله ؛ فلذلك قلَّ خوفه ، واستهان بالمعصية .
وقال ابن أبي جمرة : السَّبب في ذلك أنَّ قلب الفاجر مُظلمٌ ، ففوق الذنب خفيفٌ عنده ، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعط يقول : هذا سهل .

قال : ويُستفاد من الحديث أنَّ قلَّة خوف المؤمن دُنوبه ، وخفَّتة عليه يدلُّ على فُجوره .
قال : الحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذُّباب ، كونُ الذُّباب أخفَّ الطير وأحقَّره ، وهو مما يعاين ويُدفع بأقل الأشياء .
قال : وفي ذكر الأنف مُبالغة في اعتقاده خفة الذنب عنده ، لأنَّ الذُّباب قلماً ينزل على الأنف ؛ وإنما يقصد غالباً العين .
قال : وفي إشارته بيده تأكيدٌ للحقَّة أيضاً ؛ لأنه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره .
قال : وفي الحديث ضربُ المثل بما يُمكن ، وإرشاد إلى الحُض على محاسبة النفس واعتبار العلامات الدالة على بقاء نعمة الإيمان ،
٢- قال ابن بطلال : يُؤخذ منه أنه ينبغي أن يكون المؤمن عظيمَ الخوف من الله تعالى من كل ذنب - صغيراً كان أو كبيراً- لأن الله تعالى قد يُعذِّب على القليل ؛ فإنه لا يُسأل عما يفعل سبحانه وتعالى .
٣- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ دَا بُعُودٍ وَذَا بُعُودٍ حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْصَحُوا بِهِ خُبْرَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذَ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ) رواه أحمد .

قال الغزالي : صغائر المعاصي يجزَّ بعضها إلى بعض حتى تغوت أهل السعادة بهم أصل الإيمان عند الخاتمة .
وقال : تصير الصغيرة كبيرة بأسباب :

منها : الاستصغار والإصرار .

فإن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله ، وكلما استصغره عظم عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكرهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الألفة به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب المطلوب تنويره بالطاعة والمحدور تسويده بالخطيئة .

وقال الحكيم الترمذي : إذا استخف بالحقرات ، دخل التخلط في إيمانه ، وذهب الوقار وانتقص من كل شيء بمنزلة الشمس ينكسف طرف منها ، فبقدر ما انكسف ولو ك رأس إبرة ينقص من شعاعها وإشراقها على أهل الدنيا وخلص النقصان إلى كل شيء في الأرض ، فكذا نور المعرفة ، ينقص بالذنب على قدره فيصير قلبه محجوباً عن الله ، فزوال الدنيا بكليتها أهون من ذلك ، فلا يزال ينقص ويتراكم نقصانه وهو أبله لا ينتبه لذلك حتى يستوجب الحرام .

وقال الغزالي : وتواتر الصغائر عظيم التأثير في سواد القلب ، وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر ، فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر .

قال العلائي : أخذ من كلام حجة الإسلام : أن مقصود الحديث الحث على عدم التهاون بالصغائر ، ومحاسبة النفس عليها وعدم الغفلة عنها ، فإن في إهمالها هلاكه ، بل ربما تغلب الغفلة على الإنسان فيفرح بالصغيرة ويتحجج بها ويعد التمكن منها نعمة ، غافلاً عن كونها وإن صغرت سبب للشقاوة ، حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه لشدة فرحه بمفارقتها فيقول : أما رأيته كيف مزقت عرضه؟

ويقول المناظر : أما رأيتني كيف فضحته وذكرت مساوئه حتى أحجلته ؟ ، وكيف استخففت به وحقرته ؟
ويقول التاجر : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وغبنته ؟ وذلك وأمثاله من المهلك .
٤- وها هنا أمور ينبغي التنبيه عليها :

الأمر الأول: أن الإصرار يُصَيِّر الصغيرة كبيرة .

كما قال شيخ الإسلام : إذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة ، وإذا تاب منها غفرت .

والأمر الثاني : أن محقرات الأعمال وصغار الذنوب لها قدرها من الحساب والعذاب ، فمتى اجتمعت على المرء أهلكته ، ولذلك قال النبي ﷺ (إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه) .

وقد ضرب رسول الله ﷺ لمن مثلاً فقال (كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً فأحجوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها) رواه أحمد .

وقال رسول الله ﷺ لعائشة (إياك ومحقرات الأعمال ، فإن لها من الله طالباً) رواه أحمد وابن ماجه .

قال القاري في المرقاة (طالباً) أي نوعاً من العذاب يعقبه ، فكأنه يطلبه طالباً لا مرد له ، فالتنوين للتعظيم ، أي طالباً عظيماً ، فلا ينبغي أن يغفل عنه بل ينبغي أن يخشى منه .

٥- ومن أعظم مصائب هذه المحقرات أنها تُظلم القلب وتُسوِّده ، إذا لم يتب منها صاحبها ويستغفر الله تعالى .

فقد قال ﷺ (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه : وهو الران الذي ذكر الله (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) رواه الترمذي .

٦- أن الوقوع في الصغائر خطوة من خطوات الشيطان للوقوع في الكبائر .

وقد قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

قال السعدي : هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة ، أي: في جميع شرائع الدين ، ولا يتركوا منها شيئاً ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله ، وإن خالفه تركه ، ولما كان الدخول في السلم كافة ، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي: في العمل بمعاصي الله (إنه لكم عدو مبين) والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء ، وما به الضرر عليكم ، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل ، قال تعالى (فإن زلتم من بعد ما جاءتكم البينات) أي : على علم ويقين (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل ، فإن العزيز القاهر الحكيم ، إذا عصاه العاصي قهره بقوته ، وعذبه بمقتضى حكمته ، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة .

٣٣- باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها

٦٤٩٣- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ قَالَ (نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ فَقَالَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا فَتَبِعَهُ رَجُلٌ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ فَاسْتَعَجَلَ الْمَوْتَ فَقَالَ بِدُبَابَةِ سَيْفِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ تَدْيِيهِ فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا) .

[م : ١١٢] .

(نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ) وفي الرواية الأخرى (وفي أصحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَهُمْ شَادَّةً ، وَلَا فَادَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ فَقَالَ مَا أَجْزَأُ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأُ فُلَانٌ) .
(فَقَالَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا) وفي الرواية الأخرى (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) .

(فَتَبِعَهُ رَجُلٌ) وفي الرواية الأخرى (فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَنَا صَاحِبُهُ) وفي رواية (فقال رجل من القوم لاتبعته) .
(فَقَالَ بِدُبَابَةِ سَيْفِهِ) حده وطره .

(إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ) وفي رواية (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْنُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ...) .

١- الحديث دليل على تحريم قتل الإنسان نفسه وأن ذلك من الكبائر . قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) .

وقال ﷺ (مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا) .

٢- أن الأعمال بالخواتيم .

٣- علم من أعلام نبوته .

٤- إثبات البعث والنشور .

٥- حرص الصحابة على ما تطمئن به نفوسهم .

٦- أنه لا يعلم بالنيات إلا الله .

٧- الحذر من الاعتزاز والعجب بالنفس .

٨- فيه تفسير حديث (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة) .

٩- الحرص والانتباه للقلب .

١٠- الخوف من سوء الخاتمة .

١١- أنه لا يجوز لأحد أن يشهد لأحد بجنة أو نار لما يرى عليه من أعمال من خير أو شر إلا لمن حكم له النبي ﷺ .

١٢- وجوب الإخلاص في العمل .

١٣- خطر الرياء والسمعة وأتاهما يفسدان الأعمال .

٣٤- باب العزلة راحة من خلط السوء

٦٤٩٤- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْحُدْرِيِّ قَالَ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَرَجُلٌ فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ . [م : ١٨٨٨] .

٦٤٩٥- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ . قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ خَيْرٌ مَالِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ الْغَنَمُ يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ) .

(أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ) وفي الرواية الأخرى (أفضل) ، قال القرطبي : أي : أيّ الناس المجاهدين ؛ بدليل أنه أجابه بقوله : (رجل مجاهد بنفسه وماله) ثم ذكر بعده من جاهد نفسه بالعزلة عن الناس .
(جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ) أي : يبذل ماله ونفسه لإعلاء كلمة الله .
(وَرَجُلٌ) وفي الرواية الأخرى (ثم رجل معتزل) .
(فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ) الشَّعْب : هو ما انفرج بين جبلين .
(يَعْبُدُ رَبَّهُ) وفي رواية (يتقي ربه) .
(وَيَدْعُ) أي : يترك .
(النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ) أي : يُبعد عنهم شره .
(يوشك) أي يقرب .

(غنم) إن قيل : لماذا قيد المال بالغنم ؟ الجواب : بأن هذا النوع من المال ، نموه وزيادته أبعد من الشوائب المحرمة كالربا والشبهات المكروهة ، وخصت الغنم بذلك لما فيها من السكينة والبركة ، وقد رعاها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مع أنها سهلة الانقياد ، خفيفة المؤنة ، كثيرة النفع .
(شعف الجبال) أي : رؤوس الجبال ، وشعفة كل شيء أعلاه .

(مواقع القطر) أي : موضع نزول المطر ، كبطون الأودية ، وخصها بالذكر لأنها مكان الرعي .
فإن قيل : لماذا قيد الاتباع بشعف الجبال ، ومواقع القطر ؟ الجواب : بأنها أسلم غالباً من المعادات المؤدية إلى الكدورات .
(يفر بدينه) أي بسبب دينه خوفاً على دينه وطلباً لسلامة رأس ماله (لأن الدين هو رأس المال) ، وقيل : للمصاحبة كما في قوله تعالى (اهبط بسلام منا) أي يفر مصحباً دينه .

(من الفتن) أي الفرار سببه ومنشأه الفتن . لا لغرض دنيوي ، والفتن جمع فتنة والأصل فيها الاختبار والابتلاء .

١- الحديث دليل لمن قال العزلة أفضل من الخلطة ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

القول الأول : العزلة أفضل واستدلوا :

بأحاديث الباب .

القول الثاني : الخلطة أفضل إذا أمن على دينه .

ونسبه الحافظ ابن حجر للجمهور .

لحديث ابن عمر . قال : قال ﷺ (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر

على أذاهم) رواه ابن ماجه .

قال السندي : الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُخَالَطَةَ الصَّابِرَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلِ . اهـ .

وقال الصنعاني : فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحسن معاملتهم فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة .

ولأن ذلك هو فعل الأنبياء . صلوات الله وسلامه عليهم . ومن بعدهم من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم .

قال الحافظ ابن حجر : قال الجمهور الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال أنواع الخير إليهم من إعمارة وإغاثة وعبادة وغير ذلك .

وقال النووي: مذهب الشافعي وأكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن، وأجابوا عن هذا الحديث [مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره] بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب ، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه .

قال الحافظ ابن حجر في حديث أبي سعيد : وَالْخَيْرُ دَالٌّ عَلَى فَضِيلَةِ الْعُزْلَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى دِينِهِ . (الفتح) .

وقال السندي : فِيهِ أَنََّّهُ يَجُوزُ الْعُزْلَةُ بَلْ هِيَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْفِتَنِ اهـ .

قال الحافظ : والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه وقد اختلف السلف :

فقال الجمهور الاختلاط أولى .

لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، وإيصال أنواع الخير إليهم من إعمارة ، وإغاثة وعبادة ، وغير ذلك .

وقال قوم العزلة أولى .

لتحقق السلامة بشرط معرفة ما يتعين .

وقال النووي المختار تفضيل المخالطة لمن لا يغلب على ظنه أنه يقع في معصية فان أشكل الأمر فالعزلة أولى .

..... إلى أن قال الحافظ : وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة ، فان وقعت الفتنة ترجحت العزلة ، لما ينشأ فيها غالباً من

الوقوع في المحذور ، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة فتعم من ليس من أهلها ، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين

ظلموا منكم خاصة) ويؤيد التفصيل المذكور حديث أبي سعيد أيضاً (خير الناس رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من

الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره) . (الفتح) .

وهذا هو الراجح .

فائدة :

كان أول من اعتزل إبراهيم . عليه السلام . ، قال الله تعالى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) فاعتزلهم لما يئس منهم وخاف

على نفسه . وقال تعالى حاكياً قصة أصحاب الكهف : (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف) .

قال ابن كثير : وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن .

قال الإمام الخطابي: إن العزلة يجب أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة .

يقول الإمام علي القاري: "والمختار هو التوسط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامهم، والمخالطة بالصلحين، والاجتماع مع عامتهم

في نحو جمعهم وجماعاتهم" (٣٠) ، ولا تصلح العزلة لعامة الناس بابتعادهم عن الناس وعن أهل العلم منهم خاصة لأنهم لا يقوون

على مقاومة الشيطان لأنه يأكل من القاصية..

- لذا قال الخطابي : فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضرّ شيء على الجهّال .
- وقال ابن الجوزي : ولكن لا يصح هذا إلا للعالم فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط .
- وقال الرّبيع بن خثيم : تفقه ثمّ اعتزل .

وقال بعض العارفين : العزلة بغير عين العلم زلّة، وبغير زاي الزهد علّة .

- وفي هذا الزمن كثرت الفتن وتنوعت وقل الحياء وكثرت المجالس التي يجتمع فيها الناس على الملاهي والأغاني والمجون وغيرها ، فالأولى للمسلم أن يعتزلها حتى لا يفتن بها ، كما فتن الكثير ، وأيضاً يسلم من الغيبة والنميمة وغيرها من الكلام الذي لا فائدة منه . والله المستعان .

كان داود الطائي من كبار أئمة الفقه والرأي ، برع في العلم ثمّ أقبل على شأنه ولزم الصمت وآثر الخمول وفر بدينه . كان الثوري يعظمه ويقول : أبصر داود أمره .

قال عبد الله بن داود : من أمكن الناس من كل ما يريدون أضروا بدينه وديناه .

وقال أحمد بن حنبل : أشتهي ما لا يكون ، أشتهي مكاناً لا يكون فيه أحد من الناس .

وقال سعيد بن الحداد : لا تعدلن بالوحدة شيئاً ، فقد صار الناس ذئاباً .

وقال سفیان الثوري : كان طاووس يجلس في بيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : حيف الأئمة ، وفساد الناس .

وعن عبد الله - بن أحمد بن حنبل - قال: كان أبي أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد إلا في مسجد أو حضور جنازة، أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق .

٢- أن فرار الإنسان بدينه من الفتن من الإيمان .

وقد مدح الله من فر بدينه :

قال تعالى (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) .

وقال تعالى (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) .

وقال ﷺ (من سمع بالدجال فليناً عنه) رواه أبو داود .

٣- أن أعظم ما يُحافظ عليه هو الدين .

٤- إثبات الفتن وكثرتها وقدموها ، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك :

فقال ﷺ (بادروا بالأعمال الصالحة فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا) رواه مسلم .

وعن أسامة بن زيد قال (أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة ، فقال : هل ترون ما أرى ؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر) رواه البخاري .

أشرف : نظر وطلع . الأطم : حصن مبني بالحجارة .

وقال ﷺ (ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأً فليعدّ به) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إنما ستكون فتن) رواه مسلم .

وقال ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يقبض وتظهر الفتن) رواه البخاري .

٥- أهمية المحجرة في سبيل الله ولو كان فيها مشقة .

٦- فضل العزلة إذا خاف الإنسان على دينه .

قال ابن رجب: فإن من خالط الفتن وأهل القتال على الملك، لم يسلم دينه من الإثم، إما بقتل معصوم، أو أخذ مال معصوم، أو المساعدة على ذلك، ونحوه، وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية حسن الفرار منه .

وقال الخطابي : لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيراً كثيراً .

٧- قوله ﷺ (يوشك ..) تقرب للفتنة، قال ابن رجب: وقد وقع ذلك في زمن عثمان، كما أخبر به ﷺ ، وهذا من جملة أعلام نبوته ﷺ، وقد اعتزل جماعة من الصحابة كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فإنهما لزمنا منزلهما بالعقيق حتى لحقا بالله .

٨- وجوب الاستعداد للفتن بما يعصم منها ، فإن النبي ﷺ أخبر بذلك ولا بد من وقوعه .

٩- قوله (غنم يتبع بها ..) هذا بناء على الأغلب ، وإلا لو جلس في بيته لكان مصيباً ، بدليل حديث حذيفة في الفتن (قال

ﷺ : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : إن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ؟ قال : تجلس في بيتك ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) .

١٠- قوله (غنم ...) خصها بالذكر لأمر : لأنها أقل تكلفاً من غيرها - ولما فيها من البركة - ولأنها أهدأ من غيرها فلا تتعب - ولتيسر الحصول عليها .

١١- الحكمة من الفتن : فهي اختبار للإيمان - واختبار للبصيرة ، واختبار للتقوى ، واختبار للعلم .

١٢- مشروعية فعل الأسباب .

١٣- جواز ادخار المال وقد قال ﷺ (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد .

١٤- اتخاذ المال وخاصة الغنم لبركتها كما في الحديث .

١٥- الإشارة إلى الفتن في آخر الزمان .

٣٥- باب رفع الأمانة

٦٤٩٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) .

(باب رفع الأمانة) هي ضد الخيانة ، والمراد برفعها إذهابها بحيث يكون الأمين معدوماً أو شبه معدوم .
(إذا وسد) أي : أسند .

١- من علامات الساعة ضياع الأمانة (إسناد الأمور إلى غير أهلها) .

وقد أخبر النبي ﷺ بضياع الأمانة بقوله (... فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً ...) متفق عليه .

وضياع الأمانة دليل على ضياع الإيمان ونقص الدين ، قال ﷺ (لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له) . حديث صحيح ، وإسناده جيد رواه الإمام أحمد والبيهقي .

● وإسناد الأمر إلى غير أهله دليل واضح على عدم اكتراث الناس بدينهم ، حتى إنهم ليولون أمرهم من لا يهتم بدينه ، وهذا إنما يكون عند غلبة الجهل ، ورفع العلم .

وقد أخبر النبي ﷺ بقوله (سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويضة) قيل: وما الرويضة؟ قال: (الرجل التافه في أمر العامة) رواه ابن ماجه .

٢- أن كل شيء لا بد وأن يوضع في مكانه المناسب، فلا يسند العمل ولا المنصب إلا لصاحبه الجدير به، والأحق به من غيره، دون محاباة لأحد وإلا فقد ضاعت الأمانة واقتربت الساعة، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ (من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين).

● من مظاهر ضياع الأمانة ، إسناد أمور الناس من إمارة وخلافة وقضاء ووظائف على اختلافها إلى غير أهلها القادرين على تسييرها والحفاظة عليها ، لأن في ذلك تضييعاً لحقوق الناس ، واستخفافاً بمصالحهم ، وإيغاراً لصدورهم ، وإثارة للفتن بينهم .
قال القرطبي: ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الباب وغيره قد شاع بين الناس معظمه، ووسد الأمر إلى غير أهله، وصار رؤوس الناس أسافلهم ، وفشت في الناس الخيانة وسوء الأخلاق .

فكيف لو رأى القرطبي زماننا هذا ؟؟

٣- ينبغي الاستعداد للساعة .

٤- أن الساعة عند الإطلاق يراد بها يوم القيامة ، لأن الساعة تطلق على عدة إطلاقات :

الإطلاق الأول : القيامة .

كقوله تعالى (اقتربت الساعة) .

وقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) .

الإطلاق الثاني : موت الإنسان .

فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله عالم البرزخ الذي هو أول عوالم الآخرة .

الإطلاق الثالث : تطلق أحياناً ويراد بها موت أهل القرن .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (كَانَ الْأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ مَتَى السَّاعَةُ فَتَنَظَّرَ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ فَقَالَ : إِنْ يَعْشَ هَذَا لَمْ يَدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ) .

٦٤٩٧- حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ ، حَدَّثَنَا (أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَخَرَجْتُهُ عَلَى رَجُلِكَ فَتَنْطَفِئُ فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، وَلَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ زَمَانَ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ لَنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا) .

قَالَ الْفَرَبْرِيُّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ حَدَّثْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَاصِمٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ يَقُولُ : قَالَ الْأَصْمَعِيُّ ، وَأَبُو عَمْرٍو وَغَيْرُهُمَا جَذْرُ قُلُوبِ الرِّجَالِ الْجَذْرُ الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَالْوَكْتُ أَثَرُ الشَّيْءِ الْيَسِيرُ مِنْهُ وَالْمَجْلُ أَثَرُ الْعَمَلِ إِذَا غَلَطَ .

[م : ١٤٣] .

(أَنَّ الْأَمَانَةَ) قال القرطبي : الأمانة : كل ما يوكل إلى الإنسان حفظه ، ويُجَلَّى بينه وبينه ، ومن هنا سمي التكليف أمانة في قوله

تعالى (إنا عرضنا الأمانة ...) .

(نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ) قال النووي : جذر بفتح الجيم وإسكان الذال ، وهو أصل الشيء .

قال القرطبي : ومعنى إنزالها في القلوب : أن الله تعالى جَبَلَ القلوبَ الكاملةَ على القيام بحق الأمانة ؛ مِنْ حِفْظِهَا واحترامها ، وأدائها لمستحقيها ، وعلى النُفْرَةِ مِنَ الخيانةِ فيها ؛ لِتَنْتَظِمَ المصالحُ بذلك ، لا لِأَنَّهَا حَسَنَةٌ فِي ذاتها ؛ كما تقولُ المعتزلةُ ؛ على ما يُعرَفُ في موضعه .

(ثُمَّ عَلِّمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِّمُوا مِنَ السُّنَّةِ) قال في الفتح : فيه إشارة إلى أنهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن ، والمراد بالسنن ما يتلقونه عن النبي ﷺ واجبا كان أو مندوبا .

(وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا) أي : رفع الأمانة أصلاً ، حتى لا يبقى من يوصف بالأمانة إلا النادر .

وهذا هو الحديث الثاني الذي ذكره حذيفة أنه ينتظره ، وهو رفع الأمانة أصلاً .

(يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ) بفتح فسكون ، المرة من النوم .

(فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةَ مِنْ قَلْبِهِ) أي : تنزع منه .

(فيظل) أي : فيصير .

(أَثَرُهَا) أي : أثر الأمانة ، وهو ثمرة الإيمان ، والمعنى أن الأمانة تذهب حتى لا يبقى منها إلا الأثر الموصوف في الحديث .

(مِثْلُ أَثَرِ الْوَكْتِ) قال النووي : فَهُوَ يَفْتَحُ الْوَاوَ وَإِسْكَانَ الْكَافِ وَبِالْتَّاءِ الْمُثَنَّىةِ مِنْ فَوْقَ وَهُوَ الْأَثَرُ الْيَسِيرُ كَذَا قَالَ الْهَرَوِيُّ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ سَوَادٌ يَسِيرٌ ، وَقِيلَ : هُوَ لَوْنٌ يَحْدُثُ مُخَالَفٌ لِلْوَنِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ .

(فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلُ الْمَجْلِ) بفتح الميم وإسكان الجيم ، قال النووي : قال أهل اللغة والغريب : المجل : هو التنقط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ، ويصير كالقبة ، فيه ماء قليل .

(كجمر) هي القطعة الملتهبة .

(دحرجته) أي قلبت ذلك الجمر .

(فَتَنْفِطُ) بكسر الفاء .

(فتراه) أي : فترى الموضع المدحرج عليه الجمر .

(مُنْتَبِراً) أي : مرتفعاً .

(وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ) أي : ليس في ذلك المنتبر شيء صالح ، وإنما هو ماء فاسد .

(فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِاعُونَ) أي : يدخلون في الصباح ، أو المراد يصيرون .

(فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ) بل يظهر من كل أحد منهم الخيانة في المبايعه والمعاهده .

(فَيُقَالُ) أي : من غاية قلة الأمانة في الناس .

(إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا) أي : كامل الأمانة .

(وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ) في ذلك الزمان .

(مَا أَعْقَلُهُ) أي : ما أحسن فهمه وتدييره للشيء .

(وَمَا أَظْرَفُهُ) أي : ما أحسنه .

(وَمَا أَجْلَدُهُ) أي : يقال له هذا تعجباً من كمال جلده ، وهو القوة والشدة .

(وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ) أي : وما في قلبه مقدار شيء قليل من إيمان .
 (وَلَقَدْ آتَى عَلِيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَايَ أَيُّكُمْ بَايَعْتُ) يعني البيع والشراء ، لا المبايعة . قال في الفتح : مراده المبايعة في السلع ونحوها
 لا المبايعة بالخلافة ولا الإمارة .

(لَيْتَن) أي : الذي بايعته .

(كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ الْإِسْلَامُ) إذ الإيمان يدعو إلى أداء الأمانة .

(وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ) : أي الوالي عليه ، لأنهم كانوا في ذلك الوقت لا يولون إلا من كان مستقيماً في دينه
 قادراً على إيصال كل ذي حق حقه ، قال في الفتح : ساعيه : أي واليه الذي أقيم عليه ليُنصف منه .

(فَأَمَّا الْيَوْمَ) أي : في الوقت الذي يتحدث فيه بهذا الحديث .

(فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا) أي أشخاصاً معينين يثق بهم وبدينهم وأمانهم .

قال النووي : فَمَعْنَى الْمُبَايَعَةِ هُنَا الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ الْمَعْرُوفَانِ . وَمُرَادُهُ أَيُّ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأَمَانَةَ لَمْ تَرْتَفِعْ ، وَأَنَّ فِي النَّاسِ وَفَاءً
 بِالْعُهُودِ ، فَكُنْتُ أَقْدِمُ عَلَى مُبَايَعَةِ مَنْ اتَّفَقَ غَيْرَ بَاحِثٍ عَنْ حَالِهِ وَثُوقًا بِالنَّاسِ وَأَمَانَتِهِمْ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا فَدِينُهُ وَأَمَانَتُهُ تَمْنَعُهُ
 مِنَ الْخِيَانَةِ وَتَحْمِلُهُ عَلَى آدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَسَاعِيهِ وَهُوَ الْوَالِي عَلَيْهِ كَانَ أَيْضًا يَثُومُ بِالْأَمَانَةِ فِي وَلايَتِهِ فَيَسْتَخْرِجُ حَقِّي
 مِنْهُ ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ ذَهَبَتْ الْأَمَانَةُ فَمَا بَقِيَ لِي وَثُوقٌ بِمَنْ أَبَايَعُهُ ، وَلَا بِالسَّاعِي فِي آدَائِهِمَا الْأَمَانَةَ ، (فَمَا أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا) وَفُلَانًا
 يَعْنِي أَفْرَادًا مِنَ النَّاسِ أَعْرَفْتُهُمْ وَأَثِقْتُ بِهِمْ .

وحذيفة كانت وفاته في أول سنة : ٣٦ بعد قتل عثمان بقليل ، فأدرك بعض الزمن الذي وقع فيه التغيير .

١- الحديث دليل على وجوب حفظ الأمانة ورعايتها .

٢- الحديث دليل على أن رفع الأمانة من علامات الساعة وقد تقدم (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) .

٣- أن الأخلاق الإسلامية وغيرها تنبع من الكتاب والسنة .

٤- فضل تعلم الكتاب والسنة .

٥- أن تعلم الكتاب والسنة أمان من الزيغ .

٦- هذا الحديث من أعلام النبوة ؛ لأن فيه الإخبار عن فساد أديان الناس وقلة أمانتهم في آخر الزمان ، ولا سبيل إلى معرفة

ذلك قبل كونه إلا من طريق الوحي ، وهذا كقوله (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) وروى أبو هريرة t قال (قال رسول الله لعبد الله بن عمرو : كيف بك يا عبد الله إذا بقيت في حثالة من الناس ، قد مرجت عهدهم وأماناتهم واختلفوا
 فصاروا هكذا ، وشبك بين أصابعه ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، فما تأمري ؟ قال : عليك بخاصتك ، ودع عنك عوامهم) .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : ولقد شاهد الناس اليوم مصداق هذا الحديث عن رسول الله ﷺ فإنك تستعرض الناس رجلاً
 رجلاً حتى تبلغ إلى حد المائة أو المئات ، لا تجد الرجل الأمين الذي أدى الأمانة كما ينبغي في حق الله ولا في حق الناس .

٧- سرعة تقلب القلوب بسبب كثرة الفتن ، حيث إن الرجل ينام فيقوم فلا يجد قلبه على حاله قبل النوم ، بل تغير وانقلب .

٨- بيّن النبي ﷺ في الحديث السابق أن سبب ضياع الأمانة؛ فساد سرائر الناس، وقلة إيمانهم؛ لأن هناك علاقة وثيقة بين الإيمان
 والأمانة؛ فإذا ضاع الإيمان فلا أمانة.

قال أنس (ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له) . . "

وكان عروة بن الزبير رضي الله عنه يقول: " ما نقصت أمانة الرجل إلا نقص إيمانه .

- ٩- الحذر من الخيانة في الأعمال التي توكل للشخص .
- ١٠- أن فضل الزمان والمجتمعات بالأمانة والإيمان لا بالشكليات والمظاهر .
- ١١- غربة الإسلام وأهله .
- ١٢- قوله (وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان) قال في الفتح : قد يفهم منه أن المراد بالأمانة في الحديث الإيمان ، وليس كذلك، بل ذكر ذلك لكونها لازمة الإيمان .
- ١٣- أن أداء الأمانة من الإيمان .
- ١٤- ينبغي للإنسان أن يتعاهد أخلاقه الطيبة ويحافظ عليها ، فهذا الشخص أصبح خائناً بعد أن كان أميناً .
- ١٥- فضل قرن الصحابة على من بعدهم حيث كانت الأمانة فيهم كاملة .
- ١٦- استعمال التشبيه في التعليم .

٦٤٩٨- عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً) .

[م : ٢٥٤٧] .

(لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً) راحلة : أي مرحولة ، وهي النجبية المختارة .

١- الحديث دليل على أن الكامل في دينه وأمانته في الناس قليل .

معنى الحديث :

قال النووي: وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّاسَ مُتَسَاوُونَ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ فِي النَّسَبِ، بَلْ هُمْ أَشْبَاهُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ . وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الرَّاحِلَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ الْجَمَلُ النَّجِيبُ وَالنَّاقَةُ النَّجِيبَةُ . قَالَ : وَالْهَاءُ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ كَمَا يُقَالُ : رَجُلٌ فَهَامَةٌ وَنَسَابَةٌ . قَالَ : وَالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ غَلَطَ ، بَلْ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الرَّاهِدَ فِي الدُّنْيَا الْكَامِلَ فِي الرَّهْدِ فِيهَا وَالرَّغْبَةَ فِي الْآخِرَةِ قَلِيلٌ جِدًّا كَقَلَّةِ الرَّاحِلَةِ فِي الْإِبِلِ ، هَذَا كَلَامُ الْأَزْهَرِيِّ ، وَهُوَ أَحْوَدُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَأَجْوَدُ مِنْهُمَا قَوْلُ آخِرِينَ أَنَّ مَعْنَاهُ الْمَرْضِيُّ الْأَحْوَالِ مِنَ النَّاسِ الْكَامِلِ الْأَوْصَافِ الْحَسَنِ الْمُنْتَظَرِ الْقَوِيِّ عَلَى الْأَحْمَالِ وَالْأَسْفَارِ . سُمِّيَتْ رَاحِلَةً لِأَنَّهَا تَرَحَّلُ أَيُّ يُجْعَلُ عَلَيْهَا الرَّحْلُ فَهِيَ فَاعِلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ كَعَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ أَيُّ مَرْضِيَّةٍ وَنَظَائِرِهِ .

وقال الخطابي تأولوا هذا الحديث على وجهين :

أحدهما : أن الناس في أحكام الدين سواء ، لا فضل فيها لشريف على مشروف ، ولا لرفيع على وضعيف ، كالإبل المائة التي لا يكون فيها راحلة ، وهي التي ترحل لتركب والراحلة فاعلة بمعنى مفعولة أي كلها حمولة تصلح للحمل ولا تصلح للرحل والركوب عليها .

والثاني : أن أكثر الناس أهل نقص وأما أهل الفضل فعددهم قليل جداً ، فهم بمنزلة الراحلة في الإبل الحمولة ومنه قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وقال القرطبي : قلت : ويقع لي أن الذي يناسب التمثيل بالراحلة إنما هو الرجل الكريم ، الجواد ؛ الذي يتحمل كل الناس وأثقالهم بما يتكلفه من القيام بحقوقهم ، والغرامات عنهم ، وكشف كربهم ، فهذا هو القليل الوجود ، بل : قد يصدق عليه اسم مفقود ، وهذا أشبه القولين ، والله تعالى أعلم .

وقال السعدي : هذا الحديث مشتمل على خبر صادق ، وإرشاد نافع .

أما الخير ، فإنه ﷺ أخبر أن النقص شامل لأكثر الناس ، وأن الكامل - أو مقارب الكمال - فيهم قليل ، كالإبل المائة ، تستكثرها ، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب ، والذهاب والإياب ، لم تكذبك ، وهكذا الناس كثير ، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة ، أو الولايات الكبار أو الصغار ، أو الوظائف المهمة ، لم تكذبك من يقوم بتلك الوظيفة قياماً صالحاً ، وهذا هو الواقع ، فإن الإنسان ظلوم جهول ، والظلم والجهل سبب للنقص ، وهي مانعة من الكمال والتكميل .

وأما الإرشاد ، فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا ، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات ، والأمور الكلية العامة النفع .

٣٦- باب الرياء والسمعة

٦٤٩٩- عن جندب قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ) .
[م : ٢٩٨٧] .

(باب الرياء والسمعة) : الرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به : إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها .

والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع والمراد بها : نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر .
١- الحديث دليل على تحريم الرياء وعلى خطره وشدته عقوبته .

قوله (مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ) .

قال النووي (سَمِعَ) بِشَدِيدِ الْمِيمِ ، وَمَعْنَاهُ : أَشْهَرَ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ رِيَاءً (سَمِعَ اللَّهُ بِهِ) أَي : فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَعْنَى : « مَنْ رَأَى » أَي : مَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِيُعْظَمَ عِنْدَهُمْ «رَأَى اللَّهُ بِهِ » أَي : أَظْهَرَ سَرِيرَتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ .

قال الخطابي : معناه من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه .

وقيل : من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة .

وقيل : معنى (سمع الله به) شهره أو ملاً أسمع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة.
قال الحافظ ابن حجر : قلت ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخرة فهو المعتمد فعند أحمد والدارمي من حديث أبي هند الداري رفعه (من قام مقام رياء وسمعه راءى الله به يوم القيامة وسمع به) .

٢- خطر الرياء :

أولاً : أنه محبط للعمل .

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ...) .

وقال سبحانه (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) .

قال ابن كثير : لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة ، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة

التي لا يُرون فيها غالباً كصلاة العشاء في وقت العتمة وصلاة الصبح في وقت الغلس.

ثانياً : هو من صفات المنافقين .

قال تعالى في المنافقين (يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) .

وقال سبحانه وتعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

قال ابن كثير في قوله تعالى (فليعمل عملاً صالحاً) أي: ما كان موافقاً لشرع الله، وقوله (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وهو الذي يُراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

وقال جل شأنه (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) .

قال مجاهد في معنى هذه الآية: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات .

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، هذه آيتهم وقصتهم.

ثالثاً : هدد تعالى المرأتين .

قال سبحانه موضعاً عقوبة المرأتين يوم القيامة (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .؟؟؟ وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ) .

رابعاً : أول من يقضى عليه يوم القيامة المرآني بعمله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ . قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ . قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَزَكَّتُ مِنْ سَبِيلٍ حُبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) رواه مسلم .

خامساً : أن الله يفضح المرآني .

كما في حديث الباب (مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ) .

سادساً : يقال للمرآني يوم القيامة : اذهبوا اطلبوا الثواب ممن كنتم تراءون لهم .

عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) رواه الترمذي .

سابعاً : خافه النبي ﷺ علينا .

عن أبي سعيد مرفوعاً (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد .

ثامناً : لا يدخل الجنة .

عن أبي هريرة ؓ قال : قال النبي ﷺ : (من تعلم علماً مما يتتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) رواه أبو داود .

تاسعاً : ليس له في الآخرة نصيب .

عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : (بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب) رواه احمد .
٣- من أقوال السلف :

عن شداد بن أوس قال عند موته : إن أخوف ما أخاف عليكم : الرياء ، الشهوة الخفية .
قال سهل : لا يعرف الرياء إلا مخلص .

وقال ابن القيم : وكل ما لم يكن لله فبركته منزوعة .

وكان الثوري يقول : كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئاً .

وعن عبدة قال : إن أقرب الناس من الرياء آمنهم منه .

وقال الربيع بن خثيم : كل ما لا يراد به وجه يضمحل .

قال ابن رجب : ما ينظر المرئي إلى الخلق في عمله إلا لجهله بعظمة الخالق .. المرئي يزور التواضع على اسم الملك ليأخذ البراطيل لنفسه ويوهم أنه من خاصة الملك وهو ما يعرفه بالكليه ... نقش المرئي على الدرهم الزائد اسم الملك ليروج والبهرج ما يجوز إلا على غير الناقد .

قال ابن القيم : أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص .

وقال رحمه الله : كل نفس يخرج في غير ما يقرب إلى الله ، فهو حسرة على العبد في معاده ، ووقفه له في طريق سيره ، أو نكسة إن استمر ، أو حجاب إن انقطع به

من أقوال ابن قدامة في الرياء :

قال رحمه الله : اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة ، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول :

أولاً : حب لذة الحمد .

ثانياً : الفرار من ألم الذم .

ثالثاً : الطمع فيما في أيدي الناس

وقال : واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات .

وقال : ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي ، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليحازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم .

وقال : ومن الدواء النافع (في علاج الرياء) أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال . (مختصر منهاج القاصدين) .

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر : ثم تأملت العلماء والمتعلمين، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمانة النجابة؛ لأن أمانة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ قضاء مكان، أو ليصير قاضي بلد، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي .

وقال ابن رجب : ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع.

فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته بحيث أنه يخشى أن يكون مكرماً

واستدرجاً كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهاه اسمه وبعد صيته .

وقال الذهبي : ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد ، فإن أعجبه كلامه فليصمت ، وإن أعجبه الصمت فلينطق ، ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء .

وقال أبو قلابة لأبيوب السخيتاني: يا أيوب إذا أحدث الله لك علماً فأحدث لله عبادة، ولا يكون همك أن تحدث به الناس .

وفي ترجمة ابن جريج: قال الوليد بن مسلم سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟! كلهم يقول: لنفسي . غير أن ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس .

قال الذهبي - رحمه الله - تعليقاً على هذا الخبر : " قلت : ما أحسن الصدق ، واليوم تسأل الفقيه الغي لمن طلبت العلم ؟ فيبادر ويقول : طلبته لله ، ويكذب إنما طلبه للدنيا ، ويا قلة ما عرف منه .

وقال عبد الله بن المعتز : علم المنافق في قوله ، وعلم المؤمن في عمله .

قال عمر بن الخطاب: من خلصت نيته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله.

وكان من دعاء عمر : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال ابن القيم : العمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم البتة، بل جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله.

وقال : إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحدته ، وقع في باطل مُقابل لما أعرض عنه من الحق وجحدته ، حتى في الأعمال ، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك .

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم .

وقال : الوقوف عند مدح الناس وذمهم : علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه .

علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته .

٣٧- باب مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ

٦٥٠٠- عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ (بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ يَا مُعَاذُ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ بَنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ بَنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ) .

[م : ٣٠] .

(رَدِيفُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم) أي : على حمار ، كما في الرواية الأخرى ، والرديف هو الراكب أي راكب خلفه .

(ليس بيني وبينه) أراد به المبالغة في شدة قربه ، ليكون أوقع في نفس سامعه أنه ضابط لما رواه .

(إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ) وهو العود الذي يكون خلف الراكب ، والرحل للبعير كالسرج للفرس .

(لبيك) أي : إجابة لك بعد إجابة .

(وسعديك) قال النووي : أي ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة .

(هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ) أي : ما أوجبه عليهم بحكمه ، وألزمهم إياه بخطابه .

(وحق العباد على الله) هذا حق تفضل الله به على عباده ، ولم يوجبه عليه أحد . قال ابن أبي العز : فهذا حق وجب بكلماته

التامة ، ووعد الصادق ، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فإن الله هو المنعم على

العباد بكل خير ، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم ، ولقد أحسن القائل :

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ كلاً ولا سعيٌّ لديه ضائعٌ .

إنَّ عُدُّوا فبعُدْله أو نُعموا فبِقَضْلِهِ وهو الكريمُ السامعُ .

(قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ) جاء في رواية (قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ « لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا)

وفي رواية (فَأُخْبِرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا) .

١- الحديث دليل على فضل التوحيد وأنه من أسباب النجاة . وللتوحيد فضائل :

أولاً : أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة .

لأن المُوَحِّد يعمل لله سبحانه وتعالى ، وعليه فهو يعمل سراً وعلانية ، أما غير الموحّد كالمراشي مثلاً ، فإنه يتصدق ويصلي ويذكر

الله إذا كان عنده من يراه فقط ، ولهذا قال بعض السلف : (إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو) .

ثانياً : أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) .

قوله تعالى : (لم يلبسوا) أي لم يخلطوا ، (بظلم) الظلم هنا مقابل الإيمان وهو الشرك .

ثالثاً : أن التوحيد يكفر الذنوب .

عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا

تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) . رواه الترمذي

لأن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً .

رابعاً : أن من فضل التوحيد أنه سبب لدخول الجنة بغير حساب .

لحديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ... فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقبل لي هذه

أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... ثم قال : هم الذين لا يسترقون ولا يكتنون ولا يتطيرون

وعلى ربهم يتوكلون) . متفق عليه .

خامساً : أن التوحيد سبب للنجاة من عذاب الله .

لحديث الباب (أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً) .

سادساً : أن الله أثنى على الأنبياء بتوحيدهم وسلامتهم من الشرك .

قال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾

٢- أن أعظم الحقوق هو عبادة الله وعدم الإشراك به .

ولذلك أول وأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وأعظم ما نهى عنه الشرك .

٣- أهمية التوحيد وأنه يجب العناية به .

- ٤ - أن التوحيد نفي وإثبات .
- ٥ - تواضع النبي ﷺ لقوله (على حمار) ، وأيضاً كان يردف أصحابه .
- ٦ - جواز الإرداف على الدابة بشرط ألا يؤذيها ذلك .
- ٧ - يستحب للعالم أن يطرح بعض المعلومات على وجه الاستفسار ليكون أوقع في النفس ، وأبلغ في فهم المتعلم .
والأمثلة على ذلك كثيرة :
- قال ﷺ لمعاذ ! ألا أدلك على باب من أبواب الجنة ؟ قلت : بلى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .
- قول النبي ﷺ أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ؟
- قول النبي ﷺ لأبي الدرداء : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟
- قول النبي ﷺ لمعاذ : ألا أدلك على أبواب الخير ؟
- قول النبي ﷺ للصحابة : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المؤمن فحدثوني ما هي ؟
- قوله ﷺ أتدرون من المفلس ؟
- ٨ - فضل معاذ بن جبل ومنزلته بالعلم ، لكونه خص بما ذكر . ومن فضائله :
- أنه ﷺ قال له (والله إني لأحبك في الله ، فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك ...) .
- ومنها : أن الرسول ﷺ أرسله معلماً وقاضياً لليمن .
- ومنها : قوله ﷺ (أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ) رواه أحمد .
- ومنها : ما جاء في هذا الحديث ، حيث خصه بهذه المسألة دون غيره .
- ٩ - استحباب تكرار الكلام لتأكيد تفهيمه .
- ١٠ - ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم .
- وقد سئل ﷺ عن أحب البقاع إلى الله ؟ فقال : لا أدري . وقد قالت الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) .
- وقال ﷺ كما في حديث جريريل : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .
- وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم . وسئل الشعبي عن شيء فقال : لا أدري ، فقل له : ألا تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراقيين ؟
- فقال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .
- وقال البراء : لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحب أن يكفّيه صاحبه الفتوى .
- وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم عن المسألة فيردها إلى هذا ، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول .
- وقال ابن وهب : وكنت أسمع - أي مالكا - كثيراً ما يقول : لا أدري ، ولو كتبنا عن مالك لا أدري لمألنا الألواح .
- وقال ابن عباس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله .
- وقال الشعبي : لا أدري نصف العلم .
- وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري ، ثم يلتفت فيقول : أتدري ما يريدون هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم .
- قال ابن عيينة : أحسر الناس على الفتيا أقلهم علماً .

وقال مالك : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون من أهل المدينة .

قال ابن القيم : وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا قال الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

وقيل : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها .

قال ابن جماعة : واعلم أن قول (لا أدري) لا يضع من قدر العالم كما يظنه بعض الجهلة ، بل هي رفعة له ، لأنه دليل على عظم محله وعلى ورعه وعلى تقواه وعلى طهارة قلبه ، إنما يأنف من قول (لا أدري) من ضعفت ديانتته وقلت معرفته .

وقد أدب الله العلماء بقصة موسى مع الخضر حيث لم يرد موسى العلم إلى الله تعالى لما سئل : هل أحد في الأرض أعلم منك ؟ ١١ - جواز كتمان العلم للمصلحة ، أما كتمه مطلقاً فلا يجوز لقوله ﷺ (من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من النار) . رواه أبو داود وأما كتمه أحياناً أو عن بعض الأشخاص فجائز إذا ترتب على إظهاره مفسدة متحققة ، ولذلك قال ﷺ لمعاذ: لا تبشروهم فيتكلموا.

١٢ - الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله ، لأن الاتكال على سعة رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة وهي : الأمن من مكر الله .
١٣ - جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض ، وذلك أن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون غيره ، حيث أن بعض الناس إذا أخبرته ببعض العلم افتتن .

كما قال ابن مسعود (إنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) رواه مسلم في مقدمة صحيحه .

وقال علي (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله) رواه البخاري .

١٤ - استئذان المتعلم في إشاعة ما خص به من العلم ، لقوله (أفلا أبشروا الناس) .

١٥ - أن هذه المسألة لا يعرفها كثير من الصحابة ، وذلك أن معاذاً أخبر بها عند موته خروجاً من إثم الكتمان بعد أن مات كثير من الصحابة .

١٦ - سعة رحمة الله وفضله .

١٧ - مشروعية إجابة الداعي بـ [لبيك ، وسعديك] .

١٨ - بشارة عظيمة للموحدين الذين لا يشركون بالله تعالى شيئاً ، حيث وعدهم الله تعالى الذي لا يخلف وعده أن لا يعذبهم .

١٩ - مشروعية تبشير المسلم .

قال تعالى (وَبَشِّرْهُ بِبُحَيْرٍ عَالِمٍ) .

وقال تعالى (وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (فَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنَ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) .

وقال تعالى (فَبَشِّرْنَا بِبُحَيْرٍ عَالِمٍ) .

وقال تعالى (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) .

ولأن البشارة تسر العبد وتفرحه ، فاستحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه .

ولما ولد النبي ﷺ بشرت به ثويبة عمه أبا لهب - وكان مولاه - فأعتقها أبو لهب سروراً به .

ولما نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه ، ذهب إليه البشير فبشره ، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنؤوه .

٢٠ - حب المسلم لإخوانه المسلمين الخير لقول معاذ [أفلا أبشروا الناس] .

٢١- جواز تسمية الحيوانات .

٢٢- حكمة النبي ﷺ في العلم والدعوة .

• تنبيه :

قوله (فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً) .

قال الحافظ (تأثماً) أي : خشية الوقوع في الإثم وقد تقدم توجيهه في حديث بدء الوحي في قوله يتحنث والمراد بالإثم الحاصل من كتمان العلم .

ودل صنيع معاذ على أنه عرف أن النهي عن التبشير كان على التنزيه لا على التحريم وإلا لما كان يخبر به أصلاً ، أو عرف أن النهي مقيد بالاتكال ، فأخبر به من لا يخشى عليه ذلك ، وإذا زال القيد زال المقيد .

والأول أوجه لكونه أحر ذلك إلى وقت موته . (الفتح) .

وقال النووي : قوله (فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذَ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْثَمًا)

هُوَ يَفْتَحُ الْهُمَزَةَ وَضَمَّ الْمُثَلَّثَةَ الْمُشَدَّدَةَ . قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : تَأْتَمُّ الرَّجُلُ إِذَا فَعَلَ فِعْلًا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الْإِثْمِ . وَتَخْرُجُ أَرْزَالَ عَنْهُ الْحَرْجُ . وَتَحْنَثُ أَرْزَالَ عَنْهُ الْحِنْتُ .

وَمَعْنَى تَأْتَمُّ مُعَاذٌ أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ عِلْمًا يَخَافُ فَوَاتَهُ وَذَهَابَهُ بِمَوْتِهِ فَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ كَتَمَ عِلْمًا وَمِمَّنْ لَمْ يَمْتَثِلْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَبْلِيغِ سُنَّتِهِ فَيَكُونَ آثِمًا فَاحْتَاطَ وَأَخْبَرَ بِهَذِهِ السُّنَّةِ مَخَافَةً مِنَ الْإِثْمِ وَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْهَهُ عَنِ الْإِخْبَارِ بِهَا نَهْيَ تَحْرِيمٍ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَعَلَّ مُعَاذًا لَمْ يَفْهَمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ النَّهْيَ لَكِنْ كَسَرَ عَزْمَهُ عَمَّا عَرَضَ لَهُ مِنْ بُشْرَاهُمْ بِدَلِيلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ (مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا قَلْبَهُ فَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ) قَالَ : أَوْ يَكُونُ مَعْنَاهُ بَلَّغَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَخَافَ أَنْ يَكْتُمَ عِلْمًا عَلِمَهُ فَيَأْتَمُّ أَوْ يَكُونَ حَمَلُ النَّهْيِ عَلَى إِدَاعَتِهِ . وَهَذَا الْوَجْهَ ظَاهِرٌ . وَقَدْ اخْتَارَهُ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الصَّلَاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ : مَنَعَهُ مِنَ التَّبَشِيرِ الْعَامِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ مِنْ لَا خَيْرَةَ لَهُ وَلَا عِلْمَ فَيَعْتَرَّ وَيَتَّكِلُ . وَأَخْبَرَ بِهِ ﷺ عَلَى الْخُصُوصِ مَنْ أَمِنَ عَلَيْهِ الْإِعْتِرَازُ وَالْإِتِّكَالُ مِنَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ . فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ مُعَاذًا فَسَلَّكَ مُعَاذٌ هَذَا الْمَسْلَكَ فَأَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْخَاصَّةِ مَنْ رَأَاهُ أَهْلًا لِذَلِكَ . (نووي) .

٣٨- باب التواضع

٦٥٠١- عَنْ أَنَسٍ قَالَ (كَانَتْ نَاقَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُسَمَّى الْعُضْبَاءَ وَكَانَتْ لَا تُسَبِّقُ فِجَاءَ أَعْرَابِيٍّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَبَقَهَا فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَالُوا سَبَقَتِ الْعُضْبَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ) .

(قوله : باب التواضع) ؟؟؟

(تَسَمَّى الْعُضْبَاءَ) الْعُضْبَاءُ : اسْمُ نَاقَةِ الرَّسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهِيَ غَيْرُ الْقِصْوَاءِ الَّتِي حَجَّ عَلَيْهَا ﷺ .

(فِجَاءَ أَعْرَابِيٍّ) الْأَعْرَابِيُّ سَاكِنُ الْبَادِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ .

(قَعُودٍ لَهُ) هُوَ الْفَتَى مِنَ الْإِبِلِ الَّتِي اسْتَحَقَّ أَنْ يَرْكَبَ .

١- الحديث دليل على فضل التواضع .

ووجه الشاهد من الحديث :

قال ابن حجر : وزعم بعضهم أنه لا مدخل له في هذه الترجمة وغفل عما وقع في بعض طرقه عند النسائي بلفظ (حق على الله

أن لا يرفع شيء نفسه في الدنيا إلا وضعه (فإن فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع والحث على التواضع ، والاعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة .

٢- فضائل التواضع :

أولاً : من صفات عباد الرحمن .

قال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون ...) .

قال السعدي : ... ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً) أي: ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده.

أولاً : سبب للرفعة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَا تَقَصَّتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ) رواه مسلم .

ثالثاً : من صفات من يحبهم الله .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ) .

قال ابن كثير : هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزراً على خصمه وعدوه .

رابعاً : أن الله أمر نبيه بذلك .

عَنْ عِيَّاضِ بْنِ جِمَارٍ . قَالَ (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ حَظِيْبًا فَقَالَ (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) رواه مسلم .

يعني: أن يتواضع كل واحد للآخر ، ولا يترفع عليه ، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر .

٣- من أقوال السلف :

قال ابن السماك للرشيد: تواضعك في شرفك؛ أشرف من شرفك.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: إنكم لتغفلون أفضل العبادة: التَّوَّاضُعُ .

وقال معاذ بن جبل ﷺ : لا يبلغ عبدٌ ذُرَى الإيمان حتى يكون التَّوَّاضُعُ أحبَّ إليه من الشَّرَفِ .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشَّرَفُ فِي التَّوَّاضُعِ ، وَالْعِزُّ فِي التَّقْوَى ، وَالْحَرِيَّةُ فِي الْقِنَاعَةِ .

وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها إلا التواضع.

قال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمير . وكان يقول : إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء.

وقال أبو حاتم : التواضع يرفع المرء قدراً ، ويعظم له أجراً ، ويزيده نُبْلًا .

قال الشافعي رحمه الله : أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكبر الناس فضلاً من لا يرى فضله .

وقال أيضاً : شربنا ماء زمزم للعلم ، فتعلمناه ولو كنا شربناه للتقوى لكان خيراً لنا .

كان يقال : ثمرة القناعة الرّاحة ، وثمره التواضع المحبة .

قال بعض الحكماء : إذا نسك الشريف تواضع ، وإذا نسك الوضيع تكبر .

وقال عامر بن عبد الله : من تواضع تخشعاً رفعه الله ومن تكبر تعظماً وضعه الله .

قال بعض الحكماء : البلية التي لا يؤجر عليها المبتلى بها : العجب ، والنعمة التي لا يحسد عليها : التواضع .

وقال الذهبي في السير وإيثار الخمول والتواضع ، وكثرة الوجع من علامات التقوى والفلاح .

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ---- فإن رفيع القوم من يتواضع .

٤- هوان الدنيا على الله تعالى .

٥- ترك المباهاة والمفاخرة .

٦- أن أمور الدنيا ناقصة .

٧- قوله (من الدنيا) دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله . كما قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

٨- فيه وصف الدنيا كما قال تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام) .

٩- حقارة الدنيا وعلى المسلم أن يعرف ذلك فيجتهد في أمور الآخرة .

١٠- تسلية لطلاب الآخرة .

١١- تحذير لطلاب الدنيا .

١٢- حسن خلق النبي ﷺ من التواضع وتطبيب نفوس أصحابه .

١٣- أنه لا يرتفع شيء من الدنيا لا انخفض ، فإذا صاحب ذلك كبرياء وتعال فإنه يكون انخفاض مع عقوبة .

١٤- أن النبي ﷺ بشر لا يعلم الغيب .

٦٥٠٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ فَإِذَا أَحَبَّهُتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَبَدَهُ الَّذِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّذِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَكِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) .

(عادى) أي آذى .

(ولياً) الولي : هو المؤمن النقي كما بينه الله بقوله (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

(آذنته) أعلمته .

١- قوله (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ) فيه فضيلة أن يكون الإنسان ولياً من أولياء الله .

وولاية الله ليست بالدعاوى والكلمات وإنما بالعمل وبشروطها :

أولاً : الإيمان بالله .

ثانياً : تقوى الله .

قال تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

٢- قوله (فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ) فيه تحريم معاداة أولياء الله ، والمعنى : فقد أعلمته أي محارب له .

فأولياء الله تحب موالاتهم وتحرم معاداتهم ، كما أن أعداءه تحب معاداتهم وتحرم موالاتهم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) .

ومن صفات أولياء الله كما قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) .

٣- قوله (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ) فيه أن أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه الفرائض .

فالصلاة الفرض أفضل من الصلاة النفل ، والصوم الفرض أفضل من الصوم النفل وهكذا .

٤- قوله (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ) فيه أن من أسباب محبة الله كثرة النوافل والتقرب إلى الله بها بعد الفرائض .

قال ابن رجب : فقسم أولياءه المقربين إلى قسمين :

أحدهما : من تقرب إليه بأداء الفرائض ، ويشمل ذلك فعل الواجبات ، وترك المحرمات .

والثاني : من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل .

٥- أن من أسباب محبة الله كثرة النوافل، وهناك أسباب كثيرة تنال بها محبة الله ذكرها ابن القيم في كتابه: مدارج السالكين وهي:

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والفهم لمعانيه .

الثاني : التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث : دوام ذكره على كل حال .

الرابع : إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها .

السادس : مشاهدة بَرِّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة .

السابع : - وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى .

الثامن : الخلوة به وقت النزول الإلهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطياب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطياب الثمر .

العاشر : مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله .

فمن هذه الأسباب العشرة : وصل المحبوب إلى منزلة المحبة

٦- الحديث دليل على أنه لا طريق يوصل إلى الله إلا بمحبته وطاعته التي شرعها على لسان رسوله .

فمن ادعى ولاية الله والتقرب إليه ومحبته بغير هذه الطريق ، تبين أنه كذاب في دعواه .

٧- قوله (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ...) فيه فضل المداومة على العمل الصالح ، فلا يعتبر الإنسان متقرباً إلى الله

بالنوافل محافظاً عليها إلا باستمراره على هذه الطاعة ، وإلا فلا يعتبر متقرباً إلى الله بالنوافل ، وقد تقدمت فضائل المداومة على

العمل الصالح .

٨- قوله (فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا) فيه أن من اجتهد بالتقرب إلى

الله بالفرائض ، ثم بالنوافل قربه إليه ، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان .

قال ابن كثير : فمعنى الحديث، أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا

الله، أي : ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية

الحديث في غير الصحيح ، بعد قوله (ورجله التي يمشي بها) (فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي) .

وقال ابن رجب : ... فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ، ولا يتحرك إلا بأمره ، فإن نطق ، نطق بالله ، وإن سمع ، سمع به ، وإن

نظر ، نظر به ، وإن بطش ، بطش به ، فهذا هو المراد بقوله (كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها) .

٩- الحديث دليل على الأعمال الصالحة تتفاضل من حيث الجنس ومن حيث النوع .

فمن حيث الجنس : الفرائض أحب إلى الله من النوافل .

ومن حيث النوع : الصلاة أحب إلى الله مما دونها من الفرائض .

١٠- في الحديث فائدة من فوائد النوافل وهي محبة الله ، وهناك فوائد كثيرة وحكم عظيمة من شرعية النوافل والتطوعات :
منها : محبة الله .

كما في حديث الباب .

ومنها : جبر ما يكون فيها من التقصير والخلل .

كما قال ﷺ (إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، يقول ربنا تعالی ملائكتك - وهو أعلم بهم - انظروا في صلاة عبدي ، أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً ، قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فإن كان له تطوع قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه) رواه أبو داود .

ومنها : تحصيل الثواب والأجر على ذلك .

ومنها : توطین النفس وتمرينها على العبادة لتعتاد على ذلك .

ومنها : صلاح القلب وطهارته .

ومنها : شغل الوقت بأفضل الطاعات .

ومنها : الاقتداء بالنبي ﷺ .

١١- : إثبات المحبة لله ، محبة تليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل .

قال تعالی (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

وقال تعالی (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

وقال ﷺ (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) .

٣٩- باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ

{ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

٦٥٠٣- عَنْ سَهْلِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذَا وَبُشِيرٌ بِأَصْبَعِيهِ فِيمَا بَيْنَهُمَا) .
[م : ٢٩٥٠] .

٦٥٠٤- عَنْ أَنَسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ) .
[م : ٢٩٥١] .

٦٥٠٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ يَعْنِي إِصْبَعَيْنِ) .

(بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ) المراد بالساعة هنا يوم القيامة .

(وَبُشِيرٌ بِأَصْبَعِيهِ فِيمَا بَيْنَهُمَا) وفي الرواية الأخرى (وقرن بين أصبعية السبابة والوسطى) .

١- هذه الأحاديث تدل على قرب الساعة ، وأن النبي ﷺ بعث في نسمة الساعة .

وقد جاءت الأدلة التي تدل على قرب الساعة .

قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ) .

قال ابن كثير : هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها وأن الناس في غفلة عنها أي : لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها .

وقال تعالى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال (كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمّرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ ، ويقول (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ) ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى) .

وخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث بريدة (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ جَمِيعاً إِنَّ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي) .

ولحديث الباب (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ) .

وعن المستورد . قال : قال ﷺ (بعثت في نسمة الساعة) رواه الترمذي .

(نفس الساعة) بفتح الفاء وهو كناية عن القرب ، أي : بعثت عند تنفسها .

٢- وقد اختلف في معنى قوله (كهاتين) ؟

ف قيل : كما بين السبابة والوسطى في الطول .

وقيل : ليس بينه وبينها ني .

وقيل : ليس بينهما واسطة .

قال المناوي : هو تمثيل لاتصال زمنه بزمنها ، وأنه ليس بينهما شيء ، كما أنه ليس بينهما إصبع أخرى ، ويحتمل أنه تمثيل لقرب ما بينهما من المدة كقرب السبابة والوسطى ، والأرجح الأول .

٣- المراد بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة .

♦ والساعة تطلق على ثلاثة معان :

الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة .

والساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد .

ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال : إن يعيش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم . أي : موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين .

والساعة الكبرى : وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء .

وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

٤- فإن قيل : لماذا لم يخبرنا الله تعالى بوقت قيام الساعة ؟

فالجواب : أن الحكمة تقتضي إخفاء وقتها عن الخلق .

وبيان ذلك : أن النبي ﷺ بعث مبشراً لمن أطاعة بالجنة ، ومنذراً لمن عصاه بالنار . والإنذار بالساعة والنار وأهوالها ، لا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها ؛ ليخشى أهل كل زمان إتيانها فيه ، فالإعلام بوقت إتيانها ، وتحديد تاريخها ، ينافي هذه الفائدة ، بل فيه مفسد أخرى ؛ فلو قال الرسول ﷺ للناس : إن الساعة تأتي بعد ألف سنة من يومنا هذا مثلاً ، لرأيت المكذبين يستهزئون بهذا الخبر ، ويلحون في تكذيبه ، والمرتابين يزدادون ارتياباً .

فالحكمة البالغة إذن في إبهام أمر الساعة للعالم ، كما أخفى الله تعالى وقت الساعة الخاصة بكل إنسان وهي الموت .

قال الألوسي رحمه الله : وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك ؛ فإنه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك . . . وتدل الآيات على أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها ، نعم علم صلى الله عليه وسلم قربها على الإجمال ، وأخبر ﷺ به " اهـ .

" فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم ؛ فيلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصي ، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال ، والقييل والقال " اهـ من تفسير المنار .
ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه جعل لهم علامات دالة على قرب قيام الساعة ، حتى يكون ذلك باعثاً لهم على العمل الصالح ، وتقوى الله ، واجتناب محارمه ، فكلما رأوا علامة من علاماتها قد تحققت ازداد خوفهم من الساعة وأهوالها ، وازداد يقينهم بقربها ، فيزداد استعدادهم لذلك بالعمل الصالح .

قال الله تعالى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا) محمد / ١٨ . أي علاماتها .

ويدل على ذلك ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، أَوْ الدُّخَانَ ، أَوْ الدَّجَالَ ، أَوْ الدَّابَّةَ ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ) .

أي : سابقوا ست آيات دالة على وجود القيامة ، وسارعوا بالأعمال الصالحة قبل وقوعها وحلولها ؛ فإن العمل بعد وقوعها وحلولها لا يقبل ، ولا يعتبر .

وقوله ﷺ : (أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ) وفي رواية بالتصغير (خَوْصَةَ أَحَدِكُمْ) .

وهو ما يخص الإنسان دون غيره ، وأراد به الموت ، الذي يخصه ، ويمنعه من العمل ، إن لم يبادر به قبله . و "أَمْرَ الْعَامَّةِ" المراد به القيامة .

قال القاضي : أمرهم أن يبادروا بالأعمال قبل نزول هذه الآيات ؛ فإنها إذا نزلت أدهشت ، وأشغلت عن الأعمال ، أو سد عليهم باب التوبة ، وقبول العمل . "

قال العلائي : مقصود هذه الأخبار الحث على البداءة بالأعمال قبل حلول الآجال واغتنام الأوقات قبل هجوم الآفات .
نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاغتنام الأوقات في طاعته .

٥- الحديث دليل على أن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة .

وقد تقدم :

حديث سهل (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذَا وَيُشِيرُ بِإِصْبَعِيهِ فِيمُدُّ بِهَيْمًا) .

وحديث أنس (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ) .

وحديث أبي هريرة (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ يَغْنِي إِصْبَعَيْنِ) .

وحديث أبي جيرة . قال : قال ﷺ (بعثت في نسمة الساعة) .

وحديث ابن عمر . قال : قال ﷺ (بعثت بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي) .

٤٠- باب طلوع الشمس من مغربها

٦٥٠٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ ، وَلَا يَطُوبِيَانِهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لَفْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا) . [م : ١٥٧] .

١- الحديث دليل على أن طلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة .

وقد جاءت الأدلة التي تدل على ذلك :

قال تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ...) .

فقوله (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ...) فسرها النبي ﷺ بطلوع الشمس من مغربها .

قال الخازن : قال جمهور المفسرين : هو طلوع الشمس من مغربها .

وقال القاسمي : ذهب الجمهور إلى أن المراد ب (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها .

وحديث الباب .

وعن أبي ذر . قال : قال رسول الله ﷺ (أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدري ، قال : إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، يوشك يا أبا ذر ! أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ..) متفق عليه .

وعن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم .

وعن أبي موسى . قال : قال ﷺ (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه مسلم .

٢- الحديث دليل على أن التوبة لا تقبل بعد طلوع الشمس من مغربها .

أ- لقوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) .

قوله (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه كما جاء بذلك الأحاديث .

قال الخازن : يعني لا ينفع من كان مشركاً إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

(أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أي : ولا ينفع المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك .

قال الطبري : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع ، إيماناً بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل

الطلوع ، عملٌ صالح بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ ، حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) وكما ثبت في الحديث الصحيح (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يعرغر) .

ب- ولحديث الباب .

٣- الحكمة في عدم قبول التوبة بعد طلوع الشمس :

قال ابن الجوزي : وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان .

وقال القرطبي : قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخمدُ معه كلَّ شهوة من شهوات النفس ، وتُفتر كلَّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقاظهم بدئو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

وقال السعدي : والحكمة في هذا ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروري ، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أفلح عما هو فيه كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) .

٤- هناك موضع آخر لا تقبل عنده التوبة ، وهو عند الغرغرة .

أ- لقله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) .

فقله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي : حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم، (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) أي : قال في هذه الحال حضور الموت ، واليأس من الحياة ، إني تبت الآن ، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال ، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

ب- وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرَغِر) رواه الترمذي .

(... ما لم يعرغر) أي تبلغ روحه رأس حلقه ، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار ؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله .

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش ؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة .

٤١- باب مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ

٦٥٠٧- عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ ، أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بِشَرِّ بَعْدَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) .
اِخْتَصَرَهُ أَبُو دَاوُدَ وَعَمْرُو ، عَنْ شُعْبَةَ .

وَقَالَ سَعِيدٌ ، عَنْ قَتَادَةَ عَنْ زُرَّارَةَ عَنْ سَعْدٍ ، عَنْ عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

٦٥٠٨- عَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) .
[م : ٢٦٨٣] .

(مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ) أي : المصير إلى الدار الآخرة ، وطلب ما عند الله .

(أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ) فيه إثبات صفة المحبة لله .

(وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ) أي : حين يرى ماله من العذاب عند الغرغرة .

(كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)

(قَالَتْ عَائِشَةُ ، أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ) أي : طبيعة .

(وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ) هذا تفسير للإشكال وتوضيح ، وأن المراد عند الاحتضار يبشر العبد بخير فيفرح بلقاء ، وإما أن يبشر بعذاب فيكره لقاء الله .

١- معنى الحديث : هَذَا الْحَدِيثُ يُفَسِّرُ آخِرَهُ أَوَّلُهُ ، وَيُبَيِّنُ الْمُرَادَ بِبَاقِي الْأَحَادِيثِ الْمُطْلَقَةِ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ . وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : أَنَّ الْكَرَاهَةَ الْمُعْتَبَرَةَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ النَّزْعِ فِي حَالَةٍ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ وَلَا غَيْرَهَا ، فَحِينَئِذٍ يُبَشِّرُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ ، وَمَا أُعِدَّ لَهُ ، وَيُكْشَفُ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَهْلُ السَّعَادَةِ يُجْبُونَ الْمَوْتَ وَلِقَاءَ اللَّهِ ، لِيَنْتَقِلُوا إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُمْ ، وَيُحِبُّ اللَّهُ لِقَاءَهُمْ ، أَيُّ : فَيُحْزَلُ لَهُمُ الْعَطَاءُ وَالْكَرَامَةُ ، وَأَهْلُ الشَّقَاوَةِ يَكْرَهُونَ لِقَاءَهُ لِمَا عَلِمُوا مِنْ سُوءِ مَا يَنْتَقِلُونَ إِلَيْهِ ، وَيَكْرَهُ اللَّهُ لِقَاءَهُمْ ، أَيُّ يُبْعِدُهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَلَا يُرِيدُ ذَلِكَ بِهِمْ ، وَهَذَا مَعْنَى كِرَاهَتِهِ سُبْحَانَهُ لِقَاءَهُمْ . وَلَيْسَ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ سَبَبَ كِرَاهَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَاءَهُمْ كِرَاهَتُهُمْ ذَلِكَ ، وَلَا أَنَّ حُبَّهُ لِقَاءَ الْأَخْرَيْنَ حُبَّهُمْ ذَلِكَ ، بَلْ هُوَ صِفَةٌ لَهُمْ . (نووي) .

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة : عن أبي عطية الوادعي قال (دخلت أنا ومسروق على عائشة فقلنا: إن ابن مسعود قال: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، والموت قبل لقاء الله ، فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن، حدثكم بحديث لم تسألوه عن آخره، وسأحدثكم عن ذلك: إن الله إذا أراد بعبد خيرا قبض له ملكا قبل موته بعام فسدده ويسره حتى يموت وهو خير ما كان، فإذا حضر فرأى ثوابه من الجنة فجعل يتهوع نفسه ودّ أنها خرجت، فعند ذلك أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإذا أراد بعبد سوءا قبض له شيطانا قبل موته بعام فصدده وأضله وفتنه حتى يموت شر ما كان، ويقول الناس: مات فلان وهو شر ما كان، فإذا حضر فرأى ثوابه من النار جعل يتبلع نفسه ودّ أنه لا يخرج فعند ذلك كره لقاء الله وكره الله لقاءه.

٢- قسم أهل العلم كراهية الموت إلى نوعين:

الأول : الكراهية الجبلية التي أودعها الله بين جنبي كل امرئ من خلقه، وهذه ليست مذمومة، لأنها لا تدخل في باب التكليف، وهي التي وردت في قول عائشة . رضي الله عنها: فكلنا نكره الموت... .

وأما النوع المذموم من كراهية الموت وهو الذي يدل على ضعف الإيمان .
 فهو الذي سماه رسول الله ﷺ بالوهن في الحديث الذي أخرجه أبو داود وأحمد عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال (وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت) .
 وكراهية الموت من هذه الناحية تعني أن الإنسان يسرف في الملذات ويسعى لإشباع الشهوات، وكل ذلك بجهله لحقيقة الدنيا واغتراره بمظاهرها، فينفر من الموت نفوراً زائداً، لأنه لا يرى بعده إلا الشقاء والبؤس.
 ٢- أن الجزء من جنس العمل ، فإنه قابل المحبة بالمحبة ، والكراهة بالكراهة .
 ٣- في الحديث بيان معنى (كراهة لقاء الله) بأنه ليس المراد كراهية الموت ، بل ما يكون وقت الاحتضار .
 ٤- البداءة بأهل الخير في الذكر لشرفهم .

٥- أن المحتضر إذا ظهرت عليه علامات السرور كان ذلك دليلاً على أنه بشّر بالخير ، وكذا بالعكس .
 ٦- قال القرطبي : وفي هذا الحديث ما يدل على أنه لا يخرج أحدٌ من هذه الدار حتى يعلم ما له عند الله تعالى من خير أو شر ، وقد قيل ذلك في قوله تعالى : { لهم البشرى في الحياة الدنيا } .
 ٦٥٠٩- عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَاحِحٌ إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخْذِي غَشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى قُلْتُ إِذَا لَا يَخْتَارُنَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا بِهِ- قَالَتْ - فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ قَوْلُهُ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى) .
 [م : ٢٤٤٤] .

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَاحِحٌ) أي : قبل مرضه .
 (إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ) أي : منزله في الجنة .
 (ثُمَّ يُخَيَّرُ) أي : بين الدنيا والآخرة .
 (فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ) أي : نزل به المرض .
 (فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ ثُمَّ قَالَ) أي : حدّد نظره إلى سقف البيت كما تفعل الموتى .
 (اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى) اختلف في معنى الرفيق الأعلى ، والأولى فيه : أنه الذي دلّ عليه قوله تعالى (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) ، وتخيير الله للأنبياء عند الموت مبالغة في إكرامهم ، وفي ترفيع مكانتهم عند الله تعالى ، وليستخرج منهم شدة شوقهم ، ومحبتهم له تعالى ، ولما عنده .
 وقال النووي : قوله (الرفيق الأعلى) الصّحيح الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى الْأَنْبِيَاءَ السَّاكِنُونَ أَعْلَى عَلَيَيْنِ .
 ١- الحديث دليل على أن من خصائص الأنبياء أنهم يخبرون عند موتهم ، ومن خصائصهم :

أولاً : تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

ثانياً : يدفنون حيث يموتون .

قال ﷺ (لم يدفن نبي إلا حيث قبض) رواه أحمد .

ثالثاً : يخبرون عند موتهم .

قال ﷺ (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة) . متفق عليه

رابعاً : أحياء في قبورهم .

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال (رأيت موسى يصلي في قبره) .
خامساً : لا تأكل الأرض أجسادهم .

قال ﷺ (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أبو داود .

سادساً : الوحي .

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

٢- الحديث دليل لبيان شدة شوق النبي ﷺ إلى لقاء الله زلدار الآخرة ورؤية إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

٣- قوله ﷺ (في الرفيق الأعلى) لا يعارض قوله (لا يتمنين أحدكم الموت) لأن النهي عن تمني الموت محمول على حالة الحياة المستمرة ، أما عند الاحتضار والمعاناة فلا يدخل تحت النهي ، بل يدخل تحت قوله ﷺ (من أحب لقاء الله أحب لقاءه) .

٤- قال الحافظ : وقد ختمت الآية بقوله (وحسن أولئك رفيقاً) ونكتة الإتيان بهذه الكلمة بالإفراد الإشارة إلى أن أهل الجنة يدخلونها على قلب رجل واحد نبه عليه السهيلي .

ثم قال : ... ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورون في آية النساء ومعنى كونهم رفيقاً تعاوهم على طاعة الله وارتفاق بعضهم ببعض وهذا الثالث هو المعتمد وعليه اقتصر أكثر الشراح .

٥- الحديث دليل على أن الإغماء جائز على الأنبياء لأنه شبيه النوم .

قال النووي : جاز عليهم لأنه مرض من الأمراض ، بخلاف الجنون فلم يجز عليهم لأنه نقص .

على عائشة . قالت (ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ « أَصَلَّى النَّاسُ » . قُلْنَا لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ » . فَفَعَلْنَا فَأَغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيُنَوِّءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ « أَصَلَّى النَّاسُ » . قُلْنَا لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ « ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ » . فَفَعَلْنَا فَأَغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيُنَوِّءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ) متفق عليه .

٦- في الحديث بيان كرامة النبي ﷺ على ربه ، وذلك أنه تبارك وتعالى خير به بين الدنيا والآخرة قبل موته فاختار الآخرة .

٧- بيان دقة نظر عائشة وشدة ذكائها ، لأنها علمت من قوله (اللهم في الرفيق الأعلى) أنه ﷺ خير ، وعلمت أيضاً أنه لن يختار البقاء في الدنيا .

قال الحافظ : فهم عائشة من قوله ﷺ في الرفيق الأعلى أنه خير ، نظير فهم أبيها رضي الله عنه من قوله ﷺ أن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده ، أن العبد المراد هو النبي ﷺ حتى بكى .

٨- الحديث دليل على فضل عائشة ، ويذا على ذلك من وجوه :

أولاً : أنه ﷺ كان يقول في مرضه أين أنا غداً ، استبطاء ليوم عائشة .

عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْأَلُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ يَقُولُ أَيْنَ أَنَا غَدًا أَيْنَ أَنَا غَدًا يُرِيدُ يَوْمَ عَائِشَةَ فَأَذِنَ لَهُ أَزْوَاجُهُ يَكُونُ حَيْثُ شَاءَ فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ حَتَّى مَاتَ عِنْدَهَا قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَاتَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ يَدُورُ عَلَيَّ فِيهِ فِي بَيْتِي فَحَبَّضَهُ اللَّهُ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَبَيَّنَ نُحْرِي وَسُحْرِي وَخَالَطَ رِبْقُهُ رِبْقِي) متفق عليه .

وهذا دليل على شدة حبه لعائشة .

ثانياً : أنه ﷺ مات في اليوم الذي كان يدور عليها فيه .

كما في الحديث السابق (فَمَاتَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ يَدُورُ عَلَيَّ فِيهِ فِي بَيْتِي) .

ثالثاً : كانت ﷺ ورأسه بين سحرها ونحرها .

كما في الحديث السابق (وَإِنَّ رَأْسَهُ لَبَيِّنٌ نُحْرِي وَسَحْرِي وَخَالَطَ رِبْقَهُ رِبْقِي) .
قال ابن الأثير : النحر أعلى الصدر ، وقال الحافظ : المواد موضع النحر .
قال ابن الأثير : السحر : الرثة .

٩- الحديث دليل على كذب الروافض الذين زعموا أن النبي ﷺ مات ورأسه في حجر علي ، ورووا في ذلك أحاديث لا تصح .

٤٢- باب سكرات الموت

٦٥١٠- عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ ، أَوْ غَلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ يَشْكُ عُمُرُ - فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ) .

(بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ) قال ابن الأثير : الركوة إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .
إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ (أي : شدائد .

١- الحديث دليل على أن للموت سكرات .

وقد جاء عند الترمذي بسند حسن بلفظ (اللهم أعني على سكرات الموت) .

وقد روي : أن الموت أشد من ضرب بالسيوف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض .

٢- الحديث دليل على أن الله يشدد على الأنبياء عند الموت ، فقد كان نبينا ﷺ يغمى عليه من شدة المرض .

قال ابن رجب عن شدة مرضه ﷺ : وكان عليه قטיפفة ، فكانت حرارة الحمى تصيب من وضع يده عليه من فوقها ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر .

وذكر القرطبي لذلك فائدتين :

الأولى : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت .

الثانية : ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء أحبب الله وأنبيأوه ورسله ، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟

والجواب : أن أشد الناس بلاء في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فأحب الله أن يتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه ، ورفعته لدرجاتهم عنده ، وليس ذلك في حقهم نقصاً ولا عذاباً .

وقال القاضي عياض : فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم ، ورفعته في درجاتهم ، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضى والشكر والتسليم والتوكل والتفويض والدعاء والتضرع منهم ، وتأكيدهم لبصائرهم في رحمة الممتحنين ، والشفقة على المسلمين ، وتذكيرهم لغيرهم ، وموعظة لسواهم ، ليتأسوا في البلاء بهم ، ويتسلوا في المحن بما جرى عليهم ، ويقندوا بهم في الصبر محو لهفات فرطت منهم ، أو غفلات سلفت لهم ، ليلقوا الله طيبين مهذبين ، وليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل .

٦٥١١- عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ (كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأَعْرَابِ جُفَاءً يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ إِنَّ يَعْشَ هَذَا لَا يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ) قَالَ هِشَامٌ يَعْنِي مَوْتَهُمْ .

[م : ٢٩٥٢] .

(جُفَاءً) وإنما وصفهم بذلك إما على رواية الجيم فلائن سكان البوادي يغلب عليهم الشظف وحشونة العيش فتحفوا أخلاقهم غالباً ، وإما على رواية الحاء فلقلة اعتنائهم بالملبس .

(فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ) أي : القيامة ، وفي رواية مسلم من طريق أبي أسامة عن هشام (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة) وكان ذلك لما طرق أسماعهم من تكرار اقتراحها في القرآن فأرادوا أن يعرفوا تعيين وقتها .
(فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ) في رواية مسلم (فنظر إلى أحدث إنسان منهم) .

(إِنَّ يَعْشُرَ هَذَا لَا يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ) قَالَ هِشَامٌ يَعْنِي مَوْتَهُمْ ، وفي حديث أنس (إِنَّ عُمَرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) قال عياض : حديث عائشة هذا يفسر حديث أنس وان المراد ساعة المخاطبين وهو نظير قوله (أرأيتمكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها الآن أحد) وقد تقدم بيانه في كتاب العلم ، وأن المراد انقراض ذلك القرن ، وأن من كان في زمن النبي ﷺ إذا مضت مائة سنة من وقت تلك المقالة لا يبقى منهم أحد ، ووقع الأمر كذلك ، فإن آخر من بقي ممن رأى النبي ﷺ أبو الطفيل عامر بن واثلة كما جزم به مسلم وغيره وكانت وفاته سنة عشر ومائة من الهجرة .

١- الحديث دليل على أن الساعة تطلق في الشرع على ثلاث إطلاقات ، وقد تقدم ذلك .

٢- اهتمام الصحابة بالسؤال عن الساعة ، وكان النبي ﷺ يوجههم للاستعداد لها .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَا أَعَدَدْتَ لَهَا » . قَالَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . قَالَ « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » متفق عليه .

قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرِحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ « فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » . قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ .

٦٥١٢- عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رَبِيعٍ الْأَنْصَارِيِّ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ بِجِنَارَةٍ فَقَالَ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالِدَّوَابُّ) .

[م : ٩٥٠] .

٦٥١٣- عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ) .

[م : ٩٥٠] .

(مَرَّ عَلَيْهِ بِجِنَارَةٍ) بضم الميم .

(قَالُوا) أي : الصحابة .

(مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا) زاد النسائي في رواية وهب بن كيسان (من أوصاب الدنيا) والأوصاب جمع وصب بفتح الواو والمهملة ثم موحدة : وهو دوام الوجع ، ويطلق أيضاً على فتور البدن ، والنصب بوزنه لكن أوله نون هو التعب وزنه ومعناه والأذى من عطف العام على الخاص .

وفي رواية لأحمد (الْعَبْدُ الصَّالِحُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا) وفي رواية للبيهقي - في الشعب - (والعبد الكافر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب) ، وعند ابن حبان (المؤمن يموت ويستريح من أوصاب الدنيا وبلادها ومصيباتها ، والكافر يموت فيستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)

١- مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُؤْتَى قِسْمَانِ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ ، وَنَصَبِ الدُّنْيَا : تَعَبَهَا . وَأَمَّا إِسْتِرَاخَةُ الْعِبَادِ مِنَ الْفَاجِرِ مَعْنَاهُ : إِذْفَاعُ أَذَاهُ عَنْهُمْ ، وَأَذَاهُ يَكُونُ مِنْ وُجُوهِ مِنْهَا : ظَلَمَهُمْ ، وَمِنْهَا إِزْتِكَابُهُ لِلْمُنْكَرَاتِ فَإِنَّ أَنْكَرُوهَا قَاسُوا مَشَقَّةَ مَنْ ذَلِكَ ، وَرُبَّمَا

نَاهُمْ صَرَرَهُ ، وَإِنْ سَكَنُوا عَنْهُ أَثْمُوا . وَاسْتِرَاحَةَ الدَّوَابِّ مِنْهُ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُؤْذِيهَا وَيَصْرَبُ بِهَا وَيُجَمِّلُهَا مَا لَا تُطِيقُهُ ، وَجَمِيعَهَا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَاسْتِرَاحَةَ الْبِلَادِ وَالشَّجَرِ ، فَقِيلَ : لِأَنَّهَا تُنَمِّعُ الْعَطْرَ بِمُصِيبَتِهِ ، قَالَهُ الدَّوْدِيُّ . وَقَالَ الْبَاجِي : لِأَنَّهُ يَعْصِبُهَا وَيَمْنَعُهَا حَقَّهَا مِنَ الشُّرْبِ وَغَيْرِهِ . (نووي) .

قال أبو الوليد الباجي في " المستقى شرح الموطأ : قوله ﷺ لَمَّا رَأَى الْجِنَازَةَ (مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ) ، يُرِيدُ أَنَّ مَنْ تُؤْتِي مِنَ النَّاسِ عَلَى صُرَيْبَيْنِ: صُرْبٌ يَسْتَرِيحُ، وَصُرْبٌ يُسْتَرَاحُ مِنْهُ؛ فَسَأَلُوهُ عَنْ تَفْسِيرِ مُرَادِهِ بِذَلِكَ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُسْتَرِيحَ هُوَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَصِيرُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَمَا أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّعْمَةِ، وَيَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَتَعَبِهَا وَأَذَاهَا.

وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ هُوَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ، فَإِنَّهُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ، وَيُجْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَذَاهُ لِلْعِبَادِ بِظُلْمِهِمْ، وَأَذَاهُ لِلْأَرْضِ وَالشَّجَرِ بِعَصَبِهَا مِنْ حَقِّهَا وَصَرْفِهَا إِلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، وَإِنْعَابِ الدَّوَابِّ بِمَا لَا يَجُوزُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ فَهَذَا مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، وَقَالَ الدَّوْدِيُّ مَعْنَى يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ أَنَّهُمْ يَسْتَرِيحُونَ بِمَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ نَاهُمْ أَذَاهُ، وَإِنْ تَرَكَوهُ أَثْمُوا؛ وَاسْتِرَاحَةُ الْبِلَادِ أَنَّهُ بِمَا يَأْتِي مِنَ الْمَعَاصِي تَحْرُبُ الْأَرْضُ فِيهِلِكَ لِذَلِكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ؛ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ فِيهِ نَظْرٌ؛ لِأَنَّ مَنْ نَالَ الْأَذَى مِنَ أَهْلِ الْمُنْكَرِ لَا يَأْتُمُّ بِتَرْكِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ وَيَكْفِيهِ أَنْ يُنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ أَوْ بِوَجْهِهِ لَا يَنَالُهُ بِهِ أَذَاهُ؛ وَسَيَأْتِي ذَلِكَ مُفَسَّرًا فِي الْجَامِعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قال العلامة ابن عبد البر : في هذا الحديث معنى يُشْكِلُ، ولا ما يحتاج إلى تفسير، ولا ما يحتمله من خلاف التأويل .

• الموت هو النهاية المحتومة، والتي لا يمكن لأحد بوجه من الوجوه أن يفرَّ عنها، على حد قول كعب بن زهير:

كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتهُ = يوماً على آلةٍ حذباءٍ محمول .

• مصداق حديث الرسول ﷺ (الدنيا سجن المؤمن ...) .

راحة الشجر من الكافر؟ فقال - رحمه الله تعالى - لأن الكفار سبب لمنع الأمطار، والجذب والقحط، وكل شر، والشجرة معلوم أنها إذا انقطع عنها المطر ماتت .

٦٥١٤- عن أنس بن مالك قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ ائْتَانٍ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ) .

[م : ٢٩٦٠] .

(يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ) هذا يقع في الأغلب، ورب ميت لا يتبعه إلا عمله فقط، والمراد من يتبع جنازته من أهله ورفقته ودوابه على ما جرت به عادة العرب .

١٠ الحديث دليل على أهمية العمل الصالح وأنه هو الذي يدخل مع الإنسان في قبره ويحاسب، وأنه ماله وأهله لن ينفعوه إلا ما أنفقه في طاعة الله .

أولاً : فالعمل الصالح هو الذي يدخل معك في قبرك .

لحديث الباب .

ثانياً : وهو أنيسك وجليسك في القبر .

قال النبي ﷺ : (إن العبد المؤمن إذا وضع في قبره يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر برضوان من الله وجنات ، أنا عملك الصالح ، فوالله ما علمتك إلا كنت سريع في طاعة الله بطيء في معصية الله) .

ثالثاً : وهو الحسب الحقيقي .

قال ﷺ (قال الله عز وجل: من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

وقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

ولذلك قال النبي ﷺ (يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً) .

رابعاً : وهو الذي يتمناه الإنسان عند الاحتضار .

يقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ...) .

يتمنى إذا احتضر وجاءت سكرة الموت ، وجاء الموت ، يتمنى أن يرجع ويعمل الأعمال الصالحة .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ) .

خامساً : وهو الذي يتمناه الكفار إذا دخلوا النار .

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُحْزِي كُلَّ كَفُورٍ . وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ . فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) .

سادساً : العمل الصالح سبب لتفريج الكرب .

وقد تقدم حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الغار ، فتوسل كل واحد منهم بعمل صالح فانفرت عنهم .

سابعاً : العمل الصالح هو الذي يبقى .

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْالاً) .

ثامناً : أنه سبب للحياة الطيبة .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

تاسعاً : سبب للأمن والاستقرار والتمكين .

قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) .

٦٥١٥- عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غَدَوَةً وَعَشِيًّا

إِمَّا النَّارَ وَإِمَّا الْجَنَّةَ فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ) .

[م : ٢٨٦٦] .

(غَدَوَةٌ وَعَشِيًّا) أي : أول النهار وآخره بالنسبة إلى أهل الدنيا .

(إِمَّا النَّارَ وَإِمَّا الْجَنَّةَ) وفي الرواية الأخرى (إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ..) .

١- الحديث دليل على إثبات عذاب القبر ، وقد جاءت النصوص الكثيرة في إثبات عذاب القبر .

أ- قال تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

ب- ولحديث ابن عباسٍ قَالَ (مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا ، فَقَالَ

النَّبِيُّ ﷺ «يُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ، ثُمَّ قَالَ «بَلَى» ، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» . ثُمَّ دَعَا

بِحَبْرَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً . فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ «لَعَلَّهُ أَنْ يُحْفَفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ

تَيَّبَسَا أَوْ إِلَى أَنْ يَيَّبَسَا) متفق عليه .

ب-وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال - قال رسول الله ﷺ (إذا تشهد أحدكم التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع . . . وذكر منها عذاب القبر) رواه مسلم .

ج-وحديث أنس رضي الله عنه قال - قال رسول الله ﷺ (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقولان له . . . وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين) متفق عليه

هـ وعنه قال : قال رسول الله ﷺ (لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع) رواه مسلم
و- وعن ابن عباس رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلم السورة من القرآن قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ونعوذ بك من عذاب القبر ...) متفق عليه .

ز- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال (كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار ...) . متفق عليه

٢-الحديث دليل على أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

٣- ينبغي على المسلم أن يعمل وأن يجتهد بالأعمال الصالحة التي تنور له قبره .

٦٥١٦- عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا) .

(لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ) السب هو الشتم واللعن .

(أَفْضَوْا) أي : وصلوا إلى ما عملوا من خير أو شر .

١-الحديث دليل على تحريم سب الأموات .

٢-وهل هذا الحكم عام للمسلم والكافر أو فقط للمسلم ؟

قال بعض العلماء : يشمل هذا الميت المسلم والكافر .

وقال بعضهم : هذا خاص بأموات المسلمين .

والراجح أن الكافر إذا كان مؤذياً للمسلمين ولا يتأذى قريبه الحي المسلم فإن ذلك لا بأس .

والمسلم إن كان فاسقاً أو مبتدعاً فإنه يسب للتحذير من شره ، ولكن دون وجود أقاربه .

٣- نهي عن سب الأموات لحكم ، منها :

أولاً : لأنهم أفضوا وقدموا إلى ما عملوا .

ثانياً : أن في ذلك إيذاء لأقاربهم الأحياء .

ثالثاً : أن ذلك غيبة .

٤- فإن ما الجمع بين ما جاء في الصحيحين من حديث أنس قال (مُرَّ بَجَنَازَةٍ فَأَتَنِي عَلَيْهَا خَيْرًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَجِبَتْ

وَجِبَتْ وَجِبَتْ ، وَمُرَّ بَجَنَازَةٍ فَأَتَنِي عَلَيْهَا شَرًّا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ ... فلما سئل الرسول ﷺ عن ذلك قال :

من أثبتتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثبتتم عليه شراً وجبت له النار) وحديث الباب ؟

الجمع :

أ-أن النهي عن سب الأموات هو في غير المنافق وسائر الكفار وفي غير المتظاهر بفسق أو بدعة ، فأما هؤلاء فلا يحرم ذكرهم بشر التحذير من طريقهم ومن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم ، وهذا الحديث محمول على أن الذي أثبتوا عليه شراً كان

مشهوراً بنفاق أو نحوه . [قاله النووي]

وقيل : يحمل النهي على ما بعد الدفن ، والجواز على ما قبله ليتعظ به من يسمعه .
وقيل : يكون النهي العام متأخراً فيكون ناسخاً ، وهذا ضعيف .

٤٣ - باب نَفْخِ الصُّورِ

قَالَ مُجَاهِدٌ الصُّورُ كَهَيْئَةِ البُوقِ .

{ رَجْرَجَةٌ } صِيحَةٌ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ التَّافُورُ الصُّورُ .

{ الرَّاجِفَةُ } التَّفْحَةُ الْأُولَى ، وَ{ الرَّادِفَةُ } التَّفْحَةُ الثَّانِيَّةُ .

٦٥١٧- عن أبي هريرة قال (استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين قال فعضب المسلم عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم ، فقال رسول الله ﷺ : لا تحيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون في أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله) .

[م : ٢٣٧٣] .

٦٥١٨- عن أبي هريرة قال النبي ﷺ (يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام فإذا موسى أخذ بالعرش فما أدري أكان فيمن صعق) .

رواه أبو سعيد ، عن النبي ﷺ .

[م : ٢٣٧٣] .

(استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود) ؟؟؟

لا تحيروني على موسى) وفي رواية (لا تفضلوا بين أنبياء الله) ؟؟؟

١- الحديث دليل على إثبات النفخ في الصور .

• تعريف الصور .

الصور : هو القرن الذي ينفخ فيه ملك الصور لإماتة الخلق ثم إحيائهم .

كما في حديث عبد الله بن عمرو . عن النبي ﷺ قال (الصور قرن ينفخ فيه) رواه الترمذي .

• والنفخ في الصور ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

وقال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) .

وقال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) .

وقال تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : (قرن ينفخ فيه) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا ، ثم لا يبقى

أحد إلا صعق ... ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .
وأجمع المسلمون على ثبوته .

● النافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام .

وهذا هو المشهور ، وقد نقل بعض العلماء الإجماع على ذلك .

قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك عندنا : ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ

وقال القرطبي : والصحيح في الصور أنه قرن ... ينفخ فيه إسرافيل .

● عدد النفخات :

اختلف العلماء في عدد النفخات على قولين :

القول الأول : أنها نفختان : نفخة الصعق ونفخة البعث .

فالأولى يحصل بها الفرع والصعق ، والثانية : يحيى الله بها الخلائق .

واختار هذا القول : ابن حجر ، والقرطبي .

ويدل لهذا قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) .

وقال تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

فقوله تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ) . هذه النفخة الأولى .

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) هذه هي النفخة الثانية .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (ما بين النفختين أربعون) قالوا : يا أبا هريرة : أربعين يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة : قال : أبيت) . متفق عليه

القول الثاني : أنها ثلاث نفخات : نفخة الفرع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

واختار هذا القول : ابن تيمية ، وابن كثير ، والسفاري ، والشوكاني .

واحتجوا : في قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وهذه نفخة الفرع .

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ...) هذه نفخة الصعق .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) هذه نفخة البعث .

قالوا : إن الفرع مغاير للصعق .

● صاحب الصور مستعد للنفخ .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (كيف أنعم ، وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ ، فينفخ) رواه الترمذي .

● المستثنون من الفرع والصعق .

قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ...) .

اختلف العلماء في المستثنى من الفزع والصعق على أقوال :
قيل : الموتى كلهم ، لكونهم لا إحساس لهم فلا يصعقون .
واختاره القرطبي في المفهم .

وقيل : هم الشهداء .

واختاره القرطبي صاحب التذكرة .

وقيل : الأنبياء .

وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت .

وقيل : موسى وحده .

وقيل : هم نُحُزَانُ الجنة والنار وما فيها من الحيات والعقارب .

وقيل : الملائكة كلهم وحوار العين .

• مقدار ما بين النفختين :

تقدم حديث أبي هريرة . أن النبي ﷺ قال : (ما بين النفختين أربعون) قالوا : يا أبا هريرة : أربعين يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا :
أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة : قال : أبيت . متفق عليه
القول الأول : أربعون يوماً أو شهراً أو سنة .

القول الثاني : أربعون سنة .

القول الثالث : أربعون أسبوعاً .

والراجح الأول من غير تحديد يوم أو شهر أو سنة ، لحديث أبي هريرة .

– واختلف في سبب إباطه ﷺ على أقوال :

قيل : إنه امتنع من بيانه لعدم علمه به ، فلم يرد الخوض فيه بالرأي .

وقيل : إنه أراد أنه امتنع عن سؤال النبي ﷺ عن تفسيره .

وقيل : إنه امتنع عن بيانه مع أنه عنده علم منه ، ولكنه لم يفصره لأنه لم تدع الحاجة إلى بيانه ، واستظهره القرطبي .

وقيل : إنه سكت ليخبرهم في وقت آخر ثم اشتغل عن الإعلام .

والأقرب الأول – والله أعلم – .

٢- الحديث دليل على النهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الحمية والعصبية .

وقد أجمع العلماء على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض ، وأجمعوا على تفضيل الرسل منهم على الأنبياء ، لتميزهم بالرسالة

التي هي أفضل من النبوة ، وأجمعوا على تفضيل أولي العزم منهم على بقيتهم ، وعلى تفضيل نبينا على الجميع .

واختلفوا في الجمع بين قوله (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) وقوله تعالى (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا

دَاوُدَ زُبُورًا) وبين حديث الباب ، وفي لفظ (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَائِ اللَّهِ ...) على وجوه :

الأول : أن النهي في الحديث محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى توهم النقص في المفضل أو الغرض منه ، أو كان على

وجه الازدراء به .

واختاره الخطابي ، والبغوي ، وابن تيمية ، وابن أبي العز ، وحافظ حكيمي .

الثاني : أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى المجادلة والمخاصمة والتشاجر والتنازع .

ويؤيد هذا القول سبب ورود الحديث كما تقدم في حديث أبي هريرة .

الثالث : أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل بمجرد الرأي والهوى ، لا بمقتضى الدليل .

الرابع : أن نهي ﷺ على سبيل التواضع منه ﷺ .

الخامس : أن النهي الوارد في الأحاديث كان قبل نزول الآيات ، وقبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم .

٣- شدة عناد اليهود .

٤- النهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الحمية .

٥- تواضع النبي ﷺ .

٦- أنا أول من يفيق وتنشق عنه الأرض نبينا محمد ﷺ .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع). رواه مسلم

ولحديث الباب (فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ فِي أَوَّلِ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ ...) .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أنا سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع) .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إني أول من يرفع رأسه بعد النفاخة الآخرة) .

تنبه : قوله (فأكون في أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان موسى فيمن صعق) .

الصواب أن هناك وهم ، حيث أنه ليس هناك استثناء في صعقة البعث ، وإنما الاستثناء يكون في الصعقة التي تكون يوم القيامة إذا تجلّى الله للخلائق .

قال ابن كثير : فذكر موسى في هذا السياق فيه نظر ، ولعله من بعض الرواة؛ دخل عليه حديث في حديث ؛ فإن التردد هاهنا فيه لا يظهر ، لا سيما قوله : أم جوزي بصعقة الطور .

ثم قال : ومن أحسنها سياقاً : إذا كان يوم القيامة ، فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي ، أم جوزي بصعقة الطور ، وهذا كما سيأتي بيانه يقتضي أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة ، وهو صعق آخر غير المذكور في القرآن ، وكأن سبب هذا الصعق في هذا الحديث التجلي ، يعني تجلي الرب سبحانه إذا جاء لفصل القضاء ، فيصعق الناس كما خر موسى صعقاً يوم الطور . والله أعلم .

قال الشيخ الراجحي : هناك صعقة ثالثة في موقف القيامة اذا وقف الناس للحساب وتجلّى الله للخلائق صعق الناس فيكون نبينا أول من يفيق فيجد موسى قائماً بقائمة بالعرش لا أدري أفاق قبلي ...، فوهم بعض الرواة فظن أن الاستثناء في صعقة البعث ، وصعقة البعث ليس فيها استثناء .

رَوَاهُ نَافِعٌ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

٦٥١٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ) .

[م : ٢٧٨٧] .

٦٥٢٠- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُبْرَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدَكُمْ حُبْرَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَلَا أُخْبِرُكَ بِنَزْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ بَلَى قَالَ تَكُونُ الْأَرْضُ حُبْرَةً وَاحِدَةً كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ قَالَ إِدَامُهُمْ بِاللَّامِ وَنُونٌ قَالُوا وَمَا هَذَا قَالَ تَوْرٌ وَنُونٌ يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا) .

[م : ٢٧٩٢] .

(يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ) أي : يوم القيامة .

(بِيَمِينِهِ) في إثبات اليمين لله تعالى ، إثباتاً يليق بجلاله .

(تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي : أرض الدنيا .

(حُبْرَةً) بضم الحاء وفتح الزاي .

(وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا) أي : يميلها ، وعند مسلم (يَكْفُؤُهَا) بسكون الكاف .

(بِنَزْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) النزول : ما يقدم للضيف وللعسكر ، قال النووي : النزول ، فَبِضَمِّ النَّونِ وَالزَّايِ ، وَجُوزِ إِسْكَانِ الزَّايِ وَهُوَ مَا يُعَدُّ لِلضَّيْفِ عِنْدَ نُزُولِهِ .

(فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) يريد أنه أعجبه إخبار اليهودي عن كتابهم بنظير ما أخبر به من جهة الوحي .

(ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ) ما يُوَكَّلُ بِهِ الْحَبْزُ .

(قَالُوا) أي : الصحابة .

(وَمَا هَذَا قَالَ تَوْرٌ وَنُونٌ) قال الخطابي فأما نون فهو الحوت على ما فسر في الحديث وأما بالأم فدل التفسير من اليهودي على أنه اسم للثور .

قال النووي : أَمَّا (النَّونُ) فَهُوَ الْحُوتُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَمَّا (بِاللَّامِ) فَبِنَاءٍ مُوَحَّدَةٍ مَفْتُوحَةٍ ، وَيَتَخَفِيفُ اللَّامِ وَمِيمِ مَرْفُوعَةٍ غَيْرِ مُنَوَّنةٍ ، وَفِي مَعْنَاهَا أَقْوَالٌ مُضْطَرِبَةٌ الصَّحِيحُ مِنْهَا : الَّذِي اخْتَارَهُ الْقَاضِي وَعَظَمَهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ ، أَنَّهَا لَفْظَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ مَعْنَاهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ : ثَوْرٌ ، وَفَسَّرَهُ بِهَذَا ، وَهَذَا سَأَلُوا الْيَهُودِيَّ عَنْ تَفْسِيرِهَا وَلَوْ كَانَتْ عَرَبِيَّةً لَعَرَفْتَهَا الصَّحَابَةُ ، وَلَمْ يَخْتَأِجُوا إِلَى سُؤَالِهِ عَنْهَا فَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ فِي بَيَانِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ

(يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا) قال عياض : زيادة الكبد وزائدتها : هي القطعة المنفردة المتعلقة بها ، وهي أطييه ، ولهذا خص بأكلها السبعون ألفاً ، ولعلمهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضلوا بأطيب النزل ، ويحتمل أن يكون عبر بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر .

١- الحديث دليل على مشهد من مشاهد يوم القيامة ، وأن الله يقبض الأرض بيمينه ويطوي السماء .

كما قال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

قال السعدي : يقول تعالى ، وما قدر هؤلاء المشركون ربحهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه. { سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } أي: تنزه وتعظيم عن شركهم به. (تفسير السعدي) .

وقد أخرجنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسماوات فقال (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

قال ابن كثير : والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعمري، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ) أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله (فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) ، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وجاء في السنة بيان ما يقوله سبحانه بعد ذلك ، كما في حديث الباب .

وكذلك في حديث ابن عمر . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ يَقُولُ الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ) هذا لفظ مسلم .

وهذا القبض للأرض والطي للسماوات يقع بعد أن يفني الله خلقه .

قال القرطبي : هذه الأحاديث تدل على أن الله سبحانه يفني جميع خلقه أجمع كما تقدم ثم يقول الله عز و جل (لمن الملك اليوم) فيجيب نفسه المقدسة بقوله (لله الواحد القهار) .

و قيل : إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عليها على ما يأتي (لمن الملك اليوم) فيجيبه العباد (لله الواحد القهار) رواه أبو وائل عن ابن مسعود و اختاره أبو جعفر النحاس قال : والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس و لا بالتأويل

والقول الأول أظهر ، لأن المقصود إظهاره انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعوى المدعين و انتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار و متكبر وملكه ، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم ، وهذا أظهر ، وهو قول الحسن و محمد بن كعب وهو مقتضى قوله الحق : [أنا الملك أين ملوك الأرض] ؟ (التذكرة) .

٢- في حديث ابن عمر السابق (... ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ) ، وجاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر . أن رسول الله ﷺ قال (وكلتا يديه يمين) .

فحديث ابن عمر يصف إحدى يدي الله بالشمال ، والحديث الآخر ينص على أن كلتا يدي الله تعالى يمين .

وقد اختلف العلماء في دفع هذا التعارض على أقوال .

لكن قبل ذكر الخلاف ، لا بد بيان أن أهل السنة مجمعون على أن لله تعالى يدين ، كما قال تعالى (بل يدها مبسوطتان) .

ف قيل في دفع التعارض :

قيل : بإثبات الشمال لله تعالى لحديث (بشماله) وحملوا حديث (وكلتا يديه يمين) على أنه قاله على جهة الأدب .

وإلى هذا ذهب الإمام عثمان بن سعيد الدارمي ، وأبو يعلى الفراء ، ومحمد بن عبد الوهاب .

قال الإمام الدارمي : إنما عن رسول الله ﷺ باليدين فقال (كلتا يدي الرحمن يمين) إجلالاً لله وتعظيماً أن يوصف بالشمال ،

ولو لم يجوز أن يقال كلتا يدي الرحمن يمين لم يقله رسول الله ﷺ .

واستدل هؤلاء بحديث ابن عمر السابق (ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ) .

وقيل : كلتا يديه - سبحانه - يمين ، ومنع هؤلاء إطلاق الشمال على يد الله تعالى .

وذهب إلى هذا ابن خزيمة ، والبيهقي ، والألباني .

للحديث السابق (وكلتا يديه يمين) .

ولحديث ابن عمر . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أول ما خلق الله تعالى القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين) أخرجه ابن

أبي عاصم في السنة .

وضعف هؤلاء رواية (بشماله) تفرد به عمر بن حمزة عن سالم ، وهو ضعيف .

وهذا أرجح .

٦٥٢١- عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (يُحْشِرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَفُرْصَةِ نَقِيٍّ)

قَالَ سَهْلٌ ، أَوْ غَيْرُهُ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ .

[م : ٢٧٩٠] .

(يُحْشِرُ النَّاسُ) بضم أوله ، والحشر الجمع ، واصطلاحاً : جمع الناس يوم القيامة للحساب .

(عَفْرَاءَ) قال النووي : بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَالْمَدِّ بِيَضَاءٍ إِلَى حُمْرَةٍ ، وقال الخطابي : العفر بياض ليس بناصع .

(كَفُرْصَةِ نَقِيٍّ) قال النووي : يَفْتَحِ النَّوْنُ وَكَسْرُ الْقَافِ وَتَشْدِيدُ الْيَاءِ هُوَ الدَّقِيقُ الْحُورِيُّ ، وَهُوَ الدَّرَمُكُ ، وَهُوَ الْأَرْضُ الْجَيِّدَةُ ،

قَالَ الْقَاضِي : كَأَنَّ النَّارَ غَيَّرَتْ بَيَاضَ وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى الْحُمْرَةِ .

(لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ) العلم والمعلم بمعنى واحد ، قال الخطابي : يريد أنها مستوية ، والمعلم بفتح الميم واللام بينهما مهملة

ساكنة : هو الشيء الذي يستدل به على الطريق ، وقال عياض : المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا اثر ولا شيء من

العلامات التي يهتدي بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة ، وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها .

قال النووي : قَوْلُهُ ﷺ (لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ) هُوَ يَفْتَحُ الْعَيْنَ وَاللَّامُ ، أَي : لَيْسَ بِهَا عِلَامَةٌ سَكَنِيٌّ أَوْ بِنَاءٌ وَلَا أَثَرٌ .

١- الحديث دليل على إثبات الحشر .

والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) .

وقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) .

وقال تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

وقال ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد) متفق عليه .

• ويحشر كل شيء حتى البهائم ودل على حشر البهائم عدة أدلة :

أ- قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) .

ب- قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

ج- وحديث أبي ذر . (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال : يا أباذر أتدري فيما ينتطحان ؟ قال : قلت : لا ، قال : لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد .

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها) متفق عليه .

ه- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كوني تراباً ، فتكون تراباً ، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً)

• كيف يحشر الناس ؟

يحشرون حفاة عراة غرلاً .

لحديث عائشة . قالت : قال رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، قالت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (إنكم تُحشرون حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم) متفق عليه .

حفاة : جمع حاف وهو من ليس عليه نعال .

عراة : جمع عار وهو من ليس عليه ثياب .

غرلاً : أي غير محتونين .

• أول من يكسى إبراهيم .

للحديث السابق (وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام) .

والحكمة في ذلك :

قيل : لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه .

وقيل : لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر .

وقيل : أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة ، وهذا أحسنها .

• أرض المحشر الشام .

عن سهل بن سعد . قال : قال رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس فيها معلم لأحد) رواه البخاري .

عفراء : أي ليس بياضها ناصع . كقرصة النقي : الدقيق الخالص من الغش .

ليس فيها معلم لأحد : أي : شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة والبناء .

• ذلك اليوم رهيب عظيم فمما يكون فيه : دنو الشمس من الخلائق .

عن سُلَيْم بن عامر عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ مَقْدَارَ مِيلٍ) قال سليمان بن عامر: فوالله! ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض، أم الميل الذي الذي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ). رواه مسلم وعندما يشتد البلاء ، ويطول وقوفهم في ذلك الحشر ، والناس يريدون النجاة من هذا الموقف العظيم ، يبحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا عند ربهم ، كي يأتي لفصل القضاء بينهم وتخليصهم من كربات الموقف وأحواله وشدائد .

٤٥- باب كيف الحشر

٦٥٢٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةً عَلَى بَعِيرٍ وَعَشْرَةً عَلَى بَعِيرٍ وَيَحْشَرُ بِقِيَّتِهِمُ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَتَبَّيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا) .

[م : ٢٨٦١] .

٦٥٢٣- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ قَالَ أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّبَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

قَالَ فَتَادَهُ بَلَى وَعِزَّةَ رَبِّنَا .

[م : ٢٨٠٦] .

(عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ) قال النووي: المراد بثلاث طرائق: ثلاث فرق، ومنه قوله تعالى إخبارًا عن الجن (كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا) أي: فرقًا مختلفة الأهواء .

(وَيَحْشَرُ بِقِيَّتِهِمُ النَّارُ) هذه هي النار المذكورة في حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم (... وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن تطرد الناس إلى محشرهم) .

تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَتَبَّيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا) فيه إشارة إلى ملازمة النار لهم إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر وهذه الطريقة الثالثة . (الفتح) .

(كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ) الكافر اسم جنس يشمل الجميع ويؤيده قوله تعالى الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم الآية وقوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً .

(قَالَ أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ ...) ظاهر في أن المراد بالمشي حقيقته فلذلك استغريوه حتى سألوها عن كيفيته .

١- الحديث دليل على إثبات الحشر .

٢- الحديث دليل على كيفية حشر الناس ، وقد اختلف العلماء متى يكون هذا الحشر المذكور في الحديث .

قال النووي : وَهَذَا الْحَشْرُ فِي آخِرِ الدُّنْيَا قَبِيلَ الْقِيَامَةِ ، وَقَبِيلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ (يُحْشَرُ بِقِيَّتِهِمُ النَّارُ تَبَّيْتُ مَعَهُمْ وَتَقِيلُ وَتُصْبِحُ وَتُمْسِي) وَهَذَا آخِرُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَمَا ذَكَرَ مُسْلِمٌ بَعْدَ هَذَا فِي آيَاتِ السَّاعَةِ ، قَالَ : (وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَرْحَلُ النَّاسَ) ، وَفِي رِوَايَةٍ : (تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ) .

وقال الخطابي : هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة تحشر الناس أحياء إلى الشام ، وأما الحشر من القبور إلى الموقف فهو على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها وإنما هو على ما ورد في حديث بن عباس في الباب حفاة عراة مشاة

ومال الحليمي إلى أن هذا الحشر يكون عند الخروج من القبور وجزم به الغزالي .

وصوب عياض ما ذهب إليه الخطابي وقواه بحديث حذيفة بن أسيد وبقوله في آخر حديث الباب تقيل معهم وتبيت وتصبح وتمسي فإن هذه الأوصاف مختصة بالدنيا .

٣- حديث أنس دليل على أن الكافر يحشر على وجهه .

كما قال تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) .

ومن صفات حشر الكافر :

تنكيس الرأس:

قال الله تعالى (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) .

سواد الوجوه:

قال الله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) في هذه الآية الكريمة مشهدان:

المشهد الأول: ترهقهم ذلة، فيعترتهم الخوف والقلق من معاصيهم.

المشهد الثاني: كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا، من الذل وسوء ما قدموا قد علاها السواد والظلمة.

وقال تعالى (وَوُجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ) (تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) .

قال الفخر الرازي : والمعنى أنها عابسة كالحلة قد أظلمت ألوانها وهدمت آثار السرور والنعمة منها لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار.. وإنما كانت بهذه الصفة لأنها أيقنت أن العذاب نازل وهو قوله: (تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) والظن هنا. بمعنى اليقين .

٤- والحكمة في حشر الكافر على وجهه : أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا ، بأن يسحب على وجهه في القيامة إظهاراً لهوانه بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات .

٥- ومن كفيات الحشر يوم القيامة :

حشر المتكبرين .

قال ﷺ (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان) .

وهذه الحالة المخزية تناسب ما كانوا فيه في الدنيا من تعاضم وغرور بأنفسهم، لأنهم كانوا في الدنيا يتصورون أنفسهم أعظم وأجل المخلوقات؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أحقر المخلوقات وأصغرها .

حشر السائلين.

الذين يسألون الناس وعندهم ما يغيثهم، يأتون يوم القيامة و في وجوههم خموش أو كدوح، أو يأتون وليس في وجوههم مزعة لحم، يعرفهم الناس كلهم .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (ما يزال الرجل يسأل الناس؛ حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم) متفق عليه .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (من سأل وله ما يغيثه؛ جاءت خموشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة) .

والجزء من جنس العمل.

ومعنى الحديث: قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطاً لا قدر له ولا جاه، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه، لمشكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء، لكونه أذل وجهه بالسؤال، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله؛ فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به .

والمعنى الأول الذي ذكره الخطابي تأويل للحديث بغير معناه، ولهذا قال ابن حجر: والأول صرف للحديث عن ظاهره . وإن كان قد ورد ما يؤيده، وهو ما أخرجه الطبراني والبخاري من حديث مسعود بن عمرو مرفوعاً (يزال العبد يسأل وهو غني؛ حتى يخلق وجهه، فلا يكون له عند الله وجه) .

وقال ابن أبي جمرة: معناه: أنه ليس في وجهه من الحسن شيء، لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم، ومال المهلب إلى حملة على ظاهره .

٦٥٢٤- عن ابن عباس . قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنَّكُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاةٍ مُشَاةَ غُرُلَاً) .

قَالَ سُفْيَانُ هَذَا مِمَّا نَعُدُّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

[م : ٢٨٦٠] .

٦٥٢٥- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ (إِنَّكُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلَاً) .

[م : ٢٨٦٠] .

٦٥٢٦- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (قَامَ فِيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فَقَالَ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } الْآيَةَ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤَخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصِحَّابِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ } إِلَى قَوْلِهِ { الْحَكِيمُ } قَالَ فَيُقَالُ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ) .

[م : ٢٨٦٠] .

٦٥٢٧- عن عائشة ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلَاً قَالَتْ عَائِشَةُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ) .

[م : ٢٨٥٩] .

١- ذكر المصنف - رحمه الله - هذه الأحاديث ليستدل بها على أن الناس يوم القيامة يحشرون حفاة عرأة غرلاً .

(حُفَاةٌ) جمع حاف وهو من ليس عليه نعال .

(عُرَاةٌ) أي : غير لابسين ثياباً تستر عوراتكم .

(غُرُلَاً) أي : غير محتونين .

(بُهْمًا) أي : لا شيء معها .

وجاء في مسند أحمد عن عبد الله بن أنيس . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ : الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرُلَاً بُهْمًا " قَالَ : قُلْنَا : وَمَا بُهْمًا ؟ قَالَ : " لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدِّيَانُ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ ، حَتَّى أَقْضَهُ مِنْهُ ، وَلَا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ " قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: " بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ () ؟

قال النووي : وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ كَمَا خُلِقُوا لَا شَيْءَ مَعَهُمْ ، وَلَا يُفْقَدُ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، حَتَّى الْعُرَّةُ تَكُونَ مَعَهُمْ .

• **فإن قيل :** ما الجواب عن حديث أبي سعيد الخدري أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ دَعَا بِثِيَابٍ جُدُدٍ فَلَبَسَهَا ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ الْمَيِّتَ يُبْعَثُ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا) رواه أبو داود .

أولاً : أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ فِيهَا ثُمَّ تَبَلَى بَعْدَ الْقِيَامِ إِذَا وَافُوا الْمَوْقِفَ كَانُوا عُرَاةً .

ثانياً : أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ عُرَاةً ثُمَّ إِذَا كَسَى الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّادِقُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَسِيَّ كُلٌّ مِنْ جِنْسِ مَا مَاتَ فِيهِ مِنَ الثِّيَابِ .

ثالثاً : وَحَمَلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى الشَّهَدَاءِ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَدْفَنُوا فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي مَاتُوا فِيهَا . فَيَبْعَثُونَ فِي ثِيَابِهِمْ تَمَيِّزاً لَهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ .

رابعاً : أَنْ الْمُرَادَ بِالثِّيَابِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) وَقَوْلُهُ (وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ) وَالْمَعْنَى يَبْعَثُ الْمَرْءَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلٍ إِنْ خَيْرًا فَيُخَبَّرُ وَإِنْ شَرًّا فَيُشْرُ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جَابِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ : (يَقُولُ يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) رواه مسلم ، وَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ) رواه البخاري .

وقد جاءت النصوص في الإنسان يأتي يوم القيامة فرداً :

قال تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ..) .

فَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أَيُّ مُنْفَرِدِينَ لَا مَالَ ، وَلَا أَثَاثَ ، وَلَا رَقِيقَ ، وَلَا حَوْلَ عِنْدِكُمْ ، حُفَاةً ، غُرَاةً ، غُرْلًا ، أَيُّ : غَيْرِ مَخْتُونِينَ (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

وقال تعالى (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...) .

وقال تعالى (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) .

وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

وقال تعالى (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .

وهذه الآية فيها قولان :

قيل : كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.

وقيل : أن الإنسان يأتي يوم القيامة كما خلقه الله عز وجل حين خلقه (حفاة عرأة غرلاً) ورجحه ابن جرير والشنقيطي .

٣- الحديث دليل على أن أول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

والحكمة في ذلك :

قيل : لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه .

وقيل : لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر .

وقيل : أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك

بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة ، وهذا أحسنها . (التذكرة) .

٤- ارتداد بعض الأعراب بعد موت النبي ﷺ .

وهذه الردة محمولة على أصناف :

أولاً : مرتدون عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ ، وكانوا أسلموا في حياته ورأوه وهم على الإسلام .
ثانياً : مرتدون عن الإسلام في أواخر حياته ﷺ ، ولم يكن يعلم بكفرهم .
ثالثاً : أهل النفاق ممن أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر .
رابعاً : أهل الأهواء الذين غيروا سنة النبي ﷺ وهديه ، كالروافض ، والخوارج .

خامساً : وبعض العلماء يُدخل فيهم : أهل الكبائر ، وله ما يؤيد من السنة ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ) . (وسيأتي مزيد بحث إن شاء الله في حديث الحوض) .

٦٥٢٨- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا نَعَمْ قَالَ تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا نَعَمْ قَالَ أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا نَعَمْ قَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ) .

[م : ٢٢١] .

٦٥٢٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ فَتَرَاهُ ذُرِّيَّتُهُ فَيَقَالُ هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعَثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ كَمْ أَخْرِجُ فَيَقُولُ أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِئَةِ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا أُحْدِثْنَا مِنْ كُلِّ مِئَةِ تِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا قَالَ إِنَّ أُمَّتِي فِي الْأُمَّمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ) .

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ) يعني ابن مسعود .

(قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ) وفي الرواية الأخرى (كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحواً من أربعين رجلاً) .

فَقَالَ أَتَرْضَوْنَ) قال ابن التين : ذكره بلفظ الاستفهام ، لإرادة تقرير البشارة بذلك ، وذكره بالترج ، ليكون أعظم لسرورهم .

(أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا نَعَمْ) وفي الرواية الأخرى (فكبرنا) وفي حديث أبي سعيد (فحمدنا الله وكبرنا) .

(وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ) أي : بالنسبة إليهم .

ستأتي فوائد الحديث في الحديث الآتي إن شاء الله .

٤٦- باب قوله عز وجل {إن زلزلة الساعة شيء عظيم}

{أزفت الآزفة} {اقتربت الساعة}.

٦٥٣- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَقُولُ اللَّهُ يَا آدَمُ فَيَقُولُ لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قَالَ يَقُولُ أَخْرِجْ بَعَثُ النَّارِ قَالَ وَمَا بَعَثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعِينَ فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَا الرَّجُلُ قَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ وَمِنْكُمْ رَجُلٌ ، ثُمَّ قَالَ - وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالَ فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَّمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ) .

[م : ٢٢٢] .

(يَقُولُ اللَّهُ) هذا يسمى حديثاً قدسياً .

(لبيك) أي : إجابة بعد إجابة .

(وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ) أي : تملكه أنت لا يملكه غيرك ، كقوله تعالى (بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) .

(أَخْرِجْ بَعَثُ النَّارِ) وفي رواية (بعث جهنم من ذريتك) ، قال النووي : معناه : ميّز أهل النار من غيرهم .

قال الحافظ ابن حجر : إنما خص آدم بذلك ، لكونه والد الجميع ، ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء ، فقد رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء [وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة ..] .

(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا) اختلف في وقت وضع كل حمل حملها ، فقيل : عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا ،

وقيل : هو في القيامة ، فعلى الأولى فهو على ظاهره ، وعلى الثاني يكون مجازاً ، لأن القيامة ليس فيها حمل ولا ولادة ، وتقديره :

ينتهي به الأهوال والشدائد إلى أنه لو نُصِّرت الحوامل هناك لوضعن أحماهن ، وقال بعض العلماء : يحتمل أن يحيي الله حينئذ

كل حمل كان قد تم خلقه ونفخت فيه الروح ، فتذهل الأم حينئذ عنه ، لأنها لا تقدر على إرضاعه .

(فاشتد عليهم) في رواية (فشق ذلك على القوم ووقعت عليهم الكآبة والحزن) .

(أبشروا) البشارة الإخبار بما يسر .

الفوائد :

١- الحديث دليل على إثبات القول لله تعالى .

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة : إثبات صفة الكلام لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته ، وحقيقة الإيمان بصفة الكلام لله

أنه الاعتقاد الجازم بأن الله يتكلم بكلام قدس النوع حادث الأحاد ، وأنه لم يزل يتكلم ، يتكلم بماء شاء ، متى شاء ، كيف شاء

(بما شاء) باعتبار الكلام ، يعني من أمر ونهي .

(متى شاء) باعتبار الزمن .

(كيف شاء) يعني على الكيفية والصفة التي يريد سبحانه .

والأدلة على إثبات الكلام لله كثيرة :

قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) .

وقوله تعالى (ومنهم من كلم الله) .

وقوله تعالى (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي) .

وقوله تعالى (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ..) .

وقوله تعالى (وكلمه ربه) .

وقوله تعالى (إن الذين يشتركون بالله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

قال شارح الطحاوية : فأهانهم بترك تكليمهم ، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم ، فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين ، لكانوا في ذلك هم أعداؤه سواء ، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً .

ومن السنة حديث الباب (يقول الله تعالى : يا آدم أخرج بعث النار ، فيقول : لبيك وسعديك ...) متفق عليه .

وعن عبد الله بن أنيس عن النبي ﷺ قال (يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلاً بجماً ، فيناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان) رواه أحمد .

ومن العقل : أن الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وضده - عدم الكلام - من أوصاف النقص ، والله منزّه عن النقائص

• **وكلام الله بحروف .** قال تعالى : (يا موسى إني أنا ربك) .

فإن هذه الكلمات حروف ، وهي من كلام الله .

• **بصوت .** الدليل : قال تعالى : (ونادينا من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) .

والنداء لا يكون إلا بصوت .

والدليل على أنه بمشيئة الله :

وقوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) .

فالتكليم حصل بعد مجيء موسى ، فدل على أنه متعلق بمشيئته تعالى .

• **سمعه موسى من غير واسطة ،** الدليل : قال تعالى : (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) .

• **وسمعه جبريل ،** لقوله تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله

كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير) .

ويتكلم الله سبحانه بصوت لا يشبه شيئاً من المخلوقين .

كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : (يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادي

بصوته : إني أمرك أن تخرج من أمتك بعث النار ...) .

• **ويكلم الله سبحانه أهل الجنة ويكلمونه .**

قال النبي ﷺ : (إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير بيدك، فيقول: هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ...) . رواه البخاري

٢- الحديث دليل على حرص آدم على رعاية الأدب مع ربه ، حيث نسب الخير إليه ، فقال : والخير بيدك ، ولم يقل : والشر ، مع أنه بتقدير الله .

٣- شدة أهوال يوم القيامة وكرها .

٤- أن يأجوج ومأجوج من البشر لحديث الباب من ذرية آدم وحواء .

قال ابن كثير : هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ، ثم ذكر الحديث السابق .

وقال : وهم يشبهون الناس ، كأبناء جنسهم ، ومن زعم أن منهم الطويل كالنخلة ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقيق ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه الأقوال بلا دليل ، ورحم بالغيب بغير برهان ، والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم .

ففي حديث النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ : (... فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عباداً لي لا يُدان لأحد بقتالهم ...) رواه مسلم .

٥- الحديث دليل على أن أكثر أهل الجنة من أمة محمد .

ففي حديث الباب (نصف الجنة من هذه الأمة) .

وعند الترمذي عن بُرَيْدَةَ . قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٍّ تَمَّانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَّمِ) .

قال ابن القيم : ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر ، لأنه رجا أولاً أن يكونوا شطر أهل الجنة فأعطاه الله سبحانه رجاءه وزاد عليه سدساً آخر .

٥- استحباب بشارة المسلم .

٦- تكرار بشارة المسلم .

٧- قلة أهل الحق في أهل الباطل .

٨- كثرة أهل النار .

٩- ضرب الأمثال لتقريب العلم .

١٠- إثبات قيام الساعة .

١١- ينبغي للإنسان إذا رأى أحداً منزعاً أن يبشره .

٤٧- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمِ الْأَسْبَابُ } قَالَ الْوُصَلَاتُ فِي الدُّنْيَا .

٦٥٣١- عن ابنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ({ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } قَالَ يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ) .

[م : ٤٩٣٨] .

٦٥٣٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرْقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ) .

[م : ٢٨٦٣] .

(فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ) الرشح العرق .

(وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ) أي : يصل إلى فيه وأذنيه فيكون له بمنزلة اللجام من الحيوانات .

١- الحديث دليل على إثبات البعث يوم القيامة ، وهو قيام الناس من قبورهم للحساب .

٢- الحديث دليل على أن الناس يعرقون يوم القيامة من شدة الأهوال في ذلك اليوم .

عن الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ) .

قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمْسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ. قَالَ « فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِبْجَامًا ». قَالَ وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ (رواه مسلم) .

قال القرطبي : قوله (تدنى الشمس يوم القيامة) أي : تقرب . والميل : اسم مشترك بين مسافة الأرض ، والمزود الذي تكحل به العين . ولذلك أشكل المراد على سليم بن عامر ، والأولى به هنا : مسافة الأرض .
ففي هذا الحديث دنو الشمس من الخلائق يوم القيامة .

والناس في ذلك اليوم أحوج ما يكونون لشيء يقيهم حر الشمس ، ولهذا يختص الله بعض خلقه فيظلهم تحت ظله .
روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ بَيْنَهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) .

قال النووي رحمه الله : " قَالَ الْقَاضِي : ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي ظِلِّهِ مِنَ الْحَرِّ وَالشَّمْسِ ، وَوَجَّحَ الْمُؤَقِّفُ وَأَنْفَاسَ الْخَلْقِ " انتهى من " شرح النووي لمسلم . "

وروى أحمد عن العرياض بن سارية ؓ قال : قال رسول الله ﷺ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي فِي ظِلِّ عَرْشِي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي) .

وروى أحمد عن عقبة بن عامر ؓ قال سمعت النبي ﷺ يقول (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ) .

٣- الحديث دليل على أن الناس يعرقون يوم القيامة ويكون العرق على قدر أعمالهم .

كما في الحديث السابق (... فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِبْجَامًا) .

قال النووي : وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَرَقِ تَرَاكُمُ الْأَهْوَالِ ، وَدُنُو الشَّمْسِ مِنْ رُؤُوسِهِمْ وَرَحْمَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا .

ولهذا فإن الإنسان ليتمنى من شدة الهول والعرق أن يذهب به ولو إلى النار ويستريح منه، كما ورد عن عبد الله بن مسعود ؓ عن النبي ﷺ قال (إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة، فيقول: يا رب أرحني ولو إلى النار) .

٤- وقد ورد أن التفصيل الذي في حديث عقبة والمقداد يقع مثله لمن يدخل النار، فأخرج مسلم أيضاً من حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال (مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوتِهِ) .

وهي {الحاقة} لأن فيها الثواب وحواق الأمور الحقة و{الحاقة} واحد و{القارعة} والغاشية و{الصاححة} والتغابن غبن أهل الجنة أهل النار.

٦٥٣٣- عن عبد الله رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالْدِّمَاءِ) .
[م : ١٦٧٨] .

- ١- الحديث دليل على عظم أمر الدماء ، فإن البداءة تكون بالأهم .
 - ٢- الحديث دليل على تحريم دم المسلم بغير حق ، وأنه كبيرة من الكبائر .
- قال تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) .
وقال تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) .
وقال تعالى (وَالَّذِينَ لَا يُدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ...) .
وقال تعالى (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) .
وعن ابن مسعود . قال : قال ﷺ (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء) متفق عليه .
وقال ﷺ (لقتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا) رواه الترمذي .
وقال ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات : ... وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق) متفق عليه .
وقال ﷺ (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) متفق عليه .
وعن ابن مسعود . قال (سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ؟ قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ...) متفق عليه .
وقال ﷺ (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) رواه البخاري .
وقال ﷺ (أكبر الكبائر : الإشراف بالله ، وقتل النفس ، ...) رواه البخاري .
• معنى قوله تعالى (أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) .
قيل : المعنى من قتل نبياً أو إمام عادلاً فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيى الناس جميعاً .
وقيل : من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً .
وقيل : المعنى فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول ، ومن أحيها واستنقذها من هلكة فكأنما أحيى الناس جميعاً عند المستنقذ ،
وقيل غير ذلك .
قال ابن القيم : إن هذا تشبيه ولا يلزم من التشبيه أن يكون المشبه مثل المشبه به في كل شيء ، فإن من المعلوم قطعاً أن إثم من قتل مائة أعظم من إثم من قتل نفساً واحدة ، فليس المراد التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة وإنما كون كل منهما :
○ عاص لله ولرسوله ، مخالف لأمره متعرض لعقوبته .
○ أنهما سواء في استحقاق القصاص .
○ أنهما سواء في الجرأة على سفك الدم الحرام .
○ أن كلاهما يسمى فاسقاً عاصياً بقتله نفساً واحدة .
- ٣- فإن قيل : ما الجمع بين هذا الحديث ، وحديث (أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله صلواته) ؟
قال النووي : فِيهِ تَغْلِيظُ أَمْرِ الدِّمَاءِ ، وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا لِعَظَمِ أَمْرِهَا وَكَثِيرِ حَطَرِهَا ، وَلَيْسَ

هَذَا الْحَدِيثُ مُخَالِفًا لِلْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ فِي السُّنَنِ (أَوَّلُ مَا يُجَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتَهُ) لِأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا حَدِيثُ الْبَابِ فَهُوَ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

٦٥٣٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ ، وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ) .

(مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ) وللترمذي (رحم الله عبداً كانت له عند أخيه مظلمة) ، وفي رواية للحديث (مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ) أي : من الأشياء ، وهو من عطف العام على الخاص ، فيدخل فيه المال بأصنافه والجراحات حتى اللطمة ونحوها ، وعند الترمذي (من عرض أو مال) .

(فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا) أي : يستبرئ ذمته منه بأدائه أو بعفوه ، وفي الرواية الأخرى (اليوم) أي : في الدنيا .

(فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ ، وَلَا دِرْهَمٌ) وفي اللفظ الآخر (قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ) وذلك في يوم القيامة .

(وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ) أي : صاحب المظلمة .

(فَحُمِلَ عَلَيْهِ) أي : على الظالم .

١- الحديث دليل على أنه يجب على الإنسان أن يرد ما عليه من حقوق الأدميين، قبل أن يموت وينتقل إلى دار

الآخرة ، فتكون عليه وتؤخذ من حسناته إن كان له عمل صالح ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه .

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (أَتَذَرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ . فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَعَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) . رواه مسلم

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فِيمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) متفق عليه . «الْحَنُّ» أي : أعلم .

وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : (أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُخْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كَيْفَ قُتِلْتَ؟ قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُخْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ ، إِلَّا الدِّينَ فَإِنَّ جِبْرِيْلَ قَالَ لِي ذَلِكَ) .

رواه مسلم

وعن أبي هريرة . قال : قال رضي الله عنه (لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) متفق عليه .

قال النووي : هَذَا تَصْرِيحٌ بِحُشْرِ الْبَهَائِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِعَادَتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا يُعَادُ أَهْلَ التَّكْلِيفِ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ ، وَكَمَا يُعَادُ الْأَطْفَالَ وَالْمَجَانِينَ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ ، وَعَلَى هَذَا تَظَاهَرَتْ دَلَائِلُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) وَإِذَا وَرَدَ لَفْظُ الشَّرِّعِ ، وَلَمْ يَمْنَعْ مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ عَقْلٌ وَلَا شَرَعٌ وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْحُشْرِ وَالْإِعَادَةِ فِي الْقِيَامَةِ الْمُجَارَاةُ وَالْعِقَابُ وَالتَّوَابُ ، وَأَمَّا الْقِصَاصُ مِنَ الْقَرْنَاءِ لِلْجُلْحَاءِ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ قِصَاصِ التَّكْلِيفِ ؛ إِذْ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا ، بَلْ هُوَ قِصَاصٌ مُقَابَلَةٌ . وَالْجُلْحَاءُ بِالْمَدِّ هِيَ الْجُمَاءُ الَّتِي لَا قَرْنَ لَهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

● فحقوق العباد يجب أن يتحلل منها في الدنيا قبل أن يجاسب عليها في الآخرة .

وحقوق العباد تنقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن تكون في النفس .

مثل أن يكون قد جنى عليه ، أو ضربه حتى جرحه ، أو قطع عضواً من أعضائه ، فإنه يتحلل منه بأن يُمكن صاحب الحق من القصاص ، أو بذل الدية إذا لم يكن القصاص .

القسم الثاني : أن تكون في المال .

فإنه يعطيه ماله ويرجع لصاحبه ، فإن كان صاحبه قد مات فإنه يسلمه إلى ورثته ، فإن لم يعرف مكانه فإنه يتصدق به عنه .

القسم الثالث : وإن كانت المظلمة في العرض كسب أو شتم ، فاختلف العلماء في كيفية التحلل منه على قولين :

القول الأول : اشتراط الإعلام والتحلل .

واحتج أصحاب هذا القول : بأن الذنب حق آدمي ، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه .

القول الثاني : إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيايه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب والمقذوف

في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه.

وهذا اختيار أبي العباس ابن تيمية .

واحتج أصحاب هذه المقالة : بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تتضمن مصلحة ، فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقاً وغماً ، وقد كان مستريحاً قبل سماعه .

قالوا : وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل .

وقالوا : إن الفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنبايات الأبدان من وجهين :

أحدهما : أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه ، فلا يجوز إخفاؤها عنه، فإنه محض حقه، فيجب عليه أداءه إليه، بخلاف الغيبة

والقذف ، فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه .

الثاني : أنه إذا أعلمه بها لم تؤذ به ، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة ، بل ربما سرّه ذلك وفرح به .

وهذا القول الثاني هو الراجح والله أعلم بالصواب .

٢- تحريم الظلم .

٣- حقوق العباد مبناه على المشاحة والمطالبة .

٤- التحذير من العدوان على الناس في أموالهم أو أعراضهم أو أنفسهم .

٥- إثبات القصاص يوم القيامة .

٦٥٣٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ

وَالنَّارِ فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ

مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَاحِدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا) .

(يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ) وفي لفظ للبخاري (إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا) أي : نجوا من السقوط فيها بعد

ما جازوا على الصراط .

(حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُّوا) هُما : بِمَعْنَى التَّمْيِيزِ وَالتَّخْلِيسِ مِنَ التَّبِعَاتِ .

١- الحديث دليل على إثبات القنطرة .

ومن أدلتها :

قوله تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) .

ومن فسر الآية بحديث القنطرة : الثعالبي في تفسيره ، والبغوي في تفسيره ، والرازي في تفسيره .

والقنطرة : مكان يكون قبل دخول الجنة وبعد الصراط ، يجلس فيه بعض المؤمنين بعد خلوصهم من هول الصراط وشدته ، يتقاصون فيه مظالم كانت بينهم في الدنيا .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْقِصَاصَ لَا يَسْتَنْفِذُ حَسَنَاتِهِمْ .

قُلْتُ (الحافظ) : وَلَعَلَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ مِنْهُمْ عَلَى الْقَوْلِ الْمُرَجَّحِ آيَةً ، وَخَرَجَ مِنْ هَذَا صِنْفَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؛ وَمَنْ أُوْبِقَهُ عَمَلُهُ .
أُوْبِقَهُ : أي أهلكه .

٢- اختلف في القنطرة المذكورة فقول: هي من تنمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة وقيل أنهما صراطان وبهذا الثاني جزم القرطبي .

وفي كتاب (المظالم) رجح الحافظ الأول فقال:(الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة .

وذكر القرطبي أن الصراط صراطان في كتابه التذكرة فقال:(اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأرى على الحسنات بالقصاص جرمه). وذكر العيني نحو ذلك فقال عند ذكر القنطرة: (قيل هذا يشعر بأن في القيامة جسرين، هذا والذي على متن جهنم المشهور بالصراط. واجب بأنه لا محذور فيه، ولئن ثبت بالدليل أنه واحد فتأويله أن هذه القنطرة من تنمة الأول). ١.هـ

قلت: الذي ثبت عن النبي ﷺ أن الصراط واحد، ولم يذكر ﷺ أن الصراط صراطان (مجاز أو خاص) والذي يقتضي الدليل رجحانه أن القنطرة جسر بين الجنة والنار لا علاقة له بالصراط كما هو ظاهر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وظاهره يدل أيضاً على أن المؤمنين خلصوا أي فرغوا وانتهوا من المرور على الصراط كما قال الحافظ:

وكما قال القرطبي رحمه الله: (معنى يخلص المؤمنون من النار أن يخلصوا من الصراط المضروب على النار .

قلت : ويشهد لذلك حديث ابن مسعود الطويل الذي تقدم والذي يصف فيه النبي ﷺ مرور الناس على الصراط حتى قال فيه : حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخر يد، وتعلق يد وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجحنا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد .

قلت: فهذا الحديث نص صريح في أن معنى خلصوا هو انتهاء الناس من المرور على الصراط، وبذلك نعلم أن القنطرة ليست تنمة للصراط، والعلم عند الله تعالى .

٣- إثبات القصاص .

٤- إثبات الجزاء .

٥- ذم الحسد والبغضاء .

٦- من نعيم الجنة أن أهلها لا يتحاسدون ولا يتباغضون .

٧- جواز الحلف من غير استحلاف .

٤٩- باب من نوقش الحساب عذب

٦٥٣٦- عَنْ عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذِّبَ قَالَتْ قُلْتُ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } قَالَ ذَلِكَ الْعَرَضُ) .

حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى ، عَنْ عُمَانَ بْنِ الْأَسْوَدِ سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ : سَمِعْتُ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِثْلَهُ .

وَتَابَعَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمٍ وَأَيُّوبُ وَصَالِحُ بْنُ رُسْتِمٍ ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . [م : ٢٨٧٦] .

٦٥٣٧- عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَذِّبَ) .

[م : ٢٨٧٦] .

(إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ) بكسر الكاف (العرض) عرض الناس على الميزان .

(وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ) من المناقشة والمراد المبالغة في الاستيفاء .

١- معنى الحديث: أن عائشة سمعت النبي ﷺ يقول (من حوسب عذب) أي: أن كل من حاسبه الله يوم القيامة فلا بد أن يناله شيء من العذاب، فقالت: أوليس الله يقول (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) فكيف تقول: من حوسب عذب، فقال: إنما ذلك العرض، أي: أن الحساب اليسير شيء آخر وهو العرض، ومعناه تذكير المؤمن على انفراد بأخطائه مع تطمينه والعفو عنه .

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) أي: سهلاً بلا تعسير ، أي لا يحقق عليه جميع أعماله ، فإن من حوسب كذلك هلك .

قال الرازي : والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله ، ويعرف أن الطاعة منها هذه ، والمعصية هذه ، ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة ، ولا يقال له : لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه .

قال السعدي : وهو العرض اليسير على الله فيقره الله بذنوبه ، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك ، قال الله تعالى : إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها لك اليوم .

عن عائشة . قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلواته (اللهم حاسبني حساباً يسيراً ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله؛ ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك) رواه أحمد .

فالحساب نوعان :

حساب مناقشة : وهو عسير وشديد .

وحساب عرض ، وهو حساب يسير لا عذاب فيه .

٢- الحديث دليل على أن من حق طالب العلم أن يسأل فيما أشكل عليه ، وأن يراجع كما فعلت عائشة ، وعلى العالم أن يقابل مراجعته برحابة صدر .

- ٣- فضل عائشة في حرصها على تفهم معاني الحديث ، وأن النبي ﷺ لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم .
- ٤- أن السؤال عن مثل هذا لم يدخل فيما نهي الصحابة عنه في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ...) .
- وقد وقع نحو ذلك لغير عائشة ، ففي حديث حفصة أنها لما سمعت (لا يدخل النار أحد ممن شهد بدرًا والحديبية) قالت : ليس الله يقول (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فأجيبته بقوله (ثم ننجي الذين آمنوا) .
- وسأل الصحابة لما نزلت (الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) أينا لم يظلم نفسه؟ فأجيبوا بأن المراد بالظلم الشرك .
- ٥- في الحديث إثبات الحساب .

٦- جواز المناظرة في العلم من أجل الوصول للحق .

٧- أن الناس متفاوتون في الحساب يوم القيامة .

٨- أن الفهم والفقہ يستفاد من الدربة والمناقشة .

٦٥٣٨- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول (يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِاءٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيُقَالُ لَهُ قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ) .

[م : ٢٨٠٥] .

١- الحديث سيأتي شرحه قريباً إن شاء الله ، وفيه إثبات الحساب يوم القيامة .

٢- وفيه أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٣- شدة عذاب الكفار يوم القيامة ، وأنه يتمنى لو يفتدي بكل ما يملك لينجو .

٤- شدة حساب الكافر .

٦٥٣٩- عن عدي بن حاتم قال : قال النبي ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)

[م : ١٠١٦] .

٦٥٤٠- عدي بن حاتم قال : قال النبي ﷺ (اتَّقُوا النَّارَ ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ثُمَّ قَالَ اتَّقُوا النَّارَ ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ثَلَاثًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ثُمَّ قَالَ اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) .

[م : ١٠١٦] .

(اتَّقُوا النَّارَ) أي : اجعلوا بينكم وبينها وقاية بالعمل الصالح .

(وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) أي : ولو تصدقوا بنصف تمرة .

(فَيَنْظُرُ أَيَّمَنُ مِنْهُ) أي : في الجانب الذي على يمينه .

(فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ) أي : من أعماله الصالحة ، وعند الترمذي بلفظ (فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه) .

(وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ) أي : من أعماله السيئات ، قال الحافظ : يحتمل أن يكون سبب الالتفات أنه يترجى

أن يجد طريقاً يذهب فيها ، ليحصل له النجاة من النار .

(النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) وفي الرواية الأخرى (فليفعل) أي : اجعلوا بينكم وبينها وقاية من

الصدقة وعمل البر ولو بشيء يسير .

١- الحديث دليل على وجوب اتقاء النار ، وذلك بفعل الأسباب التي تنجي من النار .
وقد أمر الله باتقائها في آيات كثيرة :

فقال تعالى (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) .

وقال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى) .

وقال تعالى (وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ . إِنَّهَا لَلْأَحَدَى الْكُبْرَى . نَذيراً للبشر) قال الحسن البصري: والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهم منها.

وقال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) متفق عليه .

واتقاء النار يكون : بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه .

وأمر ﷺ بالاستعاذة منها . كما قال ﷺ (استعيذوا بالله من عذاب جهنم) متفق عليه .

وكان ﷺ يقول في صلاته (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم) متفق عليه .

ومن صفات عباد الله الخوف منها ، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

٢- الحديث دليل على أن الصدقة - ولو قلت - من أسباب النجاة من النار واتقائها ، بعض أسباب النجاة من النار :

أولاً : الصدقة .

كما في حديث الباب .

وقال ﷺ (ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة) رواه أحمد .

وجاء عند الطبراني من حديث فضالة بن عبيد مرفوعاً (اجعلوا بينكم وبين النار حجاباً ، ولو بشق تمرة) .

ولأحمد عن عائشة بإسناد حسن (يا عائشة استتري من النار ، ولو بشق تمرة ، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان)

وقال ﷺ (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ ، فَإِنِّي أُرِيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) متفق عليه .

ثانياً : البكاء من خشية من الله .

قال ﷺ (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي .

ثالثاً : الصيام :

قال ﷺ (الصيام جنة يستجن به من النار) رواه أحمد ، وفي رواية (وحصن حصين من النار) .

وقال ﷺ (من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً) متفق عليه .

رابعاً : والاستجارة بالله من النار .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ (من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من

النار ثلاث مرات قالت النار اللهم أجره من النار) رواه الترمذي .

خامساً : المحافظة على صلاة الفجر والعصر .

قال ﷺ (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) رواه مسلم .

سادساً : الجهاد .

قال ﷺ (من اغبرت قدماه في سبيل الله فهما حرام على النار) رواه الترمذي .

سابعاً : حسن الخلق .

قال ﷺ (من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار)

ثامناً : عتق الرقاب .

قال (من أعتق رقبة مؤمنة كانت فكاهه من النار) .

تاسعاً : الكلمة الطيبة .

لحديث الباب (فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) قال النووي: فيه أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار.

٣- الحديث دليل على فضل الصدقة .

وللصدقة فضائل كثيرة منها :

أولاً : أنها برهان على صحة الإيمان .

كما في حديث الباب (والصدقة برهان) .

ثانياً : أنها تطهير للنفس .

قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) .

ثالثاً : أنها تغفر الذنوب .

قال (والصدقة تطفيئ الخطيئة كما يطفىئ الماء النار) رواه الترمذي .

رابعاً : أن الصدقة تزيد المال .

قال (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم .

خامساً : أنها تظلل صاحبها يوم القيامة .

قال (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه أحمد .

وقال (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

سادساً : أنها وقاية النار .

قال (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه .

وقال للنساء (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الإِسْتِعْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) متفق عليه .

سابعاً : دعاء الملائكة .

كما قال (ما من صباح إلا وينزل ملكان: يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه

ثامناً : أن فيها علاجاً من الأمراض .

روي عنه أنه قال (داووا مرضاكم بالصدقة) .

قال ابن شقيق (سمعت ابن المبارك وسأله رجل : عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل

الأطباء فلم ينتفع به، فقال: اذهب فأحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل

الرجل فبرأ) .

تاسعاً : أن الله يدفع بالصدقة أنواعاً من البلاء .

كما في وصية يحيى عليه السلام لبني إسرائيل (وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه

ليضربوا عنقه فقال: أنا أفندي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم) .

فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ ، بل من كافر ، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من

البلاء ، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه . (الوابل الصيب) .

عاشراً : أنه لا يبقى لصاحب المال من ماله إلا ما تصدق به .

كما في قوله تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ) .

ولما سأل النبي ﷺ عائشة عن الشاة التي ذبحوها ما بقي منها: قالت : ما بقي منها إلا كتفها ، قال (بقي كلها غير كتفها) رواه الترمذي .

الحادي عشر : أن يضاعف للمتصدق أجره .

كما في قوله عز وجل (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) .

وقوله سبحانه (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

الثاني عشر : أن فيها انشراحاً للصدر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ رَجُلَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى تَدْبِيهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا ، فَجَعَلَ الْمُتَّصِدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُعَشِّيَ أَنْامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرُهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا) متفق عليه .

فلمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره ، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه ، فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح ، وقوي فرحه ، وعظم سروره ، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقياً بالاستكثار منها والمبادرة إليها وقد قال تعالى (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

٤- عدم احتقار القليل من الصدقة وغيرها ، لأنها تربو عند الله حتى تكون كالجبل ، كما جاء في حديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فتربو في كف الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجبل) .

٥- فضل الكلمة الطيبة ، وأنها تكون سبباً للنجاة من النار .

٦- عظم الشريعة الإسلامية ، حيث نوعت طرق الخير .

٧- وجوب اتقاء النار .

٨- الحث على العمل الصالح ، وأنه هو السبب في النجاة من النار بعد رحمة الله .

٩- إثبات يوم القيامة .

١٠- إثبات الجزاء يوم القيامة .

١١- إثبات الكلام لله تعالى .

٥٠ - باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب

٦٥٤١- عَنْ حُصَيْنٍ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ : حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّةُ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْعَشْرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْحَمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ وَحَدَهُ فَانظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ يَا جَبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي قَالَ : لَا وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفُقِ فَانظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا عَذَابَ قُلْتُ وَلِمَ قَالَ كَانُوا لَا يَكْتُوبُونَ ، وَلَا يَسْتَرْفُونَ ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ قَالِ اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرَ قَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ . [م : ٢٢٠] .

٦٥٤٢- عن أبي هريرة حفص : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ مِرَّةً عَلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ قَالِ اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَقَالَ سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ) . [م : ٢١٦] .

٦٥٤٣- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا ، أَوْ سَبْعُمِئَةِ أَلْفٍ - شَكَ فِي أَحَدِهِمَا - مُتَمَّا سَكِينٍ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى يَدْخُلَ أَوْطَانُهُمْ وَآخِرُهُمْ الْجَنَّةَ وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) . [م : ٢١٩] .

(عن حصين بن عبد الرحمن) هو السلمي الكوفي ، ثقة ، مات سنة (١٣٠ هـ) .

(سعيد بن جبير) : هو الإمام الثقة الفقيه ، من جلة أصحاب ابن عباس ، قتل بين يدي الحجاج سنة (٩٥ هـ) .

(عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّةُ) كان هذا في ليلة الإسراء على القول الصحيح ، فقد جاء في رواية عن ابن القاسم عن حصين بن عبد الرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء ، ولفظه : (لما أسري بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد ...) .
العارض هو الله سبحانه وتعالى .

(فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْعَشْرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْحَمْسَةُ) وفي رواية (فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد)

الرهط : الجماعة دون العشرة . قاله النووي . (والنبي ومعه الرجل والرجلان) قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : (الظاهر أن الواو بمعنى أو ، أي : ومعه الرجل أو الرجلان ، لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يعني أن يقول : ومعه ثلاثة) .

(فَانظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ) (إذ رفع إلي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقليل لي هذا موسى وقومه) ، السواد : ضد البياض ، والمراد هنا الشخص الذي يرى من بعيد ، أي رفع إلي أشخاص كثيرة .

(فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ) هذا السواد أعظم من الأول ، لأنه جاء في رواية : (قد سد الأفق) .

(قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا عَذَابَ) في حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيحين أنهم (تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) .

وروى الإمام أحمد في حديث أبي هريرة : (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً) . قال الحافظ : سنده جيد .

(لَا يَكْتُونُ) أي : لا يسألون غيرهم أن يكوئهم ، فتركه أفضل عند عدم الحاجة لأنه نوع من التعذيب .
(وَلَا يَسْتَرْقُونَ) أي : لا يطلبون من يرقئهم لقوة اعتمادهم على الله ، ولما في ذلك من التعلق بغير الله .
قال شيخ الإسلام : (... فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون أي / لا يطلبون من أحد أن يرقئهم ، والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك) . أ . هـ

لم ينهى عنها وإنما ذكر فضل تركها فقط ، فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس من العلاج ، وتركه أفضل عند عدم الحاجة
(وَلَا يَنْطِيرُونَ) أي : لا يتشاءمون بالطيور ونحوها ، وهذا شرك لقوله ﷺ : (الطيرة شرك) .
وكانت العرب معروفة بالتطير ، فمنهم من يتشاءمون بشهر صفر ، ومنهم من يتشاءمون بشهر شوال بالنسبة للنكاح ، ومنهم من يتشاءم بصوت .

(فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بِنْتُ مِحْصَنِ) عُكَّاشَةُ : بضم العين . ومحسن : بكسر الميم ، كان من السابقين إلى الإسلام ، هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها ، ومناقبه مشهورة ، استشهد في قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد عام (١٢هـ) .

١- الحديث دليل على فضل هذه الأمة بالكمية والكيفية .

أما الكمية : فلأن النبي ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذي مع موسى عليه السلام .

وأما الكيفية : فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى رهم يتوكلون .

٢- الحديث دليل على أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب لقوله (هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا عَذَابَ) وهذا صريح في مقصود الترجمة .

والصفات المذكورة (لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون) من تحقيق التوحيد ، فلما اتصفوا بصفات لأهل تحقيق التوحيد أتاهم الله الجنة بغير حساب ولا عذاب .

(والحساب : المناقشة على الدقيق والجليل ، والعذاب : حصول الألم في الموقف) .

٣- الحديث دليل على فضل التوكل على الله ، وحكمه واجب .

قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) . وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

٤- الحديث دليل على فضل التوكل على الله وأنه سبب لدخول الجنة ، وللتوكل فضائل ، وقد تقدم ذكرها .

٦- الحديث دليل على تحريم التطير ، وقد جاءت الأدلة على تحريمه :

أ- عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن الرسول ﷺ قال (لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر) متفق عليه .

ب- وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل) قالوا : ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة . متفق عليه .

ج- وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

والتطير : هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم .

بمرئي : مثل لو رأى طائراً فتشاءم لكونه موحشاً .

أو مسموع : مثل لو هم بأمرٍ فسمع شخص يقول لآخر : يا خسران ، أو يا خائب ، فتشاءم .

أو معلوم : كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور .

وأصل التطير عند العرب : زجر الطير ، فإن العرب كانوا إذا أرادوا أمراً زجروا الطير ، فإن أقبلت أقدموا عليه ، وإذا أدبرت أحجموا عليه .

● واعلم أن التطير ينافي التوحيد من وجهين :

الوجه الأول : أن المنتطير قطع توكله على الله ، واعتمد على غيره .

الوجه الثاني : أنه تعلق بأمر لا حقيقة له ، (أي : أخلد إلى سببٍ غير معتدٍ به شرعاً ولا قدرأ) .

● وهو شركاً أصغر ، لأنه جعل سبباً ما ليس بسبب ، أما إذا اعتقد أن المنتطير به مستقلٌ بالتأثير تكون الطيرة شركاً أكبر .

وقول الله تعالى : (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

قال ابن القيم : التطير : هو التشاؤم بمرئي أو مسموع ، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفر وامتنع بها عما عزم عليه فقد قرع باب الشرك ، بل وجهه ، وبرئ من التوكل على الله سبحانه ، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله ، والتطير مما يراه أو يسمعه ، وذلك قاطع على مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقوله تعالى (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً ، فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله ، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة ، ويساق إليه من كل أرب ، ويقبض له الشيطان من يفسد عليه دينه ودنياه ، وكم هلك بسبب ذلك وخسر الدنيا والآخرة .

٧- الحديث دليل على فضل ترك طلب الاسترقاء من الغير لقوله (ولا يسترقون) أي : لا يطلبون من أحد ذلك ، ففيه أن ترك طلب الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

قال ابن القيم رحمه الله : وذلك لأن هؤلاء دخلوا الجنة بغير حساب لكامل توحيدهم ، ولهذا نفى عنهم الاسترقاء وهو سؤال الناس أن يرقوهم ، ولهذا قال (وعلى ربحهم يتوكلون) فلكمال توكلهم على ربحهم وسكونهم إليه وثقتهم به ورضاهم عنه وإنزال حوائجهم به لا يسألون الناس شيئاً ، لا رقية ولا غيرها ، ولا يحصل لهم طيرة تصدهم عما يقصدونه ؛ فإن الطيرة تنقص التوحيد وتضعفه . (زاد المعاد / ١ / ٤٧٥) .

وقال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لما يلي :

أولاً : لقوة اعتمادهم على الله .

ثانياً : لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله .

ثالثاً : ولما في ذلك من التعلق بغير الله .

٨- هل طلب الرقية يقدح في التوكل أم لا ، اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : أن الاسترقاء يقدح في تمام التوكل .

وهذا قول الإمام أحمد ، والخطابي ، والقاضي عياض ، والنووي ، وابن تيمية .

أ- واستدلوا بحديث الباب (ولا يسترقون ...) .

قال ابن تيمية : فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء : أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية نوع من الدعاء .

وقال الحافظ ابن حجر : فتمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكي من بين سائر الأدوية ، وزعم أنهما قادحان في التوكل دون غيرها .

ب- ولحديث المغيرة . قال : قال رسول الله ﷺ (من استرق فقد بريء من التوكل) رواه الترمذي .

ج- وقالوا : إن فعله ﷺ وأمره بما وإقراره لها فإنما هو لبيان الجواز .

القول الثاني : أن طلب الرقية لا يقدر في التوكل .

وإليه ذهب : الطبري ، والمازري ، وابن القيم ، وابن قتيبة ، وابن عبد البر ، والداوودي ، والقرطبي .

أ- لحديث عائشة قالت (كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نسترقى من العين) متفق عليه .

ب- ولحديثها أيضاً (أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضاً أو أتى به قال : أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يعادر سقماً) متفق عليه .

ج- وعنها (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ نفسه بالمعوذات وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها) متفق عليه .

د- وعنها قالت (كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقا جبريل قال : باسم الله يبريك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، وشر كل ذي عين) رواه مسلم .

ففي هذه الأحاديث : أنه ﷺ أذن في الرقى بل أمر بها ، ومن فعله ﷺ ، حيث رقى نفسه ورقى غيره ورقى من قبل جبريل وعائشة ، مع أنه ﷺ سيد المتوكلين .

هـ- وقال ﷺ (استرقوا لها) .

● وأجاب هؤلاء عن الباب (... ولا يسترقون ...) :

أولاً : ما قاله الطبري والمازري ، من أنه يحمل ما في الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية تنفع بطبعها كما كان أهل الجاهلية يعتقدون .

ثانياً : ما قاله الداوودي : أن المراد بالحديث الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء ، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا .

وهذا اختيار ابن عبد البر ، واختاره أيضاً البيهقي .

والصحيح الأول ، وأن طلب الرقية مكروه ، وهو اختيار ابن تيمية كما تقدم .

فالنبي ﷺ ثبت عنه أنه رقى نفسه وغيره ، ولم يثبت عنه أنه كان يسترقى ، وحاله ﷺ أكمل الأحوال .

والمسترقى سائل مستعطف ملتفت إلى غير الله بقلبه .

● قوله (لا يسترقون) فلو رقا أحد من غير طلب فلا يقدر ذلك .

● وأما ما جاء في رواية عند مسلم (ولا يرقون) فهذا غلط ، فإن رقاهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره ، ولم يكن يسترقى . [ابن تيمية] .

٩- قوله (... ومعهم سبعون ألفاً ...) هل العدد مقصود أم لا ؟

قيل : ليس العدد مقصوداً ، فهم أكثر من السبعين ألفاً .

بدليل ما جاء في رواية عند الإمام أحمد في مسنده (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً) وحسنه ابن حجر .
وقيل : بل العدد مقصود ، إذ أن الأصل أن يُقصد لا أن يُهمل .

ويُوفق مع الحديث الذي رواه أحمد بأن الأول قبل الاستزادة والثاني بعدها ، بدليل قوله (فاستزدت ربي فزادني) بل إن في رواية الإمام أحمد دلالة على قصد الحصر ، إذ أن أوله (فاستزدت ربي) فلو لم يكن العدد مقصوداً لما استزاد ﷺ ربه ، وهذا رجحه جمع من العلماء .

١٠- عرض الأمام على النبي ﷺ لفائدتين :

الأولى : تسليية النبي ﷺ حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان .

الثانية : بيان فضيلته ﷺ وشرفه حيث كان أكثرهم أتباعاً .

١١- قوله (ولا يكتون) ، اختلفت الروايات في الكي :

ما ورد من فعله ﷺ :

عن جابر قال (رُمي سعد بن معاذ في أكحله ، قال : فحسمه النبي ﷺ بيده في مشقص ثم ورمت فحسمه الثانية) رواه مسلم (الأكحل) عرق في وسط الذراع ، (فحسمه) أي : قطع الدم عنه بالكي .

ما ورد من عدم محبته له :

عن جابر . قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ - أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ - خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ لَذْعَةِ بِنَارٍ تُؤَافِقُ الدَّاءَ ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتُوبِي) متفق عليه .

ما ورد في الثناء على تركه .

في حديث الباب (... هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ...) .

وفي حديث عمران بن حصين قال (وقد كان يُسلم عليّ حتى اكتبوت فتركت ، ثم تركت الكيّ فعاد) رواه مسلم .

ما ورد من النهي عن الكي :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةِ شَرْطَةٍ مُحَمَّدٍ ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ كَيْبَةِ بِنَارٍ ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيْ) . متفق عليه

اختلف العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث :

فقال بعض العلماء : الكي مباح ، وأما أحاديث النهي فتحمل على أفضلية ترك الكي ثقة بالله وتوكلاً عليه ويقيناً بما عنده .

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر .

وذهب بعض العلماء إلى أن الكي جائز غير مكروه بشرطين وهما :

أ- إذا دعت الحاجة إليه ، ولا يمكن الاستغناء عنه بغيره بل تعين كونه طريقاً للعلاج .

ب- وإذا اعتقد أن الشفاء بيد الله تعالى وأن الكي مجرد سبب فقط .

فإذا استعمله مع إمكان الاستغناء عنه بغيره من الأدوية كره .

وإلى هذا ذهب القرطبي ، والمناوي ، والشوكاني .

قال القرطبي في المفهم : وكى النبي ﷺ لأبي وسعد دليل على جواز الكي والعمل به ، إذا ظن الإنسان منفعته ، ودعت الحاجة

إليه ، فيحمل نهي ﷺ عن الكي ، على ما إذا أمكن أن يُستغنى عنه بغيره من الأدوية ، فمن فعله في محله ، وعلى شرطه ، لم

يكن ذلك مكروهاً في حقه ، ولا مُنقِصاً له من فضله ، ويجوز أن يكون من السبعين ألفاً ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ،

كيف لا وقد كوى النبي ﷺ سعد بن معاذ ؛ الذي اهتز له عرش الرحمن ، وأبي بن كعب المخصوص بأنه أقرأ الأمة للقرآن ، وقد

اكتوى عمران بن حصين ، فمن اعتقد : أن هؤلاء لا يصلحون أن يكونوا من السبعين ألفاً ؛ ففساد كلامه لا يخفى . وعلى هذا البحث : فيكون قوله في السبعين ألفاً : أهم هم الذين لا يكتبون: إنما يعني به: الذي يكتوي وهو يجد عنه غنى . (المفهم) .
وقال المناوي : الكي لا يترك مطلقاً ، ولا يستعمل مطلقاً ، بل عند تعيينه طريقاً للشفاء ، وعدم قيام غيره مقامه ، مع مصاحبة اعتقاد أن الشفاء بإذن الله تعالى والتوكل عليه .

وقال أيضاً (نهي عن الكي) نهي تنزيه حيث أمكن الاستغناء عنه بغيره ، لأنه يشبه التعذيب بعذاب الله الذي نهي عنه ، ولما فيه من الألم الذي ربما زاد على ألم المرض ، أما عند تعيينه طريقاً فلا يكره ، فقد كوى النبي ﷺ . (فيض القدير) .
وقرب من هذا القول اختيار ابن القيم حيث قال مفصلاً :

فَقَدْ تَضَمَّنَتْ أَحَادِيثُ الْكَيِّ أَرْبَعَةً أَنْوَاعٍ أَحَدُهَا : فِعْلُهُ ، وَالثَّانِي : عَدَمُ مَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَالثَّلَاثُ : التَّنَاءُ عَلَى مَنْ تَرَكَهُ ، وَالرَّابِعُ : التَّهْيِي عُنْهُ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى .

فَإِنَّ فِعْلَهُ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ ، وَعَدَمُ مَحَبَّتِهِ لَهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْهُ .

وَأَمَّا التَّنَاءُ عَلَى تَارِكِهِ فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرَكَهُ أَوْلَى وَأَفْضَلُ .

وَأَمَّا التَّهْيِي عُنْهُ فَعَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِيَارِ وَالْكَرَاهَةِ أَوْ عَنِ النَّوعِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَلْ يُفْعَلُ خَوْفًا مِنْ حُدُوثِ الدَّاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
(زاد المعاد) .

١٢- أن المتبعين للحق قليل .

قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) .

وقال تعالى في شأن نوح (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) .

وقال تعالى في الحديث القدسي (يا آدم أخرج بعث النار من ذريتك ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) متفق عليه .

وقال ﷺ (إنما أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض ، أو الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود) متفق عليه

وقال ﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي يمر ومعه الرجل ، والنبي يمر ومعه الرجلان ...) متفق عليه .

١٣- استدلل بالحديث من قال إن النبي ﷺ مأمور بالتبليغ ، وقد اختلف العلماء في التفريق بين النبي والرسول على أقوال :

الذي عليه جمهور العلماء أن النبي هو من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، أما الرسول فهو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه .

وهذا الوجه في التفريق عليه إشكالات :

قال الشنقيطي في أضواء البيان : ما اشتهر على ألسنة أهل العلم ، من أن النبي هو من أوحى إليه وحي ، ولم يؤمر بتبليغه ، وأن

الرسول هو النبي الذي أوحى إليه وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح ، لأن قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

يدل على أن كلاً منهما مرسل ، وأحدهما مع ذلك بينهما تغاير . (أضواء البيان) .

ومقصود كلامه - رحمه الله - أن الإرسال للنبي والرسول يقتضي التبليغ وعدم الكتمان .

وقد استبعد الأشقر في رسالته الرسل والرسالات (ص/ ١٤-١٥) هذا الوجه من المغايرة من عدة وجوه :

الأول : أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ...) فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ ، فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ .

الثاني : أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى ، والله لا ينزل وحيه ليكنتم ويدفن في صدر واحد من الناس ، ثم يموت هذا العلم بموته .

الثالث : قول الرسول ﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ...) متفق عليه .

فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم .

وقيل : الرسول : من جاء بشريعة مستقلة، والنبي : من جاء تابعاً لشريعة من سبقه ، وهذا اختيار ابن تيمية في كتابه النبوات . قال ابن تيمية : فالنبي هو الذي ينبت الله وهو ينبي بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالاً يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فان هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح ، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كيث وإدريس . عليهما السلام . وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً .

وقال الأشقر في رسالته الرسل والرسالات : والتعريف المختار : أن الرسول من أوحى إليه بشرع جديد ، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله .

وقد ردّ شيخ الإسلام هذا القول حيث قال في النبوات : وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإن يوسف كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة قال تعالى عن مؤمن آل فرعون (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولاً) وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) .

١٤- قوله (سبقك بها عكاشة) اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام لهذا الرجل ؟

قيل : أنه كان منافقاً ، وهذا فيه نظر من وجهين :

أولاً : أن الأصل في الصحابة عدم النفاق ، فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح .

ثانياً : أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصدٍ صحيح ، ويقين بتصديق الرسول ﷺ ، وكيف يصدر ذلك من منافق

وقيل : أنه قال ذلك سداً للباب لئلا يقوم من ليس من أهلها فيطلبها فيتسلسل الأمر ، فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً .

١٥- استعمال المعارض ، والمراد بالمعارض : الكلام المتضمن إطلاق لفظ وإرادة غيره ، وهو شبيه بالتورية عند علماء البلاغة .

٦٥٤٤- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، حَدَّثَنَا أَبِي ، عَنْ صَالِحٍ ، حَدَّثَنَا نَافِعٌ ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُومُ مُؤَدِّنٌ بَيْنَهُمْ يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ خُلُودًا .

٦٥٤٥- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ ، عَنِ الْأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ خُلُودًا لَا مَوْتَ وَلِأَهْلِ النَّارِ النَّارِ خُلُودًا لَا مَوْتَ .

الحديث سيأتي شرحه قريباً إن شاء الله .

٥١- باب صفة الجنة والنار

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ زِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ عَدْنٌ خُلِدٌ عَدْنٌ بِأَرْضٍ أَقْمَتْ وَمِنْهُ الْمَعْدِنُ فِي مَعْدِنٍ صِدْقٍ فِي مَنَبِتٍ صِدْقٍ .

٦٥٤٦- عَنْ عِمْرَانَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ) .

[م : ٢٧٣٨] .

٦٥٤٧- عَنْ أُسَامَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (فُتِمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَكَانَ عَامَّةً مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينَ وَأَصْحَابُ الْجِدِّ مَحْبُوسُونَ غَيْرَ أَنْ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَقُتِمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةً مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءَ) .

[م : ٢٧٣٦] .

(وَأَصْحَابُ الْجِدِّ) بفتح الجيم ، الحظ والغنى .

(مَحْبُوسُونَ) أي : لم يؤذن لهم بعد بدخول الجنة ، قال الحافظ : أي ممنوعون من دخول الجنة مع الفقراء من أجل المحاسبة على المال ، وكان ذلك عند القنطرة التي يتقاصون فيها بعد الجواز على الصراط .

(إِلَّا أَصْحَابَ النَّارِ فَقَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ) مَعْنَاهُ : مَنْ اسْتَحَقَّ مِنَ أَهْلِ الْغِنَى النَّارَ بِكُفْرِهِ أَوْ مَعَاصِيهِ .

١- الحديث دليل على أن أكثر أهل الجنة الفقراء .

٢- استدل بالحديث من قال بفضل الفقير الصابر على الغني الشاكر ، وتقدمت المسألة .

٣- الحديث دليل على خطر الغني ، وقد تقدم ذلك في أول كتاب الرقاق .

٤- مصداق لقوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى ...) .

٥- الحديث دليل على أن أكثر أهل النار النساء ، وقد جاء بيان ذلك في حديث آخر (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزَلَةٌ وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ . قَالَ « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ » .

وفي حديث جابر (أَنْتُمْ تَكْثِرْنَ الشَّكَاةَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ) .

وفي حديث ابن عباس (يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) .

قال بدر الدين العيني رحمه الله : قَالَ الْمُهْلَبُ : " إِنَّمَا تَسْتَحَقُّ النِّسَاءَ النَّارَ : لِكُفْرِهِنَّ الْعَشِيرَ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : إِنَّمَا كَانَ النِّسَاءُ أَقَلَّ

سَاكِنِي الْجَنَّةِ : لما يغلب عَلَيْهِنَّ الهوى والميل إلى عاجل زينة الحَيَاة الدُّنْيَا، ولتقصان عقولهن، فيضعفن عن عمل الآخِرَةِ وَالتَّأَهُب لها ، لميلهن إلى الدُّنْيَا والتزين بها، وأكثرهن معرضات عن الآخِرَةِ ، سريعات الانخداع لراغبيهن من المعرضين عن الدين، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الآخِرَةِ وأعمالها . (عمدة القارىء) .

٦- يجب على المرأة أن تجاهد نفسها على تقوى الله ، وأن تحذر فتن الدنيا ومتاعها .

٦٥٤٨- عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُدْبِحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ فَيَزِدَادُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَيَزِدَادُ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ) .

[م : ٢٨٥٠] .

(جِيءَ بِالْمَوْتِ) وفي حديث أبي سعيد (كَأَنَّهُ كَبِشُ أَمْلَحُ) .

(حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) وقع للترمذي من حديث أبي هريرة (فيوقف على السور الذي بين الجنة والنار) .

(يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ) ووقع في حديث أبي سعيد (... فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا قَالَ فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُدْبِحُ ..) . (فيشربون) أي : يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم للنظر .

وعند الترمذي في آخر حديث أبي سعيد (فلو أن أحداً مات فرحاً مات أهل الجنة ، ولو أن أحداً مات حزناً مات أهل النار) .
١- الحديث دليل على خلود أهل الجنة بالجنة .

وجاء في حديث أبي سعيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبِشُ أَمْلَحُ - زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ - فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ - فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا قَالَ فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُدْبِحُ - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ » . قَالَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا) .

● وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة .

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) .

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) .

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) .

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنَ السَّجْنِ وَمَنْ بَدَّلُوا آيَاتِنَا وَلَوْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُؤْتَمَرُونَ فَلَا تَحْزَنُوا وَلَا يَسْأَلُكُمْ فِيهَا لَمَنْ ذُكِرْتُمْ بِهِمْ وَلَا تَجْنَبُوا أَسْوَاقَ الَّذِينَ أَمْسَكُوا مِنْ أَمْرِهِمْ لَئِنِ اتَّخَذْتُمْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ لَا يَصْلَحُوا لَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (سورة الاحزاب) وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) .

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم .

وقال ﷺ (يناد مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تستقموا أبداً ، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تياسوا أبداً) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح ، فيقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه .

● قال الشنقيطي : قوله تعالى (وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم ، لأن أكبر ما ينكد اللذائد ، وينغص اللذات ، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها ، وأنها زائلة عنه ، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم ، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غمًّا .

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبظتهم.

٢- الحديث دليل على أن أهل النار (وهم الكفار) خالدون فيها أبداً ، فالنار مؤبدة باقية لا تفتى أبد الآباد . وقد ذكر الله تأييده لأهل النار في ثلاث آيات من القرآن الكريم .

في سورة النساء : قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْزِرْهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب : قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً) .

وفي سورة الجن : قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبداً) .

وقال تعالى (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

وقال تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُقِيمٌ) .

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها:

قوله: (وَهُمْ عَنْهَا مُقِيمٌ) .

وقوله (لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) .

وقوله (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً) .

وقوله (خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً) .

وقوله (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) .

وقوله (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

وقوله (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) .

وقوله (لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) .

وقوله (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) ، أي مقيماً لازماً .

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال (لا إله إلا الله) وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. (شرح الطحاوية) .

قال الشيخ ابن باز : وقد ذهب بعض أهل السلف إلى أن النار لها نهاية، وأن أهلها يخرجون منها بعد النهاية، أو يموتون فيها، وهذا القول شاذٌ عند أهل السنة والجماعة لا أساس له من الصحة، والذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن النار دائمة أبداً،

وأن أهلها مخلدون فيها أبد الآباد، لا تحرب ولا يخرج منها أهلها، بل هم في عذاب دائم، وخلود دائم، وهي باقية مقيمة، لا تبين فيها أحقاب، لا تنتهي هكذا أخبر ربنا عز وجل في قوله - سبحانه (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ

مِنَ النَّارِ) (يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُقِيمٌ) (كَلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) (فَذُوقُوا فَلَان نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) ومن قال : إن لها أمداً فهو قول ضعيف شاذ لا يعول عليه عند أهل السنة والجماعة ، وأما العصاة من

الموحدين فهؤلاء عند أهل السنة والجماعة إذا دخلوا النار لا يخلدون فيها، بل يقيمون فيها ما شاء الله ثم يخرجهم الله منها فضلاً

منه ورحمة - سبحانه وتعالى -؛ لأنهم ماتوا على التوحيد والإسلام .

٣- قال القرطبي الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الغداء له كما فدى ولد إبراهيم بالكبش ، وفي الأملح إشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار ، لأن الأملح ما فيه بياض وسواد .

٦٥٤٩- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ يَقُولُونَ لَبَيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا : يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا) . [م : ٢٨٢٩] .

(فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ) في حديث جابر عند البزار وصححه بن حبان (هل تشتهون شيئاً) .

(فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ) في حديث جابر (وهل شيء أفضل مما اعطينا) .

(أَحَلُّ) بضم أوله وكسر المهملة ، أي : أنزل .

(عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي) بكسر أوله .

١- الحديث دليل على أن من أعظم نعيم أهل الجنة أن يحل الله عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

أ- قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي : رضوان الله عليهم أكبر مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا بروية رهم ورضاه عنهم، فرضا الله رب السماوات أكبر من نعيم الجنات .

قال ابن كثير : قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي : رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما قال الإمام مالك ، رحمه الله ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال (إن الله ، عز وجل ، يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك ، والخير في يدك . فيقول : هل رضىتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك . فيقول : ألا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله ، عز وجل : هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا ، ما خير مما أعطينا ؟ قال : رضواني أكبر) . (تفسير ابن كثير) .

قال أبو حيان : بدأ أولاً بذكر المقر ، وهو الجنات التي قال فيها (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ، (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ثم انتقل من ذكرها إلى ذكر ما يحصل به الأناج التام من الأزواج المطهرة ، ثم انتقل من ذلك إلى ما هو أعظم الأشياء وهو رضا الله عنهم ، فحصل بمجموع ذلك اللذة الجسمانية والفرح الروحاني ، حيث علم برضا الله عنه ، كما جاء في الحديث أنه تعالى (يسأل أهل الجنة هل رضىتم ؟ فيقولون : ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً) .

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) قال ابن عباس : أكبر مما يوصف .

وقال الزجاج : أكبر مما هم فيه من النعيم .

فإن قيل : لم كان الرضوان أكبر من النعيم؟ فعنه جوابان.

أحدهما : أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب ، وذلك أكبر من نعيم الأكل والشرب .

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم أبداً."

والثاني : أن الموجب للنعيم الرضوان ، والموجب ثمرة الموجب ، فهو الأصل . (زاد المسير) .

ب- وقال تعالى (قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِحَيْرٍ مِنْ دَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

ج- وقال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) .

٢- بعض أسباب رضا الله عن العبد في الدنيا والآخرة:

أولاً : الإيمان بالله والعمل الصالح .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) .

ثانياً: بذل النفس لله تعالى ولرسوله، والذب عن دينه، والجهاد في سبيله .

قال تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا).
ثالثاً: البراءة من الشرك والمشركين وإظهار عداوتهم .

قال تعالى (لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي - عن الذين اتصفوا بالصفات السابقة في الآية - : لهم أكبر النعيم وأفضله وهو أن الله يجعل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربه بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات، بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية .

رابعاً : الكلمة الطيبة .

عن بلال بن الحارث - رضى الله عنه- أن النبي ﷺ قال (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله - عز وجل-، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة) رواه الترمذي .

خامساً: الإحسان والصدقة .

قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وفي حديث أبي هريرة - رضى الله عنه- أن النبي ﷺ قال (إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يتبليهم، فبعث إليهم ملكاً» الحديث، وفي آخره: قال الملك للأعمى: «أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضي عنك، وسخط على صاحبيك) متفق عليه .

سادساً: حمد الله وشكره على النعم .

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه- أن النبي ﷺ قال (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها) رواه مسلم .

سابعاً: رضا الوالدين .

عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال (رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد) رواه الترمذي .

ثامناً: الرضا بقضاء الله وقدره .

عن أنس - رضى الله عنه- أن النبي ﷺ قال (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي .

تاسعاً: استعمال السواك .

عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال (السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب) رواه أحمد .

٣- وينبغي للعبد أن يسعى إلى رضا الله، ولو كان ذلك بسخط الناس؛ روى الإمام الترمذي في سننه من حديث عائشة رضى الله عنها: أن النبي ﷺ قال (من التمس رضا الله بسخط الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) .

٥- هذا الخطاب غير الخطاب الذي لأهل الجنة كلهم وهو فيما أخرجه مسلم وأحمد من حديث صهيب رفعه (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم موعدا عند الله يريد أن ينجزكموه الحديث وفيه فيكشف الحجاب فينظرون إليه وفيه فوالله ما اعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه) . (قاله في الفتح) .

٦٥٥- عن أنس قال (أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ وَيْحَكَ - أَوْهَيْبَتِ - أَوْجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ) .

(أُصِيبَ حَارِثَةُ) هو بن سراقه بن الحارث الأنصاري له ولأبويه صحبة.

(يَوْمَ بَدْرٍ) وكانت في السنة (٢) من الهجرة .

(فَجَاءَتْ أُمُّهُ) هي الربيع بالتشديد بنت النضر عمة أنس .

(وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ) مكان من أفضل مكان في الجنة .

١- الحديث دليل على أن أفضل مكان في الجنة هو الفردوس .

واسم الفردوس : قد يطلق ويراد به جميع الجنة.

وقد يطلق ويراد به : أفضل الجنة وأعلىها .

كما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة) رواه البخاري .

وقال تعالى : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) .
والفردوس في اللغة : البستان .

قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة ، وأوسطها ، وأعلاها ، وأفضلها ، وأرفعها .

ويدل على ذلك قوله في الحديث : (وفوقه عرش الرحمن) ، فليس فوق الفردوس إلا عرش الرحمن سبحانه وتعالى ، كما يدل عليه أيضا قوله : (ومنه تفجر أنهار الجنة) ؛ لأن الأنهار عادة تنبع من الأعلى . والله أعلم .

روى الترمذي وصححه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (الْفِرْدَوْسُ رُبُوعُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا) .

قال ابن القيم : أنزه الموجودات وأظهرها ، وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدرراً وأوسعها : عرش الرحمن جل جلاله ، ولذلك صلح لاستوائه عليه ، وكل ما كان أقرب إلي العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه ؛ ولهذا كانت حنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها ، لقربها من العرش ، إذ هو سقفيها ، وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق ، ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقتها وأبعدها من كل خير . (الفوائد) .

قوله ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) .

قال الحافظ : "يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْفِرْدَوْسَ فَوْقَ جَمِيعِ الْجِنَانِ ، وَلِذَا قَالَ ﷺ تَعْلِيمًا لِلْأُمَّةِ وَتَعْظِيمًا لِلْهِمَّةِ - : (فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ) .

٣- ومن أهم الأعمال التي تبلغ المسلم الدرجات العلى ، ولعلها أن تبلغه الفردوس الأعلى برحمة الله:
الجهاد في سبيل الله:

وقد تقدم في ذلك حديث أبي هريرة ﷺ .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (يَا أَبَا سَعِيدٍ ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ . فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ ، فَقَالَ : أَعِدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ ، وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ !! قَالَ : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

والإخلاص والصدق مع الله .

روى مسلم من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ) .

قال النووي رحمه الله : فيه : اسْتِحْبَابُ سُؤْلِ الشَّهَادَةِ ، وَاسْتِحْبَابُ نِيَّةِ الْحَيْرِ " انتهى .
والإيمان بالله والتصديق بالمرسلين :

قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) .

قال السعدي : "يحتمل أن المراد بجنات الفردوس : أعلى الجنة ، وأوسطها ، وأفضلها ، وأن هذا الثواب ، لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح ، والأنبياء والمقربون ، ويحتمل أن يراد بها : جميع منازل الجنان ، فيشمل هذا الثواب ، جميع طبقات أهل الإيمان ، من المقربين ، والأبرار ، والمقتصدین ، كل بحسب حاله ، وهذا أولى المعنيين لعمومه .

٤- الحديث دليل على فضل الشهادة في سبيل الله ، وأن من أسباب دخول الجنان ، وللشهادة فضائل كثيرة :

أولاً : من أسباب دخول الجنة .

كما قال ﷺ (اِتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَأُخْرِجَهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ عَنِيْمَةٍ ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَيَّ مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ، وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ مَتَّفِقٌ عَلَيْهِ .

وقال تعالى (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وعن جابر . قال (قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة ، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل .) متفق عليه

ثانياً : الحياة بعد الاستشهاد مباشرة .

قال تعالى (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) .

وقال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .

ثالثاً : مغفرة الذنوب وتكفير السيئات .

قال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) .

وقال ﷺ (يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إن للشهيد عند الله ست خصال يغفر له عند أول دفعة من دمه ...) رواه الترمذي .

رابعاً : تمحي الرجوع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى بل عشر مرات .

عن أنس . قال : قال ﷺ (ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى وفي رواية : لما يرى من الكرامة) متفق عليه .

خامساً : الشهيد في الفردوس الأعلى .

وعن أنس (أن أم حارثة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر ، أصابه سهم ، فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء ، فقال رسول الله : يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) متفق عليه .

سادساً : الملائكة تظل الشهيد بأجنحتها .

عن جابر قال (جاء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مثل به ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه، فنهاني قومي ، فسمع صوت نائحة، فقيل: ابنة عمرو – أو أخت عمرو – فقال: لم تبكي أو لا تبكي، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها) متفق عليه

سابعاً : الشهداء لا يفتنون في قبورهم :

عن المقداد بن معد يكرب . قال : قال رسول الله ﷺ (للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر) رواه الترمذي .

وقال ﷺ لما سئل لماذا الشهداء لا يسألون في قبورهم ؟ قال : (كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة) رواه النسائي .

قال ابن النحاس: ولا شك بأن من وقف للقتال ورأى السيوف تلمع وتقطع، والأسنة تبرق وتخرق، والسهام ترشق وتمرق، والرؤوس تندر، والدماء تتعب، والأعضاء تتطاير، وجاد بنفسه لله تعالى إيماناً به وتصديقاً بوعده ووعيده، فيكفيه هذا امتحاناً لإيمانه واختباراً له وفتنة، إذ لو كان عنده شك أو ارتياب لولى الدبر، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات، ودخله الشك

والارتباب .

ثامناً : الشهيد لا يشعر بألم القتل .

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة) رواه الترمذي .
قال علي : إن لم تقتلوا تموتوا ، والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش .
قال ابن تيمية : ... وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَمْ يَرِدْ فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ وَفَضْلِهَا مِثْلُ مَا وَرَدَ فِيهِ . وَهُوَ ظَاهِرٌ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ فَإِنَّ نَفْعَ الْجِهَادِ
عَامٌّ لِقَاعِلِهِ وَلِعَبْرِهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَمُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ مِنْ حُبِّهِ اللَّهُ تَعَالَى وَالْإِخْلَاصِ
لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَتَسْلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ لَهُ وَالصَّبْرِ وَالرُّهْدِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ : عَلَى مَا لَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عَمَلٌ آخَرَ .
وَالْقَائِمُ بِهِ مِنْ الشَّخْصِ وَالْأُمَّةِ بِنَنْ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ دَائِمًا . إِمَّا النَّصْرَ وَالطُّفْرَ وَإِمَّا الشَّهَادَةَ وَالْجَنَّةَ . فَإِنَّ الْخُلُقَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَحْيَا
وَمَمَاتٍ فِيهِ اسْتِعْمَالُ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ فِي غَايَةِ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي تَرْكِهِ ذَهَابُ السَّعَادَتَيْنِ أَوْ نَقْصُهُمَا ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ
مَنْ يَرِغِبُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّدِيدَةِ فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا مَعَ قَلَّةِ مَنْفَعَتِهَا فَالْجِهَادُ أَنْفَعُ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ شَدِيدٍ وَقَدْ يَرِغِبُ فِي تَرْفِيهِ
نَفْسِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ الْمَوْتُ ، فَمَوْتُ الشَّهِيدِ أَيْسَرُ مِنْ كُلِّ مَيِّتَةٍ وَهِيَ أَفْضَلُ الْمَيِّتَاتِ .

تاسعاً : دم الشهيد أحب شيء إلى الله .

عن أبي أمامة . قال : قال رسول الله ﷺ (ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع في خشية الله ، وقطرة
دم تحرق في سبيل الله ، وأما الأثران : فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله) رواه الترمذي .

عاشرًا : الشهيد يشفع في أهل بيته .

عن أم الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته) رواه الترمذي .

الحادي عشر : لا يشترط للشهيد أعمال صالحة قبل الشهادة .

عن البراء بن عازب قال (أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد ، فقال : يا رسول الله أقاتل أو أسلم ؟ قال : أسلم ثم قاتل ، فأسلم
ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : عمل قليل وأجر كثير) رواه البخاري .

فائدة : سمي الشهيد بذلك :

قال النووي : قال النضر بن شميل : لأنه حي ، فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار الإسلام وأرواح غيرهم إنما تشهدوا يوم
القيامة .

وقال ابن الأنباري : إن الله تعالى وملائكته عليهم الصلاة والسلام يشهدون له بالجنة .

وقيل : لأنه شهد عند خروج روحه ما أعده الله تعالى له من الثواب والكرامة .

وقيل : لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه .

وقيل : لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله .

وقيل : لأن عليه شاهداً بكونه شهيداً وهو الدم .

٦٥٥١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ (مَا بَيْنَ مَنْكَبِي الْكَافِرِ مَسِيرَةٌ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ) .

[م : ٢٨٥٢] .

(مَا بَيْنَ مَنْكَبِي) بكسر الكاف تننية منكب ، وهو مجتمع العضد والكتف .

١- الحديث دليل على نوع من عذاب أهل النار بالنار ، وهو عظم خلقه .

كما في حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ)
وفي حديث بن عمر عند أحمد من رواية مجاهد عنه مرفوعاً (يعظم أهل النار في النار حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه
مسيرة سبعمئة عام) .

وللبیهقي في البعث من وجه آخر عن مجاهد عن بن عباس (مسيرة سبعين خريفاً) .

ولابن المبارك في الزهد عن أبي هريرة قال (ضرس الكافر يوم القيامة أعظم من أحد يعظمون لتمتليء منهم وليذوقوا العذاب)
وسنده صحيح ولم يصح برفعه ، لكن له حكم الرفع لأنه لا مجال للرأي فيه .

وقد اخرج أوله مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً وزاد (وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام) .

وأخرجه البزار من وجه ثالث عن أبي هريرة بسند صحيح بلفظ (غلظ جلد الكافر وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار).

قال الحافظ : وكأن اختلاف هذه المقادير محمول على اختلاف تعذيب الكفار في النار .

٢- قال النووي : قَوْلُهُ ﷺ (ضِرْسُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ وَمَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ) هَذَا كَلَّهُ لِكَوْنِهِ
أَبْلَغُ فِي إِيْلَامِهِ ، وَكُلُّ هَذَا مَقْدُورٌ لِلَّهِ تَعَالَى يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ لِإِخْبَارِ الصَّادِقِ بِهِ .

وقال القرطبي : قوله (ضرس الكافر ، أو ناب الكافر مثل أحد . . . الحديث) إنما عظم خلقه ليعظم عذابه ، ويتضاعف .

وقال ابن كثير معلقاً على ما أورده من هذه الأحاديث: ليكون ذلك أنكى في تعذيبهم، وأعظم في تعبههم ولهيهم، كما قال
(شديد العقاب) (ليذوقوا العذاب) .

٣- أهل النار ليسوا على درجة واحدة من العذاب، بل هم متفاوتون فيها بحسب أعمالهم، قال تعالى (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رُتُكُ
مُهِلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ* وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُتُكُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) .

قال السعدي: ولكل منهم درجات مما عملوا . بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس
كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الريح والفلاح ودخول الجنة فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله. اهـ

٦٥٥٢- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا) .

[م : ٢٨٢٧] .

٦٥٥٣- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجُودَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِئَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا) .

[م : ٢٨٢٨] .

(لَا يَقْطَعُهَا) أي : لا ينتهي إلى آخر ما يميل من أغصانها .

(الْجُودَادَ) الفرس .

(الْمُضَمَّرَ) الَّذِي ضُمِرَ لِيَسْتَدَّ جَرِيَهُ .

(السَّرِيعَ) فِي جَرِيهِ .

١- الحديث دليل على شيء من نعيم الجنة ، وهو شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها .

ومن شجر الجنة :

شجرة طوبى .

وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة .

ففي مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال (طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج

من أكمامها) .

وسيقان أشجار الجنة من ذهب .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب) رواه الترمذي .

٢ - كيف يكثر المؤمن حظه من أشجار الجنة ؟

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك أن الجنة أرض طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي .

٦٥٥٤ - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ ، أَوْ سَبْعُمِئَةِ أَلْفٍ - لَا يَدْرِي أَبُو حَازِمٍ أَيُّهُمَا قَالَ - مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَا يَدْخُلُ أَوْهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) .

[م : ٢١٩] .

(مُتَمَاسِكُونَ) أي : ممسك بعضهم بيد بعض .

(عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) أي : على صفة القمر ليلة البدر ، يعني أنهم في إشراق وجوههم على صفة القمر .

١- الحديث دليل على أنه سيدخل الجنة من هذه الأمة هذا العدد الكبير ، وقد جاء في الروايات الأخرى (بغير حساب ولا عذاب) ، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون

ففي حديث عمران . قال: قال نبي الله ﷺ (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ) . قَالُوا وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رِجْلَيْهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» . فَقَامَ عُرْكَاشَةُ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ . قَالَ «أَنْتَ مِنْهُمْ» . قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ . قَالَ « سَبَقَكَ بِهَا عُرْكَاشَةُ » .

٢- بيان كرامة النبي ﷺ على ربه ، حيث تفضل الله تعالى على هذه الزمرة من أمته ، فأدخلها الجنة بغير حساب .

٣- فضل هذه الأمة ، حيث يدخل العدد الكثير منهم الجنة بغير حساب .

٤- أن فيه إثبات الحساب في الآخرة على الأعمال .

٥- أن أنوار أهل الجنة تتفاوت بحسب درجاتهم .

٦٥٥٥ - عَنْ سَهْلِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ فِي السَّمَاءِ) . [م : ٢٨٣٠] .

٦٥٥٦ - قَالَ أَبِي فَحَدَّثْتُ النَّعْمَانَ بْنَ أَبِي عِيَّاشٍ فَقَالَ أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ يُحَدِّثُ وَيَزِيدُ فِيهِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَارِبَ فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ وَالْغَرْبِيِّ) .

[م : ٢٨٣١] .

١- معنى الحديث : أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل ، حتى إن أهل الدرجات العليا ليراهم من هو أسفل منهم ، كالنجوم لتفاضل ما بينهم .

وقال القرطبي : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري (يعني : أن أهل السفلى من الجنة

ينظرون إلى من فوقهم على تفاوت منازلهم ، كما ينظر من على الأرض درارقي السماء على تفاوت منازلها . فيقال : هذا منزل فلان ، كما يقال : هذا المشتري مثلاً ، أو الزهرة ، أو المريخ ، وقد بتين ذلك بقوله : لتفاوت ما بينهما ، وسمي الكوكب درياً لبياضه وصفائه ، وقيل : لأنه يشبه بالدري في صفائه .

وفي منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: أي: أنهم يشاهدون عن بعد أهل المنازل العالية في الجنة، كما كانوا يشاهدون في الدنيا الكوكب البعيد في أفق السماء. انتهى.

قال ابن علان في دليل الفالحين: أهل الجنة متفاوتو المنازل بحسب درجاتهم في الفضل، حتى إن أهل الدرجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم، كما قال: لتفاضل ما بينهم ..والغابر.. قال عياض: معناه الذي يبعد الغروب، وقيل: معناه الغائب، ولكن لا يحسن هنا، لأن المراد بعده عن الأرض كبعد غرف أهل الجنة عن بعضها في رأي العين. والرواية الأولى هي المشهورة. ومعنى الغابر: الذهاب. وقد فسره بقوله في الحديث (من المشرق إلى المغرب) .

قال القرطبي: شبه رؤية الرائي في الجنة صاحب الغرفة برؤية الرائي الكوكب المضيء الباقي في جانب الشرق والغرب في الاستضاءة مع البعد، وفائدة ذكر المشرق والمغرب: بيان الرفعة وشدة البعد، والمراد بالأفق: السماء. وفي رواية لمسلم: من الأفق من المشرق والمغرب. انتهى.

وفي حديث أبي سعيد . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءُونَ الْكُوكَبَ الدُّرِّيَّ الْعَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ . قَالَ « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) .

(لتفاضل ما بينهم) أي: لأن أهل الجنة يتفاضلون في مساكنهم، ومنازلهم، ودرجاتهم.

(قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم) الظاهر: أنه سؤال واستفهام، والمعنى: هل تلك المنازل العالية هي منازل الأنبياء التي لا يصل إليها سواهم؟

(قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) أي: أنها ليست خاصة بالأنبياء، ولكنها للصادقين من هذه الأمة المحمدية. انتهى من منار القاري.

قال النووي : وَالْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ فِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ قُرِيءَ بِهِنَّ فِي السَّبْعِ ، الْأَكْثَرُونَ (دُرِّيٌّ) بِضَمِّ الدَّالِّ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ بِلَا هَمْزٍ ، وَالثَّانِيَةُ بِضَمِّ الدَّالِّ مَهْمُوزٌ مَمْدُودٌ ، وَالثَّلَاثَةُ بِكَسْرِ الدَّالِّ مَهْمُوزٌ مَمْدُودٌ ، وَهُوَ الْكَوْكَبُ الْعَظِيمُ ، قِيلَ : سُمِّيَ دُرِّيًّا لِبَيَاضِهِ كَالدُّرِّ ، وَقِيلَ : لِإِصْغَارِهِ ، وَقِيلَ : لِشَبْهِهِ بِالدُّرِّ فِي كَوْنِهِ أَرْفَعَ مِنْ بَاقِي النُّجُومِ كَالدُّرِّ أَرْفَعُ الْجُوَاهِرِ .

وَمَعْنَى الْعَابِرِ : الدَّاهِبُ الْمَاشِي ، أَيْ : الَّذِي تَدَلَّى لِلْغُرُوبِ وَبَعْدَ عَنِ الْعُيُونِ . (نووي) .

٢- الحديث دليل على تفاوت أهل الجنة في الجنة .

فمما لا شك فيه أن أهل الجنة يتفاوتون في النعيم في الجنان ، بحسب درجاتهم فيها ، فليس من يسكن " الفردوس " كمن يسكن في الجنان دونها.

وقد ذكر الله تعالى وصفاً لجنان من خاف مقامه سبحانه وتعالى ، فقال : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ) ، فوصفهما ، ثم قال تعالى : (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ) ، فتبين به اختلاف الجنان بعضها عن بعض بحسب أعمال أهلها ، ومنزلتهم عند ربهم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْعَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ .

وفي رواية : (إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّحْمَ الطَّالِعَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا) رواه الترمذي .

قال القرطبي رحمه الله : اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو ، والصفة ، بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال ، فبعضها أعلى من بعض ، وأرفع .

وقوله (الغائر من المشرق أو المغرب) يروى بالياء اسم فاعل ، من غار ، وروي " الغابر " بالباء بواحدة ، ومعناه الذهاب ، أو الباقي ، ويعني به : أن الكوكب حالة طلوعه ، وغروبه بعيد عن الأبصار ، فيظهر صغيراً لبعده ، وقد بينه بقوله (من المشرق أو المغرب) و قد روي العازب بالعين المهملة والزاي ، أي : البعيد ، ومعانيها كلها متقاربة المعنى . (الغابر) .

٣- قال القرطبي - رحمه الله - قوله (والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) ولم يذكر عملاً ، ولا شيئاً سوى الإيمان ، والتصديق للمرسلين ؛ وذلك ليُعلم أنه عنى الإيمان البالغ ، وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ، ولا تلجج ، وإلا فكيف تُنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة؟! ولو كان كذلك : كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات ، وأرفع الدرجات ، وهذا محال . (التذكرة) .

٤- ليس ثمة حسد في الجنة ولا بغضاء ، وفي ذلك قال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) .
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَوْلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَحِطُونَ وَلَا يَتَعَوَّطُونَ ، آتَيْتُهُمْ فِيهَا الدَّهَبُ ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَجَمَامُهُمُ الْأَلْوَةُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ ، يُرَى مِثْلُ سَوْقَيْهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ ، مِنَ الْحُسْنِ ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا) متفق عليه .

بل تأمل هذا الحديث :

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً ، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَّفَتَّ إِلَيْهَا فَقَالَ : تَبَارَكَ الَّذِي بَجَّانِي مِنْكَ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِينَ وَالْآخِرِينَ) رواه مسلم .
فهذا حال آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة خروجاً من الجنة ، يرى أن نال شيئاً لم ينله أحد من الأولين والآخريين ، وهو لم يدخل الجنة بعد ؛ فكيف إذا دخلها؟!

قال ابن عطية الأندلسي - رحمه الله - وكلُّ مَنْ فِيهَا قد رُزِقَ الرضا بحاله ، وذهب عنه أن يعتقد أنه مفضول ، وإن كنا نحن قد علمنا من الشريعة أن أهل الجنة تختلف مراتبهم ، على قدر أعمالهم ، وعلى قدر فضل الله على من شاء .

٥- من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أنه لا يحرم عبداً من درجته في الجنة فينزله منها إلى درجة دونهما ، لكن يمن على من يشاء من عباده ، فيرفع درجته فيها ، ومن أسباب هذه الرفة:

أولاً : شفاعة الشافعين .

وفي ذلك حديثان :

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : النَّبِيُّ ﷺ : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي عَامِرٍ) - وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ - ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ) متفق عليه .

وأبو عامر هو الأشعري ، وهو عم أبي موسى ، رضي الله عنهما .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصْرُهُ فَأَعْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ : (إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ)

فَضَحَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : (لَا تَدْعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ) ثُمَّ قَالَ (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلْمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْعَابِرِينَ وَاعْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَتَوَزَّرْ لَهُ فِيهِ) رواه مسلم قال ابن القيم رحمه الله :

والنوع الثاني : شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ، ورفعة الدرجات . حاشية ابن القيم على مختصر سنن أبي داود " (١٣ / ٥٦) . واستدل - رحمه الله - على كلامه بالحديثين السابقين .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - في بيان أنواع الشفاعة : النوع الثالث : الشفاعة في رفع درجات المؤمنين ، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أبي سلمة . "... ثانياً : دعاء واستغفار الولد لوالده .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ الرَّجُلَ لَتَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَنِّي هَذَا فَيُقَالُ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ) . رواه ابن ماجه ثالثاً : إلحاق الآباء بدرجة الأبناء والعكس .

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) . وعن ابن عباس قال (إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه) وهو أثر صحيح له حكم الرفع . قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله :

قال عز وجل : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) ، الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان ، والذرية التي يكون إيمانها تبعاً : هي الذرية الصغار ، فيقول الله عز وجل : (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) أي : جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم . وأما الكبار الذين تزوجوا : فهم مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة ، لا يلحقون بأبائهم ؛ لأن لهم ذرية ، فهم في مقرهم ، أما الذرية الصغار التابعون لأبائهم : فإنهم يرقون إلى آبائهم ، هذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء ، ولهذا قال : (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) ، (أَلَتْنَاهُمْ) يعني : نقصناهم ، يعني : أن ذريتهم تلحق بهم ، ولا يقال أحصم من درجات الآباء بقدر ما رفعتهم درجات الذرية ، بل يقول : (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) .

٦٥٥٧- عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي) .

[م : ٢٨٠٥] .

(فَيَقُولُ أَرَدْتُ مِنْكَ) المراد أَرَدْتُ فِي الرَّوَايَةِ الْأُولَى : طَلَبْتُ مِنْكَ وَأَمَرْتُكَ ، وَقَدْ أَوْضَحَهُ فِي الرَّوَايَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ بِقَوْلِهِ : (قَدْ سُئِلْتُ أَيُّسَرُ) فَيَتَعَيَّنُ تَأْوِيلُ (أَرَدْتُ) عَلَى ذَلِكَ جَمْعًا بَيْنَ الرَّوَايَاتِ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ أَنْ يُرِيدَ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا فَلَا يَقَعُ .

١- الحديث دليل على أن الله قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم بعدم الشرك .

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

وقد اختلف العلماء في هذا الميثاق على قولين :

فذهبت جماعة من المفسرين إلى أن مَعْنَى أَخَذَهُمْ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ هُوَ وَجُودُهُمْ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلاً بَعْدَ جِيلٍ ، عَلَى طَرِيقِ التَّنَاسُلِ .

والمعنى: أنّ الله خلق بني آدم وخلق من هؤلاء ذرية، فينقضني هذا القرن ويخلق من هذا القرن ذرية كما قال (كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخِرِينَ) .

وعلى هذا القول فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النطف من أصلابهم على طريق التناسل قرناً بعد قرن.

وعلى هذا القول فقوله (وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ) أي: أشهدهم على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال .

لأن الله نصب لهم من الأدلة الواضحة الظاهرة على كمال قدرته وأنه المعبود وحده ما لا يُحتاج معه إلى شيء (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) يعني: أثبت لهم ربوبيته واستحقاقه للعبادة بما ركز فيهم من الفطرة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة، وعلى هذا القول فقوله (قَالُوا بَلَى) قالوا ذلك أيضاً بلسان حالهم .

قالوا: الدليل على أنّ هذا هو المراد أن الله لم يخلق أحداً من بني آدم ذاكراً الميثاق ليلة الميثاق وهم كالذر، وما لا يذكره الإنسان لا يكون حجة عليه، وهذا كأنه جعل حجة مستقلة عليه .

القول الثاني: وعليه أكثر المتقدمين من السلف، وهو الذي يدل له بعض الأحاديث الصحيحة، والقرآن قد يُرشد إليه: أنه هو الأخذ يوم الميثاق المعروف، أن الله تبارك وتعالى أخذ من ظهر آدم ومن ظهور ذرياته كل نسمة سبق في علمه أنها مخلوقة إلى يوم القيامة فأخذهم بيده (جلّ وعلا) بعضهم للحنة وبعضهم للنار، وجعل فيهم إدراكاً وقال لهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فقالوا: بلى. إلا أن هذا العهد لا يولد أحد إلا وهو ناسٍ له، والله (جلّ وعلا) أرسل الرسل يُذكرون بهذا العهد، وما ثبت عن الرسل هو وما حضره الإنسان في التحقيق واحد؛ لأن ما قاله رسول الله ﷺ نحن نجزم بوقوعه أشد مما نجزم بما شاهدناه ولاحظناه وتذكرنا وهذا القول قال به كثير من السلف .

ودلت عليه أحاديث كثيرة من أصحها حديث الباب .

فهذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث أنس، وقد ذكر فيه النبي ﷺ أن عدم الإشراك أُخذ عليهم وهم في ظهر آدم، فدل ذلك على أن قوله (وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) أنه استخراج الله لهم، وإشهاده عليهم، ثم ردهم في ظهر أبيهم آدم. ومما يدل على هذا: أن الذين قالوا: إن معنى أخذهم من ظهورهم: هو تناسلهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، أنهم جعلوا ما ركب فيهم من الفطرة السليمة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة القطعية كافياً في قيام الحجة عليهم، والقرآن يدل على عدم صحة هذا القول؛ لأن القرآن العظيم - وهو كلام رب العالمين - دل على أنه لا يُقطع عذر أحد بنصب الأدلة، وتركيز الفطرة، وخلق العقول؛ بل لا ينقطع عذر بني آدم إلا بإرسال الرسل في دار الدنيا، إنذارهم مؤيدين بالمعجزات .

ولذا قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) ولم يقل: حتى نُخلق عقولاً ونركز أدلة وننصب فطرة. لم يقل شيئاً من هذا.

وقال جل وعلا (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) فبين أن حجة الناس لا يقطعها إلا إعدار الرسل وإنذارهم له.

إذاً: عندنا في الميثاق قولان :

القول الأول: ما جاء في حديث ابن عباس من أن الله أخذ على الناس الميثاق في عالم الذر فقال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ، وهذا القول اختاره شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، ونسبه ابن القيم إلى جماعة وطائفة من السلف والخلف.

القول الثاني: الذي اختاره شيخ الإسلام رحمه الله وابن القيم وابن كثير في تفسيره من أن الميثاق هو ميثاق الفطرة لضعف حديث ابن عباس؛ ولأن الآية ليس فيها ما يدل على ذلك .

٦٥٥٨- عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ كَأَنَّهُمْ التَّعَارِيرُ قُلْتُ مَا التَّعَارِيرُ قَالَ الضَّغَائِيسُ ، وَكَانَ قَدْ سَقَطَ فَمَهُ فَقُلْتُ لِعَمْرُو بْنِ دِينَارٍ أبا مُحَمَّدٍ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ يَخْرُجُ بِالشَّفَاعَةِ مِنَ النَّارِ قَالَ نَعَمْ) .

(يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ) كذا للأكثر من رواة البخاري بحذف الفاعل وثبت في رواية أبي ذر عن السرخسي عن الفريري (يخرج قوم) وكذا للبيهقي في البعث من طريق يعقوب بن سفيان عن أبي النعمان شيخ البخاري فيه وكذا لمسلم عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد ولفظه (إن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة) وله من رواية سفيان بن عيينة عن عمرو سمع جابر مثله لكن قال (ناس من النار فيدخلهم الجنة) .

كَأَنَّهُمْ التَّعَارِيرُ قُلْتُ مَا التَّعَارِيرُ قَالَ الضَّغَائِيسُ) قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - أما التعارير فقال ابن الأعرابي : هي قنات صغار ، وقال أبو عبيدة مثله .

والمقصود : الوصف بالبياض والدقة .

وأما الضغائيس : فقال الأصمعي : شيء ينبت في أصول الثمام يشبه الهليون يسلق ثم يؤكل بالزيت والخل .

وقيل ينبت في أصول الشجر وفي الإذخر يخرج قدر شبر في دقة الأصابع لا ورق له وفيه حموضة .

وفي غريب الحديث للحري : الضغوس شجرة على طول الإصبع ، وشبه به الرجل الضعيف .

١-الحديث دليل على إثبات الشفاعة .

وقد قسم العلماء رحمهم الله الشفاعة إلى أقسام :

أولاً : الشفاعة العظمى :

وهي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيّد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممّ ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين

في صعيد واحد يسمعون الداعي ، وينفذهم البصر ، فتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، فيقول الناس :

ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ ... ثم ذكر الحديث ، فيأتون آدم ... ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى

ثم عيسى ... وكلهم يردّها إلى الآخر ، حتى يأتون إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر

الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنتطلق ، فأتي تحت العرش ، فأقع ساجداً

لربي عز وجل ، ثم يفتح لي على محامده ، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ،

وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمّي يا رب أمّي يا رب ...) . متفق عليه

ثانياً : شفاعته صلى الله عليه وسلم بدخول أهل الجنة الجنة :

وهذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن أهل الجنة إذا عبروا الصراط ، أوقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فتمحص قلوب بعضهم من

بعض حتى يهدبوا وينقوا ، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة ، فتفتح أبواب الجنة بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

عن أبي هريرة وحذيفة . رضي الله عنهما . قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُرثق

[أي تقرب] لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ... فذكر الحديث وفيه : فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقوم فيؤذن

له ...) رواه مسلم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (آتي باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ،

فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك) رواه مسلم .

ثالثاً : شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب للتخفيف عنه من عذاب النار :

عن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبي ﷺ : (ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) . متفق عليه

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع النبي ﷺ وقد ذكر عنده عمه فقال : (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه دماغه) . متفق عليه

■ هذان الحديثان يدلان على أن أبا طالب مات كافراً ، إذ لو كان مسلماً لخرج من النار مع الموحدين ، كما تواترت الأحاديث بخروج الموحدين من النار . [وسيأتي إن شاء الله ذكر بعض هذه الأحاديث]

رابعاً : الشفاعة في خروج الموحدين من النار :

الأحاديث الدالة على خروج الموحدين من النار متواترة ، وقد اتفق عليها أهل السنة والجماعة .

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) . متفق عليه

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً) . رواه مسلم

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال : (يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل ما إيمان ، فيخرجون منها وقد اسودوا ، فيلقون في نهر الحيا . أو الحياة . فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ...) . متفق عليه

وهذه الشفاعة ينكرها من أهل البدع طائفتان : المعتزلة والخوارج ، لأن المعتزلة والخوارج مذهبهما في فاعل الكبيرة أنه مخلد في النار ، فيرون من زنى كمن أشرك بالله ، لا تنفعه الشفاعة ولن يأذن الله لأحد بالشفاعة له .

وقولهم مردود بما تواترت به الأحاديث في ذلك كما سبق .

وهذه الشفاعة لبينا ولسائر النبيين والصدّيقين وغيرهم .

خامساً : الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها :

وقد يستدل لها بقول النبي ﷺ : (ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعين رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه) رواه مسلم

سادساً : الشفاعة في رفع درجات بعض أهل الجنة :

وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض ، كما قال النبي ﷺ لأبي سلمة : (اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، وافسح له في قبره ونور له فيه ، واخلفه في عقبه) . رواه مسلم

سابعاً : شفاعته ﷺ في دخول بعض المؤمنين الجنة بلا حساب ولا عذاب :

كشفاعته ﷺ في عكاشة بن محصن ﷺ ، حيث دعا له النبي ﷺ أن يكون من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .

٢- أسباب الشفاعة :

أولاً : القرآن الكريم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهي : تبارك الذي بيده الملك) . رواه الترمذي ، وقال حديث حسن ، ورواه أبو داود

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اقروا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) . رواه مسلم
ثانياً / سكنى المدينة والموت بها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحدٌ من أمّتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنني أشفع لمن يموت بها) رواه الترمذي
ثالثاً / الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب الوسيلة له .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنهما . أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) رواه مسلم .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قال حين يسمع النداء : اللهم ربّ هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة) رواه البخاري .
المسلم الذي لا تقبل شفاعته :

عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن اللعائن لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة) . رواه مسلم
٦٥٥٩ - عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يُخْرَجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَسْمِيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ) .

١- الحديث دليل على خروج الموحدين من النار بعد دخولهم النار .

٢- وقد أعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم عن صفات هؤلاء بعد خروجهم من النار ، ومن ذلك:

أولاً : أنهم يُلقون في (نهر الحياة) ويُبتون من جديد .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ : مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيَخْرُجُونَ ، قَدْ امْتَحَشُوا ، وَعَادُوا حُمًّا ، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ) .

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً) متفق عليه .

(امتحشوا) : أي : احترقوا ، والمحش : احتراق الجلد ، وظهور العظم . انظر : " النهاية في غريب الحديث " (٤ / ٣٠٢) .

(حُمًّا) : أي : صاروا سود الأجساد كالحمم ، وهو الفحم . انظر : " النهاية في غريب الحديث " (١ / ٤٤٤) .

(الحبة) بكسر الحاء ، وهي بزر البقول والعشب ، تنبت في البراري وجوانب السيول .

(حميل السيل) بفتح الحاء وكسر الميم ، وهو ما جاء به السيل من طين أو غناء ومعناه : محمول السيل ، والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته .

ثانياً : ويبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن حالهم سيتغير بعد خروجهم من النار .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ - عَنْ الْجَهَنَّمِيِّينَ - أَنَّهُمْ (يُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا ، فَيَخْرُجُونَ

كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّماسِمِ ، فَيَدْخُلُونَ نَهْرًا مِنْ أَنهَارِ الْجَنَّةِ فَيَعْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاتِيسُ (رواه مسلم . قال النووي : قوله (فيخرجون كأنهم عيدان السماسم) هو بالسينين المهملتين : الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة ، وهو جمع سمسم ، وهو هذا السمسم المعروف الذي يستخرج منه الشيرج ، قال الإمام أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير - رحمه الله تعالى - : معناه - والله أعلم - أن السماسم جمع سمسم ، وعيدانه تراها إذا قلعت وتركت في الشمس ليؤخذ حبها دقاقا سودا كأها محترقة ، فشبه بها هؤلاء .

قوله : (فيخرجون كأنهم القراطيس) القراطيس : جمع قرطاس بكسر القاف وضمها لغتان ، وهو : الصحيفة التي يكتب فيها ، شبههم بالقراطيس لشدة بياضهم بعد اغتسالهم وزوال ما كان عليهم من السواد .

وفي رواية البخاري (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ كَأَنَّهُمُ التَّعَارِيرُ ، قُلْتُ : مَا التَّعَارِيرُ ؟ قَالَ : الصَّعَائِيسُ) .

● تنبيه : هذا التشبيه لصفته بعد أن ينبتوا ، وأما في أول خروجهم من النار فإنهم يكونون كالفحم كما سيأتي في الحديث الذي بعده .

ثالثاً : أنهم يصير الواحد منهم مثل اللؤلؤة ، ويحل الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (... فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : شَفَعْتَ الْمَلَائِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ " نَهْرُ الْحَيَاةِ " فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ ... قَالَ : فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِعَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ، ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَيَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ، فَيَقُولُ : رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا) متفق عليه .

وهو حديث عظيم يبين فيه النبي ﷺ عظيم حال الخارجين من النار ، في كرامات يهبها لهم ربهم تعالى فضلاً منه وكرماً ، ومنها :

أ. الإلقاء في نهر الحياة ، والإنبات من جديد .

ب. يخرجون من النهر كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم .

ج. يعطيهم كل ما يجدونه مما يرونه في الجنة .

د. يظنون ، من تمنعهم وبلوغهم الغاية من السرور والحبور ، أن الله تعالى أكرمهم بما لم يكرم به غيرهم .

هـ. يحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

ويؤكد كرامة الله تعالى لمن دخل الجنة من هؤلاء :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا ، رَجُلًا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبُورًا فَيَقُولُ اللَّهُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا فَيُحَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى ، فَيَقُولُ : ذَهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا فَيُحَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى ، فَيَقُولُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ : إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ : تَسَخَّرُ مِنِّي - أَوْ : تَضْحَكُ مِنِّي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، وَكَانَ يَقُولُ : ذَاكَ أَذَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ) متفق عليه .

رابعاً : أنه يُطلق عليهم اسم (الجهنميين) و (عتقاء الجبار) ، ثم يُرفع عنهم هذا الاسم .

والجهنميون : جمع جهنمي ، نسبة إلى جهنم ، والمراد : أن الله أعتقهم من جهنم .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ

الْجَهَنَّمِيِّينَ) وعند أحمد من حديث أنس . أيضا . : (... فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ : هَؤُلَاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ !! فَيَقُولُ الْجَبَّارُ : بَلْ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الْجَبَّارِ عَزَّ وَجَلَّ) صححه ابن مندة في " الإيمان ، وابن خزيمة .

وعند ابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (... فيسمون في الجنة " الجهنميين " من أجل سواد في وجوههم ، فيقولون : ربنا أذهب عنا هذا الاسم ، قال : فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك منهم) .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن غمسة واحدة في الجنة تُنسي المسلم كل بؤس عاشه في الدنيا ، فكيف بمن تكون الجنة مستقره وداره؟! ولا يبعد أن يشمل هذا البؤس الذي عاناه المسلم عندما كان في النار .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْعَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَصْبَعُ صَبْعَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) رواه مسلم .

ومما يدل على أن الغمس في نعيم الجنة ، يذهب كل بؤس سبقه ، حتى بؤس العذاب في النار، إضافة إلى ما ذكرناه من تغير هياكلهم وأحوالهم بعد الإلقاء في نهر الحياة ، ما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ لَا تَبَلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْتَى شَبَابُهُ) .

وهذا النعيم المؤكد بنفي البؤس عمن يدخل الجنة ، عام في كل من يدخلها ، سواء دخل النار قبلها ، أو لم يدخل .

قال القاضي: معناه أن الجنة دار الثبات والقرار، وأن التغير لا يتطرق إليها؛ فلا يشوب نعيمها بؤس، ولا يعتره فساد ولا تغيير . ولأجل ذلك كله ، حكى الله تعالى عن حال أهل الجنة إذا دخلوها : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَمَسٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) .

قال الشيخ السعدي رحمه الله : أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدورتها ، وذلك الإحلال (مِنْ فَضْلِهِ) علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَمَسٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) { أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى ، ولا في كثرة التمتع ، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة ، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن .

٦٥٦- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ قَدِ امْتَحَشُوا وَعَادُوا حُمَمًا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ ، أَوْ قَالَ - حَمِيَّةِ السَّيْلِ وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً) .

[م : ١٨٤] .

١- الحديث تقدم شرحه ، وقوله (فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ) أي : مقدار حبة ، (من خردل) نبات معروف يُشَبَّه به الشيء القليل البليغ في القلة .

(فَيُخْرِجُونَ قَدِ امْتَحَشُوا) أي : احترقوا (وَعَادُوا حُمَمًا) وهو الفحم .

٢- والحديث دليل على إثبات الشفاعة .

٣- وهو رد على الخوارج القائلين بكفر أهل الكباير .

٤- وهو رد على المرجئة حيث دل على دخول طائفة من عصاة المؤمنين النار .

٥- وفيه بيان تفاضل أهل الإيمان في الأعمال .

٦٥٦١- عن النُّعْمَانِ ، قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ) .

[م : ٢١٣] .

٦٥٦٢- عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجَلُ وَالْقَمَقْمُ) .

[م : ٢١٣] .

(إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وعند مسلم من حديث ابن عباس (أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ...) .

(لَرَجُلٌ تُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ) بخاء معجمة وصاد مهملة - وزن أحم - ما لا يصل إلى الأرض من باطن القدم عند المشي .

١- الحديث دليل على تفاوت أهل النار في عذابهم .

كما قال تعالى (إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) .

وقال تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) .

ولحديث الباب .

وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوتِهِ) رواه مسلم .

قال القرطبي : هذا الباب يدل على أن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأننا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وقتك فيهم وأفسد في الأرض وكفر، مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا ترى أبا طالب كيف أخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى ضحضاح لنصرته إياه، وذبه عنه وإحسانه إليه؟ وحديث مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين .

وقال ابن رجب : واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار، ثم ساق الأدلة الدالة على ذلك، وساق قول ابن عباس: ليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك. ثم قال ابن رجب: وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أهل الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخرى له أو بما شاء الله من الأسباب، ولهذا يموت بعضهم في النار .

٢- في الحديث دليل على أن أبا طالب مات على الشرك .

٣- الرد على الرافضة في قولهم في إسلام أبي طالب .

قال الحافظ ابن حجر : ووقفت على جزء جمعه بعض أهل الرفض أكثر فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب ولا يثبت من ذلك شيء .

٤- أن الكافر إذا مات على كفره لا ينفعه عمله في الآخرة ، لأن من شروط قبول العمل الإيمان .

- وأما تخفيف العذاب عن أبي طالب ، فليس من أجل عمله ، بل بسبب شفاعته ﷺ ، ولذلك في الحديث (ولولا أنا [أي شفاعته] لكان في الدرك الأسفل من النار) وكل ذلك كرامة للنبي ﷺ أكرمه ربه تبارك وتعالى .
- ٥- أن مات على الشرك لا تنفعه الشفاعة كما قال تعالى (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) .
- ٦- قوله (يبلغ كعبيه) قال الحافظ : قال السهيلي : الحكمة فيه أن أبا طالب كان تابعا لرسول الله ﷺ بجملته ، إلا أنه استمر ثابت القدم على دين قومه ، فسلط العذاب على قدميه خاصة ، كذا قال ، ولا يخلو من نظر .
- ٧- أن عذاب النار متفاوت ، كما أن نعيم الجنة متفاوت .
- ٨- قال الحافظ ابن حجر : من عجائب الاتفاق أن الذين أدركهم الإسلام من أعمام النبي ﷺ أربعة : لم يسلم منهم اثنان ، وأسلم اثنان ، وكان اسم من لم يسلم ينافي أسامي المسلمين ، وهما أبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب واسمه عبد العزى ، بخلاف من أسلم وهما حمزة والعباس .
- ٩- بيان أهون أهل النار عذاباً .
- ١٠- الحرص على نفع ذوي الأرحام ولو كانوا من الكفار .

فائدة :

قال ابن كثير : وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله ﷺ من الحماية ، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ولا يحترمونه ولأجترؤوا عليه ، ولمدوا أيديهم وألستهم بالسوء إليه .

٦٥٦٣- عَنْ عَبْدِ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) .

[م : ١٠١٦] .

(اتَّقُوا النَّارَ) أي : اجعلوا بينكم وبينها وقاية بالعمل الصالح .

(وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) أي : ولو تتصدقوا بنصف تمرة .

١- الحديث دليل على وجوب اتقاء النار ، وذلك بفعل الأسباب التي تنجي من النار ، وقد تقدم شرح الحديث .

٦٥٦٤- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمَّ دِمَاحِهِ) .

[م : ٢١٠] .

(فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ) الضحضاح ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين .

١- الحديث دليل على أن أباطال مات على الكفر ، ففيه الرد على من قال بإسلامه ، وبدل على أنه مات مشركاً :

أ- حديث الباب .

ب- عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (هَلْ نَفَعَتْ أَبَا طَالِبٍ بِشْيٍ) فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَعُضُّبُ لَكَ قَالَ « نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) وفي رواية [نَعَمْ وَحَدَّثُهُ فِي عَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ] .

هذان الحديثان يدلان على أن أبا طالب مات كافراً ، إذ لو كان مسلماً لخرج من النار مع الموحدين ، كما توترت الأحاديث بخروج الموحدين من النار .

ج- عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمِيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَمَّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَزَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْضُضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمْتُهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَعْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْتَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .

د- عن علي ﷺ قال : (لما توفي أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت : إن عمك الشيخ الضال قد مات ، قال : اذهب فواره ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني ، فقال : إنه مات مشركاً ، قال : اذهب فواره ...) . رواه أحمد وأبو داود
قال الحافظ ابن حجر : ووقفت على جزء جمعه بعض أهل الرفض ، أكثر فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب ، ولا يثبت من ذلك شيء .

قال النووي في شرحه لمسلم : وكانت وفاة أبي طالب بمكة ، قبل الهجرة بقليل ، قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً ، وتفتت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام .

● فإن قيل : ما الجواب عن قوله تعالى (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) فإن هذه الآية فيها أن المشرك لا تنفعه الشفاعة ؟ فالجواب من وجوه :

الجواب الأول : أن الآية مخصصة بالأحاديث المثبتة انتفاع أبي طالب بالشفاعة .

ومن قال بهذا القول : البيهقي ، وابن حجر .

قال ابن حجر : استشكل قوله ﷺ (تنفعه شفاعتي) بقوله تعالى (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) وأجيب بأنه خص ، ولذلك عدوه في خصائص النبي ﷺ .

الجواب الثاني : أن معنى المنفعة في الآية يختلف عن معنى المنفعة في الحديث ، فالمراد بها منفعة أخرى ، وهي التخفيف من العذاب .

ومن قال بهذا القول : ابن تيمية ، وأحمد القرطبي ، وابن كثير ، وابن أبي العز .

قال ابن أبي العز : النَّوْعُ السَّادِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ عَذَابُهُ. ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي التَّذَكِيرَةِ بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا النَّوْعِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) .

قِيلَ لَهُ: لَا تَنْفَعُهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَنْفَعُ عَصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ. (شرح الطحاوية) .

٢- الحديث دليل على تفاوت أهل النار في العذاب .

٣- الحديث دليل على أن الإيمان شرط لقبول العمل .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ : لَا يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ يَوْمًا رَبِّ اعْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) .

قال النووي : معنى الحديث أن ما كان يفعل من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة ، لكونه كافراً ، وهو معنى

قوله ﷺ : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ، أي لم يكن مصدقاً بالبعث ، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل . [وقد سبق البحث في أعمال الكافر في حديث : (أسلمت على ما أسلفت عليه) .

٦٥٦٥- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَيَقُولُ - انْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ - انْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ - انْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ - انْتُوا عِيسَى فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ انْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونَ فَيَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَإِذَا رَأَيْتَهُ وَقَعْتَ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ نَعَطَهُ وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعْ تَشْفَعُ فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِي ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ ، أَوْ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ) .
وَكَانَ قِتَادَةً يَقُولُ عِنْدَ هَذَا أَيُّ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ .

[م : ١٩٣] .

(يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وقع في رواية معبد بن هلال (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض) وأول حديث أبي هريرة (أنا سيد الناس يوم القيامة يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون) .
(فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا) أي : طلبنا الشفاعة .
(عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا) بضم أوله من الإراحة .
(مِنْ مَكَانِنَا) وفي حديث بن مسعود عند بن حبان (إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتى يقول يا رب أرحني ولو إلى النار)

وفي رواية ثابت عن أنس (يطول يوم القيامة على الناس فيقول بعضهم لبعض انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر فليشفع لنا إلى ربنا فليقبض بيننا) .

(فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ اللَّهُ بِيَدِهِ) فيه إثبات صفة اليد لله تعالى .

(وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ) الإضافة فيه إضافة تشريف ، كما بيت الله ، وناقاة الله .

(نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ) وفي رواية هشام (أول رسول الله بعثه الله إلى أهل الأرض) .

١- أن الرسول ﷺ سيد البشر وأفضل المرسلين .

وجاء عند الترمذي (أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر) .

ومن فضائله وخصائصه ﷺ :

○ أنه أعطي الشفاعة العظيمة .

(وهي المقام المحمود كما في حديث الباب وهي شفاعته في الفصل بين الناس) .

○ وعبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر :

كما في الرواية الأخرى (وَلَكِنْ انْتُوا عِيسَى رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ . فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ . وَلَكِنْ انْتُوا

مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ) .

ومن خصائصه وفضائله :

- قوله ﷺ (أنا أول شافع ، وأول مشفع) رواه مسلم .
- قوله ﷺ (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن) رواه مسلم .
- قوله ﷺ (وأرسلت إلى الناس كافة) متفق عليه .
- قوله ﷺ (وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي) متفق عليه .
- قوله ﷺ (ونصرت بالرعب مسيرة شهر) متفق عليه .
- قوله ﷺ (وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) .
- قوله ﷺ (وأعطيت جوامع الكلم ، وختم بي النبيون) رواه مسلم .
- قوله ﷺ (وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش) رواه النسائي .
- قوله ﷺ (أعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد ، وجعلت أمتي خير الأمم) رواه أحمد .
- قوله ﷺ (وأعطيت الكوثر ، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فما دونه) رواه البزار .
- قوله ﷺ (كان شيطاني كافراً فأعاني الله عليه فأسلم) رواه البزار . [فتح الباري]
- أن معجزة كل نبي تضرمت وانقرضت ، ومعجزة سيد الأولين والآخرين وهي القرآن العظيم باقية إلى يوم الدين .
- يدخل من أمته سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب .

٢- أن يوم القيامة يوم شديد رهيب ، أهواله كبيرة . ولذلك وصفه الله بأوصاف كثيرة :

يوم الفرار .

قال تعالى (يَوْمَ يَنْفِرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُثْمِهِ وَأَبِيهِ) .

يوم التغابن .

قال تعالى (ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) .

سمي بذلك : لأنه يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان .

يوم الجمع .

قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ) .

سمي بذلك : لأن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد .

يوم تكشف فيه صحائف الأعمال .

قال تعالى (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) .

يوم الدين .

قال تعالى (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) .

أي يوم الجزاء والحساب .

يوم الفصل .

قال تعالى (إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) .

سمي بذلك : لأن الله يفصل فيه بين الخلائق .

يوم الوعيد .

قال تعالى (وَتُفَجَّحُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) .

يوم عقيم .

قال تعالى (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ) .

سمي بذلك : لأنه لا يوم بعده .

فائدة : أسباب النجاة من أهوال يوم القيامة :

منها : التنفيس عن المسلمين .

لحديث الباب (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب القيامة) .

ومنها : إنظار المعسر أو الوضع عنه .

قال ﷺ (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسر أو يضع عنه) . رواه مسلم

ومنها : الوفاء بالنذر ، وإطعام الطعام لله .

قال تعالى (يُؤْفُونَ بِاللَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا)

٣- في الحديث فضائل آدم ، وهي :

أبو البشر - خلقه الله بيده - نفخ الله فيه من روحه - أسجد له ملائكته - علمه أسماء كل شيء .

٤- أن الأنبياء المذكورين بالحديث هم أولوا العزم من الرسل . وقد ذكرهم الله في موضعين من كتابه :

الموضع الأول / في سورة الأحزاب .

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) .

الموضع الثاني / في سورة الشورى .

قال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

خامساً : أن نوحاً أول الرسل .

لقوله (فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ! أنت أول الرسل إلى الأرض) .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) .

٥- الحكمة في إلهام الناس أن يسألوا أولاً آدم ومن بعده من الرسل ، ولم يلهموا سؤال نبينا محمد ﷺ من أول مرة ؟

قال النووي : إظهار فضيلة نبينا محمد ﷺ ، فإنهم لو سألوه ابتداءً لكان يحتل أن غيره يقدر على هذا ويحصله ، وأما إذا سألوا

غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة وكمال القرب وعظيم

الإدلال والأنس .

٦- إثبات الشفاعة العظمى للنبي ﷺ .

٧- يجب الإيمان أنه لا يقضى بين الناس يوم القيامة إلا بشفاعة النبي ﷺ .

٨- فضل منزلة العبودية ، فقد جاء في رواية (قال عيسى : اذهبوا إلى محمد عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) .

وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أعلى المقامات :

- في مقام الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ..) .
- وفي مقام التحدي (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) .
- وفي مقام الدعوة (وأنه لما قام عبد الله يدعوه ..) .
- وصفه بالعبودية في هذا المقام العظيم لأسباب :
- أولاً : لمعرفة فضل وشرف أن يكون الإنسان عبداً لله .
- ثانياً : أن أعظم صفات الرسل هي عبوديتهم لله .
- ثالثاً : ليجتهد الإنسان ليكون عبداً لله ليصلك للمراتب العالية عند الله .
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه .

٩- إثبات الشفاعة في الموقف وهذه متفق عليها .

١٠- إثبات صفة اليد .

١١- إثبات الكلام لله .

١٢- تقديم ذوي الإنسان من الآباء على الأبناء .

١٣- فضيلة أينا دم .

١٤- رحمة النبي بجميع الأمم .

١٥- فضيلة نوح ، ومن فضائل نوح :

ثناء الله عليه .

كما قال تعالى (إنه كان عبداً شكوراً) .

أول رسول للبشر .

لحديث الباب (... فيأتون نوحاً فيقولون أنت أول رسول إلى البشر ، وسمك الله عبداً شكوراً) .

أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب .

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) .

وقال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب .

قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) .

١٦- جواز المعاريض .

١٧- فضيلة عيسى بن مريم .

١٨- الرد على النصارى .

١٩- عظمة الله وإجلاله .

٢٠- مشروعية الثناء على الله .

٢١- فضل السجود وفي الحديث (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) .

٢٢- أن الله يفتح على عباده بالثناء عليه .

- ٢٣- الثناء على الله قبل الدعاء .
 ٢٤- استحباب الشفاعة .
 ٢٥- الإيمان بالجنة والنار .
 ٢٦- جواز الحلف من غير استحلاف .
 ٢٧- إثبات العرش .

٦٥٦٦- عن عُمَرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ) .

 الحديث تقدم شرحه .

٦٥٦٧- عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ غَرْبٌ سَهْمٍ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتُ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ لَهَا هَبْلَتْ أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ إِنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى) .

 الحديث تقدم شرحه .

٦٥٦٨- وَقَالَ (غَدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ ، أَوْ مَوْضِعٌ قَدِمَ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا وَلَنَصِيفُهَا ، يَعْنِي الْحِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

(لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا) أي : ما بيّنَ المشرق والمغرب ، أو ما بيّنَ السماء والأرض ، وما بيّنَ الجنة والأرض وهو الأظهرُ لِتَحَقُّقِ ذِكْرِهِمَا فِي الْعِبَارَةِ صَرِيحًا قَالَهُ الْقَارِي ، وقع في حديث سعيد بن عامر الجمحي عند البزار بلفظ (تشرف على الأرض لذهب ضوء الشمس والقمر) .

(وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا) أي : طيبة وفي حديث سعيد بن عامر المذكور (ملأت الأرض ريح مسك) وفي حديث أبي سعيد عند احمد وصححه بن حبان (وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب) .

١- الحديث دليل على حقارة الدنيا ، حيث أن هذه الأعمال الصالحة ، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها :
 الأولى : (غَدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

قال النووي (الغدوة) : بفتح العين : السيرُ أوّلَ النَّهَارِ إِلَى الزَّوَالِ ، وَ (الرُّوحَةُ) السيرُ مِنَ الزَّوَالِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ .
 (أَوْ) هُنَا لِلتَّفْسِيرِ لَا لِلتَّنْكِيسِ .

وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الرُّوحَةَ يَحْضُلُ بِهَا هَذَا الثَّوَابُ ، وَكَذَا الْغَدَوَةُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِالْعُدُوِّ وَالرَّوْحِ مِنْ بَلَدَتِهِ ، بَلْ يَحْضُلُ هَذَا الثَّوَابُ بِكُلِّ غَدَوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْعَزْوِ ، وَكَذَا بَعْدَوَةُ وَرَوْحَةُ فِي مَوْضِعِ الْقِتَالِ ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ يُسَمَّى غَدَوَةً وَرَوْحَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ : أَنَّ فَضْلَ الْغَدَوَةِ وَالرَّوْحَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَثَوَابَهُمَا خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَوْ مَلَكَهَا الْإِنْسَانُ ، وَتَصَوَّرَ تَنَعُّمَهُ بِهَا كُلِّهَا ؛ لِأَنَّهُ زَائِلٌ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ بَاقٍ ، قَالَ الْقَاضِي : وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ وَمَعْنَى نَظَائِرِهِ مِنْ تَمَثِيلِ أُمُورِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا بِأُمُورِ

الدُّنْيَا : أَنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ مَلَكَهَا إِنْسَانٌ ، وَمَلَكَ جَمِيعَ مَا فِيهَا وَأَنْفَقَهُ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ ، قَالَ هَذَا الْقَائِلُ : وَلَيْسَ تَمْثِيلُ الْبَاقِي بِالْقَائِلِ عَلَى ظَاهِرِ إِطْلَاقِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . (شرح مسلم) .

وقيل المعنى : أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة الله تعالى . قال ابن حجر : قال بن دقيق العيد يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقاً له في النفس لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع فلذلك وقعت المفاضلة بها ، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة .

والثاني : أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة الله تعالى .

قلت : ويؤيد هذا الثاني ما رواه ابن المبارك في كتاب الجهاد من مرسل الحسن قال (بعث رسول الله ﷺ جيشاً فيهم عبد الله بن رواحة فتأخر ليشهد الصلاة مع النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ والذي نفسي بيده لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم).

الثاني : قوله (وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ ، أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

(ولقب قوس..): أي قدره (خير من الدنيا وما فيها) أي: من إنفاقها فيها لو ملكها، أو نفسها لو ملكها لأنه زائل لا محالة. وهذا القدر اليسير في الجنة خير من الدنيا وما فيها .

الثالث : قوله (وَلَنْصِيفُهَا ، يَعْنِي الْحِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتحقيروها ، وأنها لا تستحق شيئاً في جانب الآخرة .

قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ) .

عن المستورد بن شداد ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ) رواه مسلم .

وعن جابر ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ وَالنَّاسِ كَنَفْتِيهِ ، فَمَرَّ بِجَدِي أَسْكَ مَيْتٍ ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمٍ ؟)) فقالوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ ثُمَّ قَالَ : ((أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟)) قَالُوا : وَاللَّهِ

لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا ، إِنَّهُ أَسْكَ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيْتٌ ! فقال : ((فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)) رواه مسلم .

قوله : ((كَنَفْتِيهِ)) أي : عن جانبيه . و((الْأَسْكَ)) : الصغير الأذن .

وعن سهل بن سعد الساعدي ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً) رواه الترمذي .

وعن عبد الله بن مسعود ، قَالَ : نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وَطَاءً . فَقَالَ (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَكَابٍ اسْتَنْظَلَتْ تَحْتِ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) رواه الترمذي .

وتعظيم أمر الجهاد وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر أعظم من جميع ما في الدنيا ، فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات ، والنكته في ذلك أن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا فببه هذا المتأخر أن

هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا . (الفتح) .

٢- الحديث دليل على عظمة الجنة وحقارة الدنيا .

٣- الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم أن يتعلق بالآخرة ويعمل لها .

٤- الحديث دليل على فضل الجهاد في سبيل الله ، للجهاد في سبيل الله فضائل كثيرة :

أولاً : ما ورد في حديث الباب من عظيم فضله .

قال ﷺ (لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها) .

ثانياً : أن الجهاد لا يعدله شيء .

وعن أبي هريرة قال (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دُلِّي عَلَى عَمَلٍ يُعَدِّلُ الْجِهَادَ ؟ قَالَ : لَا أَحَدُهُ ، قَالَ : هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقُومَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ ، قَالَ وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ) متفق عليه .

قال الحافظ : قَالَ عِيَّاضُ : اشْتَمَلَ حَدِيثَ الْبَابِ عَلَى تَعْظِيمِ أَمْرِ الْجِهَادِ ، لِأَنَّ الصِّيَامَ وَعَيْزَهُ مِمَّا ذَكَرَ مِنْ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ قَدْ عَدَلَهَا كُلَّهَا الْجِهَادَ حَتَّى صَارَتْ جَمِيعَ حَالَاتِ الْمُجَاهِدِ وَتَصَرُّفَاتِهِ الْمُبَاحَةَ مُعَادِلَةً لِأَجْرِ الْمُوَظَّبِ عَلَى الصَّلَاةِ وَعَيْزَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ " لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، وَفِيهِ أَنَّ الْفَضَائِلَ لَا تُدْرِكُ بِالْقِيَاسِ وَإِنَّمَا هِيَ إِحْسَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ شَاءَ ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ مُطْلَقًا لِمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ .

وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : الْقِيَاسُ يُفْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْجِهَادُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ وَسَائِلٌ لِأَنَّ الْجِهَادَ وَسِيلَةً إِلَى إِعْلَانِ الدِّينِ وَنَشْرِهِ وَإِحْمَادِ الْكُفْرِ وَدَحْضِهِ ، فَفَضِيلَتُهُ بِحَسَبِ فَضِيلَةِ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ثالثاً : أن المجاهد أفضل الناس .

عن أبي سعيد الخدري قال : (أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : أي الناس أفضل ؟ قال : مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله) . متفق عليه

رابعاً : للمجاهدين مائة درجة في الجنة .

قال ﷺ : (إن في الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) . رواه البخاري

خامساً : الجهاد سبب للنجاة من النار .

قال ﷺ : (ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار) . رواه البخاري

قال الحافظ ابن حجر : وفي ذلك إشارة إلى عظم قدر التصرف في سبيل الله ، فإذا كان مجرد مسّ الغبار للقدم يحرم عليها النار ، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه ؟ .

سادساً : من أسباب دخول الجنة .

قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُعَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

سابعاً : المجاهد يكون الله في عونته .

قال ﷺ : (ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف) . رواه أحمد

ثامناً : الجهاد ذروة سنام الإسلام .

قال ﷺ : (وذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله) . رواه الترمذي

تاسعاً : أن الجهاد سبب لمغفرة الذنوب .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَحَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

٥- الحديث دليل على أن من نعيم الجنة النساء الذي ذكر ﷺ وصفها .

● ومن صفات نساء الجنة .

أولاً : مطهرات .

قال تعالى (وَهَمَّ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) .

(وَهَمَّ فِيهَا أَزْوَاجٌ) الأزواج جمع زوج ، وهو شامل للأزواج من الحور العين ، ومن نساء الدنيا .

(مُطَهَّرَةٌ) يشمل طهارة الظاهر وطهارة الباطن ، فهي مطهرة من الأذى ، ومن القدر ، لا بول ولا غائط ولا حيض ولا نفاس ، مطهرة من كل شيء حسي ، مطهرة أيضاً من الأقدار الباطنة ، كالغل ، والحسد ، والكرهية ، والبغضاء وغير ذلك .

قال القرطبي : (مطهرة) نعتٌ للأزواج ، ومُطَهَّرَةٌ في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقدار الآدميات .

وقال السعدي : قوله تعالى (وَهَمَّ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) فلم يقل (مطهرة من العيب الفلاني) ليشمل جميع أنواع التطهير ، فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار ، فأخلاقهن ، أنهن عرب متحبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ، وحسن التبعل ، والأدب القولي والفعل ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني ، والبول والغائط ، والمخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة ، ومطهرات الخلق أيضاً ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة خلق ، بل هن خيرات حسان ، مطهرات اللسان والظرف ، قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح .

ثانياً : كواعب أتراباً .

قال تعالى (وَكَوَاعِبٌ أَتْرَاباً) .

الكاعب : المرأة الجميلة التي برز ثديها ، والأتراب : المتقاربات في السن .

ثالثاً : أبكاراً .

قال تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . غُرُباً أَتْرَاباً) .

أبكاراً : يعني أنه لم ينكحهن قبلهم أحد ، العرب : المتحبات لأزواجهن .

قال ابن كثير رحمه الله : قوله (غُرُباً) : قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني : متحبات إلى أزواجهن ، وعن ابن عباس : الغرُب العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون .

وقوله (أتراباً) قال الضحاك عن ابن عباس يعني : في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة .

وقال السدي : (أتراباً) أي : في الأخلاق المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني : لا كما كن ضرائر متعديات . (تفسير ابن كثير) .

وقال الحافظ ابن حجر : عن مجاهد في قوله (غُرُباً أتراباً) قال : هي المحببة إلى زوجها .

رابعاً : جميلات غاية الجمال .

قال تعالى (وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) .

وقال ﷺ (ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

حور : جمع حوراء ، وهي التي يكون بياض عينيها شديد البياض وسواده شديد السواد .

عين : جمع عيناء ، وهي واسعة العين ، المكنون : المخفي المصان ، النصيف : الخمار .

● قال السعدي : أي : ولهم حور عين ، والحوراء : التي في عينها كحل وملاحة ، وحسن وبهاء ، والعين : حسان الأعين وضخامها ، وحسن العين في الأنتى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها ، (كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) أي : كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي ، المستور عن الأعين والريح والشمس ، الذي يكون لونه من أحسن الألوان ، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه ، فكذلك الحور العين ، لا عيب فيهن بوجه ، بل هن كاملات الأوصاف ، جميلات النعوت . فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر خاطر ويروق الناظر .

خامساً : قاصرات الطرف .

قال تعالى (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) .

وقال تعالى (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) .

وقاصرات الطرف : هن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن ، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهن .

● قال ابن القيم : ووصفهن بأنهن (مقصورات في الخيام) أي : ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن ، بل قد قُصِرْنَ على أزواجهن ، لا يخرجن من منازلهم ، وقُصِرْنَ عليهم فلا يردن سواهم ، ووصفهن سبحانه بأنهن (قاصرات الطرف) وهذه الصفة أكمل من الأولى ، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له ورضاها به فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره .
٦٥٦٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدًا إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ) .

(لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) وقع عند بن ماجه بسند صحيح من طريق آخر عن أبي هريرة أن ذلك يقع عند المسألة في القبر وفيه (فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها فيقال له انظر إلى ما وراك الله) ، وفي حديث أنس الماضي في أواخر الجنائز (فيقال انظر إلى مقعدك من النار) زاد أبو داود في روايته (هذا بيتك كان في النار ولكن الله عصمك ورحمك) ، وفي حديث أبي سعيد (كان هذا منزلك لو كفرت بريك) .

(لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا) أي : (لو كان عمل عملاً سيئاً وهو الكفر فصار من أهل النار) .

(لَوْ أَحْسَنَ) أي : لو عمل عملاً حسناً وهو الإسلام .

(لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ) أي : للزيادة في تعذيبه ووقع عند بن ماجه أيضا وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة بلفظ (ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى : أولئك هم الوارثون) .

١- الحديث دليل على أن من أنواع عذاب أهل النار حسرتهم حينما يرون مقعدهم في الجنة لو آمنوا، ومن أنواع الحسرات :

● حسرة الكفار وتمنيهم الموت يوم القيامة:

قال تعالى (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) .

ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

● حسرة أتباع الشيطان الذين استجابوا لنزغاته ووساوسه، عندما يتخلى عنهم في النار:

قال تعالى (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

- حسرة المجرمين منكسي رؤوسهم عند معاينة العذاب:
- قال تعالى (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) .
- حسرة وندم المفرطين في العمل الصالح عند معاينة الموت:
- قال تعالى (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .
- الكافر يوم القيامة يرى أنه لم يلبث في الدنيا إلا قليلاً فيتحسر على ذلك:
- قال تعالى (وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .
- حسرة عظيمة لمن خسر نفسه وأهله يوم القيامة:
- قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) .
- حسرة المكذبين بلقاء الله ويوم القيامة:
- قال تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمَلُونَ أَوْرَارُهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ) .
- حسرة المشركين لعدم اتباعهم ما أنزل من القرآن:
- قال تعالى (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ) .
- حسرة من جانب طريق الهداية والتقوى:
- قال تعالى (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .
- حسرة المفرطين عند رؤية العذاب:
- قال تعالى (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .
- حسرة أهل النار عند معاينتهم وإذاقتهم أشد العذاب، مطالبين بهم بالخروج منها والرجوع للدنيا ليعملوا الصالحات، لكن هيهات!
- قال تعالى عن أهل النار أعاذنا الله وإياكم منهم :
- (وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) .
- حسرة الكفار على الأموال التي أنفقوها للصد عن سبيل الله:
- قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْنُدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ) .
- حسرة من تعلم العلم ولم يعمل به:
- قال حاتم الأصم رحمه الله: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه وهلك هو .
- ٢- أن عذاب أهل النار يكون حسياً ومعنوياً .
- ٣- من نعيم أهل الجنة رؤية أهل النار ومنازلهم ليزدادوا فرحاً لتمسكهم بطاعة ربه في الدنيا .

٦٥٧٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ) .

(مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الشفاعة : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

قال الحافظ : والمراد بهذه الشفاعة المسئول عنها هنا بعض أنواع الشفاعة وهي التي يقول صلى الله عليه وسلم أمّتي أمّتي فيقال له أخرج من النار من في قلبه وزن كذا من الإيمان ، فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه ، وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة ، وهم الذين يدخلونها بغير حساب ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب بعد ان يحاسب ويستحق العذاب ثم من يصيبه لفح من النار ولا يسقط .

(خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ) بكسر القاف وفتح الموحدة أي قال ذلك باختياره ووقع في رواية أحمد وصححه بن حبان من طريق أخرى عن أبي هريرة نحو هذا الحديث وفيه (لقد ظننت انك أول من يسألني عن ذلك من أمّتي وشفاعتي لمن شهد ان لا إله إلا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه) .

١- الحديث دليل على فضل الإخلاص ، وأنه من أسباب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

٢- أن من شروط : لا إله إلا الله الإخلاص ، وتقدمت شروطها .

٣- الحديث دليل على فضل الحرص على تحصيل العلم .

٤- الحديث دليل على فضل أبي هريرة .

٥- الحرص على سؤال أهل العلم والعلماء .

٦- على الإنسان أن يسأل السؤال المفيد النافع الذي يقربه إلى الجنة ويباعده من النار .

٧- الثناء على أبي هريرة بحرصه على الحديث .

٨- جواز المدح في الوجه إذا أمن الفتنة والإعجاب وكان لمصلحة .

٩- الرد على الخوارج في رد الشفاعة .

١٠- اشتراط النطق بالشهادتين إذا كان قادراً .

١١- أن القول المجرد عن الإخلاص لا قيمة له في الآخرة .

١٢- للعالم أن يتفرس في طلابه ليزيدهم في الاجتهاد .

١٣- الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة .

١٤- الخطاب بالكنية .

١٥- إثبات الشفاعة يوم القيامة ، والشفاعة يوم القيامة لها ٣ شروط :

رضا الله عن الشافع - رضا الله عن المشفوع - إذن الله للشافع أن يشفع .

قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقال تعالى (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

١٦- في الحديث سبب من أسباب الشفاعة وهو الإخلاص لله تبارك وتعالى ، وأسباب الشفاعة منها :

أولاً : الإخلاص .

كما في حديث الباب .

ثانياً : قراءة القرآن .

كما قال ﷺ (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي شفيعاً لأصحابه يوم القيامة) رواه مسلم .

ثالثاً : سكنى المدينة والموت بها .

قال ﷺ (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها) رواه الترمذي .

رابعاً : الصلاة على النبي ﷺ .

كما قال ﷺ (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ... حلت له شفاعتي يوم القيامة) .

١٧- فضل الحرص على العلم والحديث .

١٨- إثبات يوم القيامة .

٦٥٧١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنِّي لِأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا رَجُلٌ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ كَبُورًا فَيَقُولُ اللَّهُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى فَيَقُولُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى فَيَقُولُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا ، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ تَسْحَرُ مِنِّي ، أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، وَكَانَ يُقَالُ ذَلِكَ أَذَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً .

[م : ١٨٦] .

(رَجُلٌ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ كَبُورًا) أي : حيواً ، قال ابن الأثير : الحبو أن يمشي على يديه وركبتيه .

(فَيَقُولُ اللَّهُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا) يعني : أنه يجيء قريباً منها أو فيدخلها .

(فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا) أي : الجنة .

(مَلَأَى) أي : ممتلئة بالسكان .

(فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى) أي : فليس لي مكان فيها .

(فَيَقُولُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا) في سعتها .

(وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا) أي : زيادة عليها في الكمية والكيفية .

(فَيَقُولُ) الرجل .

(حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) المراد بالنواجذ الأنياب

(وَكَانَ يُقَالُ ذَلِكَ أَذَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً) ليس هذا من تنمة كلام رسول الله ﷺ ، بل هو من كلام إبراهيم النخعي كما بيّنه

ابن حبان في صحيحه .

١- الحديث فيه بيان آخر أهل النار خروجاً منها .

٢- الحديث دليل على سعة رحمة الله وفضله .

٣- الحديث دليل على إثبات الضحك لله اثباتاً يليق بجلاله ، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تمثيل ولا تشبيه .

عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (يَضْحَكُ اللَّهُ سُحَّانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلَانِ

هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسَلِّمُ فَيَسْتَشْهَدُ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٤- الرد على الخوارج (الذين يقولون بكفر فاعل الكبيرة ، وتخليده في النار) .

٥- الرد على المرجئة (القائلين لا يضر مع الإيمان ذنب) .

٦- أنه لا يخلد في الجنة موحد .

٧- فضل الرجاء بما عند الله .

٦٥٧٢- عَنِ الْعَبَّاسِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هَلْ نَفَعَتْ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ .

الحديث تقدم شرحه .

٥٢- باب الصراط جسر جهنم

٦٥٧٣- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي سَعِيدٌ وَعَطَاءُ بْنُ يَرِيدَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم .

٦٥٧٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ أَنَسٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ (هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ ذُوْنَهَا سَحَابٌ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ ذُوْنهُ سَحَابٌ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيَتِ وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوْهَا فَيَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا أَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَا فَيَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَسَلِّمْ وَبِهِ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظْمِهَا إِلَّا اللَّهُ فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ مِنْهُمْ الْمُؤَبَّقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدُ الَّذِي تَمُّ يَنْجُو حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مَنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَنْتَرِ السُّجُودِ فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدْ امْتَحَشُوا فَيَصَّبُ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَيَةِ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بَوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ قَدْ قَسَيْتَنِي بِرِجْلِهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَوْهَا فَاصْرِفْ وَجْهِي ، عَنِ النَّارِ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ ، فَيَقُولُ لَعَلَّكَ إِنِ اعْطَيْتُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ فَيَقُولُ لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ فَاصْرِفْ وَجْهَهُ ، عَنِ النَّارِ تَمُّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ يَا رَبِّ قَرِّبْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ وَيَلْكَ ابْنُ آدَمَ مَا أَعْدَرَكَ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو فَيَقُولُ لَعَلِّي إِنْ اعْطَيْتُكَ ذَلِكَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ فَيَقُولُ لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ فَيُعْطِي اللَّهُ مِنَ عُهُودٍ وَمَوَاقِيحَ أَنْ لَا يَسْأَلُهُ غَيْرَهُ فَيَقْرَبُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا رَأَى مَا فِيهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ تَمُّ يَقُولُ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ تَمُّ يَقُولُ أَوَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ وَيَلْكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَعْدَرَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ أَذِنَ لَهُ بِالْدُّخُولِ فِيهَا فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا قِيلَ تَمُّ مِنْ كَذَا فَيَتَمَّى تَمُّ يَقَالُ لَهُ تَمُّ مِنْ كَذَا فَيَتَمَّى حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الْأَمَانِيُّ فَيَقُولُ لَهُ هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا .

[م : ١٨٢] .

٦٥٧٤- قَالَ ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ جَالِسٌ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يُعَيِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ قَالَ

أَبُو سَعِيدٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ حَفِظْتُ مِثْلَهُ مَعَهُ .

[م : ١٨٣] .

(هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فِي التَّفْهِيمِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ السُّؤَالَ لَمْ يَقَعْ عَنِ الرَّوْيَةِ فِي الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَرَى فِي

الدنيا .

(قَالَ : هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟) بضم أوله وتشديد الراء

(فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ) المراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك .

(يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ) أي : يوم القيامة ، وفي رواية (يحشر) وفي الرواية الأخرى (... فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفُذُهُمُ

الْبَصَرَ وَتَدْنُو الشَّمْسُ) ،

قال النووي : الصعيد الأرض الواسعة المستوية ، و (ينفذهم) أي : يخرقهم .

قال الحافظ : ووقع في حديث بن مسعود عند البيهقي في البعث وأصله في النسائي (إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً شاخصة

أبصارهم إلى السماء لا يكلمهم والشمس على رؤوسهم حتى يلجم العرق كل بر منهم وفاجر) ووقع في حديث أبي سعيد عند

أحمد (أنه يخفف الوقوف عن المؤمن حتى يكون كصلاة مكتوبة) وسنده حسن ، ولأبي يعلى عن أبي هريرة (كتدلي الشمس

للغروب إلى أن تغرب) وللطبراني من حديث عبد الله بن عمر (ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمن من ساعة من نهار) .

(فَيَقُولُ) الله تعالى .

(مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ) أي : فليذهب معه حتى يستوفي أجره منه .

(فَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ) الشمس .

(وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ) القمر .

قال بن أبي جمرة : في التنصيص على ذكر الشمس والقمر مع دخولهما فيمن عبد من دون الله التنويه بذكرهما لعظم خلقهما .

ووقع في حديث بن مسعود (ثم ينادي مناد من السماء ، أيها الناس أليس عدل من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم ثم

توليتهم غيره أن يولى كل عبد منكم ما كان تولى ، قال فيقولون بلى ثم يقول لتنتقل كل أمة إلى من كانت تعبد) وفي رواية العلاء

بن عبد الرحمن (ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد) .

(وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ) جمع طاغوت ، والطاغوت كل ما عبد من دون الله .

(وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا) وزاد في حديث أبي سعيد (حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُيَّرَاتِ أَهْلِ

الكتاب) بضم الغين المعجمة وتشديد الموحدة وفي رواية مسلم وغيره وكلاهما جمع غابر أو الغبرات جمع وغير جمع غابر ويجمع

أيضا على اغبار وغير الشيء بقيته وجاء بسكون الموحدة والمراد هنا من كان يوحد الله منهم .

(فَيَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ) وفي حديث أبي سعيد الآتي في التوحيد (في صورة غير صورته التي رآه فيها أول

مرة) وفي رواية هشام بن سعد (ثم يتبدى لنا الله في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أول مرة) .

(فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ) أي : لأنك لست برينا الذي كنا نعبد .

(هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا أَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَا) بالعلامات التي عرفنا بها نفسه .

(وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ) فيه إثبات الصراط ، ووقع في حديث أبي سعيد (ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون

اللهم سلم سلم) .

(فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجْبَرُ) وفي الرواية الأخرى (فأكون أنا وأمتي ...) قال النووي : بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْجِيمِ وَالرَّايِ آخِرُهُ وَمَعْنَاهُ :

يَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَمْضِي عَلَيْهِ وَيَقْطَعُهُ يُقَالُ : أَجْزَتْ الْوَادِيَّ وَجُزَّتْ لُغْتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَجْزَتْهُ قَطَعْتَهُ ، وَجُزَّتْهُ

مَشِيَّتْ فِيهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ووقع في حديث عبد الله بن سلام عند الحاكم (ثم ينادي مناد : أين محمد وأمته فيقوم فتنبعه أمته برها وفاجرها فيأخذون الجسر

فيطمس الله أبصار أعدائه فيتهافتون من يمين وشمال وينجو النبي والصالحون) .

وفي حديث بن عباس يرفعه (نحن آخر الأمم وأول من يحاسب وفيه فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فمر غرا محجلين من آثار الطهور فتقول الأمم كادت هذه الأمة ان يكونوا أنبياء) .

(وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ) هذا من كمال شفقتهم ورحمتهم للخلق ، وللتزمذي من حديث المغيرة (شعار المؤمنين على الصراط رب سلم سلم) والضمير في الأول للرسول ، ولا يلزم من كون هذا الكلام شعار المؤمنين أن ينطقوا به بل تنطق به الرسل يدعون للمؤمنين بالسلامة فسمى ذلك شعاراً لهم فهذا تجتمع الأخبار ويؤيده قوله في رواية سهيل (فعند ذلك حلت الشفاعة اللهم سلم سلم) .

وفي حديث أبي سعيد من الزيادة (فيمر المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب) وفي حديث حذيفة وأبي هريرة معاً (فيمر أولهم كمر البرق ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرحال ...) .

(وَبِهِ كَلَالِيْبٌ) وفي رواية (وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة ، مأمورة بأخذ من أمرت به) ، والكلاليب جمع كَلُوبٍ بِفَتْحِ الْكَافِ وَضَمِّ اللَّامِ الْمُشَدَّدَةِ ، وَهُوَ حَدِيدَةٌ مَعْطُوفَةٌ الرَّأْسِ يُعَلَّقُ فِيهَا اللَّحْمُ وَتُرْسَلُ فِي التَّنُّورِ .

وفي حديث حذيفة (وترسل الأمانة والرحم ، فيقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا أي يقفان في ناحيتي الصراط) وهي بفتح الجيم والنون بعدها موحدة ويجوز سكون النون والمعنى ان الأمانة والرحم لعظم شأنهما وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل والقاطع فيحاجان عن الحق ويشهدان على المبطل

(مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ) وَأَمَّا السَّعْدَانُ فَبِفَتْحِ السِّينِ وَإِسْكَانِ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَهُوَ نَبْتٌ لَهُ شَوْكَةٌ عَظِيمَةٌ مِثْلُ الْحَسَكِ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ .

(فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ) هُوَ يَفْتَحُ الطَّاءَ وَيَجُوزُ كَسْرَهَا ، يُقَالُ : خَطَفَ وَخَطَفَ بِكَسْرِ الطَّاءِ وَفَتْحِهَا وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : تَخَطَّفَهُمْ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : تَخَطَّفَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
(مِنْهُمْ الْمُؤَبَّقُ بِعَمَلِهِ) أي : المهلك بعمله السيء ؟

(أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ) وفي الرواية الأخرى (أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً)
وفي حديث أبي سعيد (فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ . فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَدَرَ فِيهَا أَحَدًا بِمَنْ أَمَرْتَنَا) .

(فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ) ؟؟؟

(وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ) علة لعدم أكل النار أثر السجود ، أي : لأن الله حرم على النار أكل أثر سجود بني آدم .

قال النووي : ظاهر هذا أنَّ النَّارَ لَا تَأْكُلُ جَمِيعَ أَعْضَاءِ السُّجُودِ السَّبْعَةِ الَّتِي يَسْجُدُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا وَهِيَ : الْجَبْهَةُ وَالْيَدَانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَالْقَدَمَانِ ، وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، وَأَنْكَرَهُ الْقَاضِي عِيَّاضُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَقَالَ : الْمُرَادُ بِأَثَرِ السُّجُودِ الْجَبْهَةُ خَاصَّةً . وَالْمُخْتَارُ الْأَوَّلُ ، فَإِنَّ قِيلَ قَدْ ذَكَرَ مُسْلِمٌ بَعْدَ هَذَا مَرْفُوعًا أَنَّ قَوْمًا يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ يَحْتَرِقُونَ فِيهَا إِلَّا دَارَاتِ الْوُجُوهِ ، فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَخْصُوصُونَ مِنْ جُمْلَةِ الْخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ بِأَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْهُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا دَارَاتِ الْوُجُوهِ ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَيَسْلَمُ جَمِيعَ أَعْضَاءِ السُّجُودِ مِنْهُمْ عَمَلًا بِعُمُومِ هَذَا الْحَدِيثِ ، فَهَذَا الْحَدِيثُ عَامٌّ وَذَلِكَ خَاصٌّ فَيُعْمَلُ بِالْعَامِّ إِلَّا مَا خَصَّ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدْ امْتَحَشُوا) أي : احترقوا .

(فَيَصَّبُ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ) أي : الماء الذي من يشربه أو يتطهر به لم يمِتْ أبداً (المفهم) .

وفي حديث أبي سعيد (فيلقبهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة) . وفي تسمية ذلك النهر به إشارة إلى أنهم لا يحصل لهم الفناء بعد ذلك .

(فَيَنْبُتُونَ) أي : منه ، أي : بسببه .

(نَبَاتِ الْحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ) (الْحَبَّةُ) فَبِكَسْرِ الْحَاءِ وَهِيَ بَزْرُ الْبُقُولِ وَالْعُشْبُ تَنْبُتُ فِي الْبَرَارِيِّ وَجَوَانِبِ السُّيُولِ وَجَمْعُهَا (حَبَبٌ) بِكَسْرِ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْبَاءِ . وَأَمَّا (حَمِيلِ السَّيْلِ) فَيَفْتَحُ الْحَاءُ وَكَسْرُ الْمِيمِ ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ السَّيْلُ مِنْ طِينٍ أَوْ عُثَاءٍ وَمَعْنَاهُ : مَحْمُولِ السَّيْلِ ، وَالْمُرَادُ التَّشْبِيهِ فِي سُرْعَةِ النَّبَاتِ وَحُسْنِهِ وَطَرَاوَتِهِ .

قال بن أبي جمرة : فيه إشارة إلى سرعة نباتهم لان الحبة أسرع في النبات من غيرها وفي السيل أسرع لما يجتمع فيه من الطين الرخو الحادث مع الماء مع ماخالطه من حرارة الزيل المجذوب معه .

وقال القرطبي : (حميل السيل) ما يحمله من طين وعُثَاءٍ

(قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا) أي : آذاني .

١- الحديث دليل على إثبات الصراط .

● تعريف الصراط :

لغة : الطريق .

وشرعاً : الجسر الممدود على جهنم ليعبر الناس عليه إلى الجنة .

● وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) .

فسرها عبد الله بن مسعود وقتادة وزيد بن أسلم بالمرور على الصراط .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في حديث طويل : (... ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم) . متفق عليه

قال النووي : وفي هذا إثبات الصراط ، ومذهب أهل الحق إثباته ، وقد أجمع السلف على إثباته . وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم ، فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم أي : منازلهم ، والآخرون يسقطون فيها ، أعادنا الله الكريم منها ، وأصحابنا المتكلمون وغيرهم من السلف يقولون : إن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف كما ذكره أبو سعيد الخدري رضي الله عنه هنا في روايته الأخرى المذكورة في الكتاب .

قال أبو الحسن الأشعري : " وأجمعوا على أن الصراط جسر ممدود على جهنم ، يجوز عليه العباد بقدر أعمالهم ، وأنهم يتفاوتون في السرعة والإبطاء على قدر ذلك .

قال السفاريني : اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة ، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسراً ممدوداً على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعر ، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي ، وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لا يمكن عبوره ، وإن أمكن ففيه تعذيب ، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة ، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِم) وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى (فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) ، ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها ، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها .

■ صفة الصراط :

قيل : إنه طريق واسع .

لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوي هو هذا .

ولأنه جاء في الحديث حينما سئل النبي عن الصراط قال (دحض ومزلة) .

والدحض والمزلة لا يكون إلا بطريق واسع .

وقيل : إنه طريق دقيق جداً .

ففي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : (بلغني أنه أدق من الشعر وأحد من السيف) .
وروى الإمام أحمد نحوه عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً .

● العبور على الصراط وكيفيته :

لا يعبر على الصراط إلا المؤمنون على قدر أعمالهم .

ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (... فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَالْجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَتَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ) .

قال العيني: (كالطرف): بكسر الطاء وهو الكريم من الخيل وبالفتح البصر ، قلت: المعنى الثاني هو المراد بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بعد ذلك البرق، والريح، ومرور الخيل على الترتيب في السرعة .

أجاويد الخيل: جمع الأجود وهو جمع الجواد وهو فرس بين الجودة .

الركاب: الإبل واحدها الراحلة من غير لفظها). (عمدة القاري) .

قال النووي : قوله ﷺ (فَتَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ) أَنَّهُمْ ثَلَاثَةٌ أَفْسَامٌ ، قِسْمٌ يَسْلَمُ فَلَا يَنَالُهُ شَيْءٌ أَصْلًا ، وَقِسْمٌ يُخَدِّشُ ثُمَّ يُرْسَلُ فَيُخَلِّصُ ، وَقِسْمٌ يُكْرَدُوسٌ . وَيُلْقَى فَيَسْقُطُ فِي جَهَنَّمَ .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (... فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيَقُومُ فَيُؤَدِّنُ لَهُ وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَيِ الصِّرَاطِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كَالْبَرْقِ » . قَالَ قُلْتُ يَا أَبَا أُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَ الْبَرْقُ قَالَ « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرَ الرِّيحَ ثُمَّ كَمَرَ الطَّيْرَ وَشَدَّ الرِّجَالَ بَحْرَى بَيْنَ أَعْمَالِهِمْ وَبَيْنِكُمْ فَأَتَمَّ عَلَى الصِّرَاطِ يَثْوُلُ رَبِّ سَلَّمَ سَلَّمَ حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا رَحْفًا - قَالَ - وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَالْكَلْبِ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ) .

وفي صحيح البخاري : (حتى يمر آخرهم يسحب سحباً) .

■ يعطي الله كل إنسان نوراً على قدر عمله يتبعه على الصراط :

كما في حديث جابر عند مسلم (وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ - مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ - نُورًا ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَالْكَلْبِ وَحَسَبُكَ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَطْفَأُ نُورَ الْمُنَافِقِينَ ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ فَتَنْجُو أَوَّلَ زُمْرَةٍ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) .

وكما في حديث ابن مسعود الطويل الذي فيه يقول النبي ﷺ (فيعطون نورهم على قدر أعمالهم وقال: فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطي نوره دون ذلك

بيمينه، حتى يكون آخر من يعطي نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفأ مرة إذا أضاء قدمه، وإذا أطفئ قام) .

■ وأول من يعبر الصراط من الأنبياء محمد ﷺ ، ومن الأمم أمته ﷺ .

لحديث الباب (فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل) .

● فإذا عبروا الناس وقفوا في مكان يقال له القنطرة :

وهي جسر صغير ليقترض بعضهم من بعض اقتصاصاً غير الاقتصاص الأول الذي في عرصات القيامة ، الهدف منه إزالة ما في القلوب من الغل والحسد .

لأن أهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى تطهر قلوبهم من الغل والحسد :

قال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ يُجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) .

■ الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون دون المشركين .

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آلهة باطلة، فتسير تلك الآلهة بالعابدين، حتى تهوي بهم في النار، ثم يبقى بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون، وعصاة المؤمنين، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط.

ورجح ذلك ابن رجب فقال :

واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا شريك به شيئاً ، ومشرك يعبد مع الله غيره ، فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط إنما يقعون في النار قبل وضع الصراط .

وذكر رحمه الله :

حديث أبي سعيد الخدري (أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « نَعَمْ » . قَالَ « هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهْرِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ » . قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْنَى مُؤَدَّنٌ لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ . فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ...) متفق عليه .

قال ابن رجب : فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح وعزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط إلا أن عباد الأصنام و الشمس و القمر و غير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا فترد النار مع معبودها أولاً و قد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون :

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار و بئس الورد المورود) ، وأما من عبد المسيح و العزير من أهل الكتاب فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ثم يردون في النار بعد ذلك . (التخويف من النار) .

فإن قال قائل : ما الجواب عن قوله تعالى (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ) .

فالجواب :

المنع ، نمنع أن يكون المراد بالصراط في هذه الآية هو الصراط المنصوب على متن جهنم ، بل المقصود به هو الطريق الحق الموصل للجنة .

قال البغوي : في تفسير الآية ، أي : عن دين الحق لعادلون مائلون .

وقال الشنقيطي : قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ) ذَكَرَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْحِزَاءَ ، نَّاكِبُونَ عَنِ الصِّرَاطِ ، وَالْمُرَادُ بِالصِّرَاطِ ، الَّذِي هُمْ نَّاكِبُونَ عَنْهُ : الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمَوْصَلُ إِلَى الْجَنَّةِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ قَبْلَهُ : وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَمَنْ نَكَبَ عَنِ هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، دَخَلَ النَّارَ بِلا سَلَكٍ .

٢- الحديث دليل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

وعقيدة أهل السنة : هو الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عياناً بأبصارهم في عرصة القيامة وفي الجنة ، ويكلمهم

ويكلمونه .

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة وغيرهم ، وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون .

أ-قال تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) . (ناضرة) أي حسنة ، من النظارة . (ناظرة) من النظر .

قال شارح الطحاوية : وهي من أظهر الأدلة .

ب-وقال تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

قال شارح الطحاوية : احتج الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله تعالى بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، وسئل مالك عن هذه الآية فقال : لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأولياؤه حتى يروه .

في الآية : أن أعظم عذاب الكفار هو الحجاب عن ربهم ، وأعظم نعيم الجنة هو رؤية الله عز وجل .

ج-وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

فالحسنى : الجنة ، **والزيادة** : هي النظر إلى وجهه الكريم فسرها بذلك رسول الله ﷺ كما في حديث صهيب عند مسلم .

عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ) ، وفي رواية (ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

د-عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً مع النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) متفق عليه ، يعني العصر والفجر . (لا تضامون) أي لا يلحقكم ضيم ولا مشقة في رؤيته .

معنى [كما ترون هذا القمر] يعني يراه المؤمنون في الجنة كما يرون هذا القمر ، فليس المعنى أن الله مثل القمر ، لأن الله ليس كمثل شيء ، بل هو أعظم وأجل ، لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية ، فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيه اشتباه ، فإننا سنرى ربنا عز وجل كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه .

هـ - عن أبي هريرة ؓ : أن أناساً قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال النبي ﷺ : (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟) قالوا: لا يا رسول الله . قال: (هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحب؟) قالوا: لا . قال: (فإنكم ترونه كذلك) . متفق عليه .

و- وعن أبي موسى . قال : قال رسول الله ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) متفق عليه .

وأحاديث الرؤية متواترة كما نص على ذلك غير واحد من أهل العلم ، منهم :

ابن القيم في حادي الأرواح ، وابن أبي العز في شرح الطحاوية ، والحافظ ابن حجر في فتح الباري .

المخالفون لأهل السنة :

وخالف في ذلك المعتزلة والجهمية وقالوا : إن الله لا يرى .

واستدلوا بقوله تعالى لموسى (لن تراني) .

الرد عليهم :

هذا مذهب باطل ، والآية دليل عليهم من وجوه :

أولاً : أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته ، أن يسأل ما لا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال .

ثانياً : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاته ابنه أنكر سؤاله وقال (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) .

ثالثاً : أنه تعالى قال (لن تراني) ولم يقل : إني لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتي ، والفرق بين الجوابين ظاهر .

رابعاً : قوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فعلق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن في نفسه ، والمعلق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به ، والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة .

فصارت الآية دليل على الرؤية .

واستدلوا بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) .

قالوا : إن الله نفى إدراك الأبصار له ، فدل على أن الله لا يرى في الآخرة .

والجواب :

إن الله نفى الإدراك ، ولم ينف الرؤية ، والإدراك قدر زائد على الرؤية وهو أخص من الرؤية والرؤية أعم ، ونفي الأخص لا يدل على نفي الأعم ، والإنسان قد يرى الشيء ولا يدركه ، لأن الإدراك هو الإحاطة ، فالله نفى الإدراك وهو الإحاطة ولم ينف الرؤية ، فأنت ترى السماء لكن لا تحيط بها رؤية .

● **ورؤية الله في الدنيا مستحيلة .**

كما قال الله تعالى لموسى : (لن تراني) .

قال شيخ الإسلام في الفتاوى :

وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينه قبل الموت فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة ، لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحداً من المؤمنين لن يرى ربه بعيني رأسه حتى يموت ، وثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال قال : (اعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت) . [الفتاوى : ٣٨٩ / ٢]

● **واختلفوا : هل رأى النبي ﷺ ربه ليلة المعراج :**

القول الأول : أنه رآه .

وهو قول ابن عباس ورححه ابن خزيمة في كتابه التوحيد واختاره النووي .

لقوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا)

روي عن ابن عباس هي : رؤية عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به .

القول الثاني : أنه لم يره .

وهذا مذهب عائشة والجمهور .

عن عائشة أنها قالت : (من حدثكم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم القرية على الله) رواه مسلم .

وعن أبي ذر قال (سألت رسول الله ! هل رأيت ربك ؟ قال : نور أرى) رواه مسلم .

والمعنى : نور كيف أراه .

ولحديث أبي موسى الأشعري . أن النبي ﷺ قال (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من

خلقه (رواه مسلم .

وجه الدلالة : قوله : حجاب النور - يعني الله - احتجب بالنور ، لو كشفه - يعني الحجاب - لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، وهذا صريح في أن الله لو كشف الحجاب لأحرق جميع خلقه .

وهذا هو الراجح .

القول الثالث : التوقف .

ورجحه القاضي عياض والقرطبي ، نظراً لتكافؤ الأدلة .

والراجح مذهب الجمهور وهو أنه لم ير ربه .

• أسباب رؤية الله :

أولاً : سؤال الله ذلك .

كما في الحديث قال ﷺ (وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم) .

ثانياً : المحافظة على صلاة الفجر والعصر .

للحديث الذي سبق عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً مع النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) متفق عليه ، يعني العصر والفجر

قال العلماء: ووجه مناسبة ذكر هاتين الصلاتين عند ذكر الرؤية أن الصلاة أفضل الطاعات، وقد ثبت لهاتين الصلاتين من الفضل على غيرهما ما ذكر من اجتماع الملائكة فيهما، ورفع الأعمال، وغير ذلك، فهما أفضل الصلوات، فناسب أن يجازى المحافظ عليهما بأفضل العطايا، وهو النظر إلى الله - تعالى، والله أعلم

٣- إثبات إتيان الله تعالى لقوله (فيأتيهم الله ...) .

فعمدة أهل السنة والجماعة إثبات المجيء لله والإتيان للفصل بين عباده يوم القيامة .
وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب :

فقوله تعالى : (وجاء ربك) .

وقال تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً) .

وقال تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) .

أما السنة :

ففي حديث الباب (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى) .

وفي حديث أبي سعيد الخدري (حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله أتاهم رب العالمين) .

أما الإجماع فقد أجمع السلف على ثبوت المجيء لله تعالى فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، وهو مجيء حقيقي يليق بالله تعالى .

المخالفون لأهل السنة :

قال أهل البدع : إن المراد بالمجيء والإتيان مجيء أمر الله كما قال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) .

الرد عليهم :

نقول لهم إن قولكم هذا لا يستقيم ، والدليل الذي استدلتتم به هو دليل عليكم وليس لكم ، لو كان الله يريد أمره في الآيات الأخرى لقال : (أمره) ، ما الذي يمنعه أن يقول أمره ، فلما أراد الأمر عبر بالأمر .
والآيات الأخرى فيها دلالة ظاهرة لذلك ، ومن أشدها صراحة الآية الثانية (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) .

٤- إثبات الصورة لرب العالمين ، فأهل السنة يثبتون الصورة لرب العالمين ، إثباتاً يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

ففي حديث الباب (فيأتيهم في صورته التي يعرفون) .

وجاء في الحديث قوله ﷺ (رأيت ربي في أحسن صورة) رواه الترمذي وهو حديث صحيح .

٥- شدة الموقف يوم القيامة ، والمرور على الصراط .

٦- شدة خوف الرسل .

٧- إثبات النار .

٨- الحرص على العمل الصالح ، والحذر من العمل غير الصالح حتى لا تحطفه الكلايب .

٩- الحرص على سلوك طريق الهداية في هذه الدنيا ، حتى يسلك الصراط يوم القيامة الذي إلى جنات النعيم .

قال ابن القيم : فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم ، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنته وثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوته قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم ، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذلك الصراط ، ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم ، فإنها الكلايب التي يجنبي ذاك الصراط ، تحطفه وتعوقه عن المرور عليه ، فإذا كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك : وما ربك بظلام للعبيد .

١٠- إثبات القضاء بين العباد .

١١- فضل التوحيد ، وأن الموحد لا يخلد في النار .

١٢- فضل السجود والإكثار منه .

١٣- تحريم الجنة على المشرك .

١٤- الرد على الخوارج .

١٥- الرد على المرجئة .

١٦- تقريب العلم بالسؤال والجواب .

١٧- إثبات البعث والنور .

١٨- جمع الخلائق بقدره الله .

١٩- الجزاء من جنس العمل .

٢٠- أن الله يعامل المنافقين بما كانوا يعاملون المؤمنين من المخادعة ونحوها .

٢١- الحذر من النفاق .

٢٢- أن العبرة بالإيمان والعمل لا بالأحساب والأنساب .

٢٣- الإكثار من الأعمال الصالحة .

- ٢٤- إثبات الشفاعة .
- ٢٥- رحمة الله لا تنال المشرك .
- ٢٦- دخول العصي النار .
- ٢٧- إثبات صفة الكلام لله .
- ٢٨- جواز القسم بصفات الله لقوله : وعزتك .
ومن الأدلة على جواز القسم بقول : وعزتك .
قوله تعالى (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) .
وحديث أنس مرفوعاً ، وفيه قول النار (قط قط وعزتك) رواه البخاري .
وحديث الباب : (فيقول : لا ، وعزتك) .
- ٢٩- إثبات صفة الضحك لله تعالى إثباتاً يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تمثيل ولا تشبيه .
ومن الأدلة على إثبات الضحك قوله ﷺ (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة) متفق عليه .
- ٣٠- فضل الله العظيم وسعة رحمته .
- ٣١- إثبات صفة الساق لله تعالى لقوله في حديث أبي سعيد (فيُكشف عن ساق) وفي رواية البخاري (يكشف ربنا عن ساقه) .
- ٣٢- أن الله يمتحن عباده .
- ٣٣- تحريم الرياء والسمعة لقوله (ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه) .
- وقد قال ﷺ (من سمع سمع الله به ، ومن يُرائي يرائي الله به) متفق عليه .
- ٣٤- أن عذاب الآخرة متفاوت .

٥٣ - باب في الحوض

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ .

٦٥٧٥ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ) .

[م : ٢٢٩٧] .

٦٥٧٦ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَلِيُرْفَعَنَّ رِجَالُ مِنْكُمْ ثُمَّ لِيُخْتَلَجَنَّ دُوبِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ

أَصْحَابِي فَيَقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ) .

تَابَعَهُ عَاصِمٌ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ .

وَقَالَ حُصَيْنٌ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ حُدَيْفَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

[م : ٢٢٩٧] .

٦٥٧٧ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَمَامَكُمْ حَوْضٌ كَمَا بَيْنَ جُرْبَاءَ وَأَدْحَ) .

[م : ٢٢٩٩] .

٦٥٧٨ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ (الْكَوْثَرُ الْحَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ قَالَ أَبُو بَشِيرٍ قُلْتُ لِسَعِيدٍ إِنَّ أَنْسًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهْرٌ

فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ سَعِيدٌ النَّهْرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ) .

٦٥٧٩ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ مَاءُهُ أَبْيَضٌ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِبْرَانُهُ

كَنْجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا) .

[م : ٢٢٩٢] .

٦٥٨٠ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ اليمَنِ وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِقِ

كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ) .

[م : ٢٣٠٣] .

٦٥٨١ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ قَبَابُ الدَّرِّ الْمَجُوفِ قُلْتُ مَا هَذَا

يَا جَبْرِيلُ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طِينُهُ ، أَوْ طَيْبُهُ - مِسْكٌ أَذْفَرُ شَكِّ هُدْبُهُ) .

[م : ١٦٢] .

٦٥٨٢ - عَنْ أَنَسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضِ حَتَّى عَرَفْتُهُمْ اخْتَلَجُوا دُوبِي فَأَقُولُ أَصْحَابِي فَيَقُولُ

لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ) .

[م : ٢٣٠٤] .

٦٥٨٣ - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مِنْ مَرِّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا لَيَرِدَنَّ

عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرَفْتُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يَجَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ) .

[م : ٢٢٩٠] .

٦٥٨٤ - قَالَ أَبُو حَازِمٍ فَسَمِعَنِي الثُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ فَقَالَ هَكَذَا سَمِعْتُ مِنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ فَقَالَ أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ

لِسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي فَيَقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سَحَقًا سَحَقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ سَحَقًا بَعْدًا يُقَالُ سَحِيقٌ بَعِيدٌ وَأَسَحَقَهُ أَبْعَدَهُ .

٦٥٨٥ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَرِدُ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيَحِلُّوْنَ ، عَنِ الْحَوْضِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ

أَصْحَابِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَارَهُمُ الْقَهْقَرَى) .

٦٥٨٦- عَنْ ابْنِ شَهَابٍ ، عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (يَرُدُّ عَلَى الْحَوْضِ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيَحْلَوْنَ عَنْهُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى . وَقَالَ شُعَيْبٌ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَجْلُونَ . وَقَالَ عُقَيْلٌ فَيَحْلَوْنَ .

وَقَالَ الزُّبَيْدِيُّ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .
٦٥٨٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ فَقُلْتُ أَيْنَ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ قُلْتُ وَمَا شَأْنُهُمْ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ قُلْتُ أَيْنَ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ قُلْتُ مَا شَأْنُهُمْ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى فَلَا أَرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلَ هَمَلِ النَّعَمِ) .

٦٥٨٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) .
[م : ١٣٩١] .

٦٥٨٩- عَنْ جُنْدَبٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ) .
[م : ٢٢٨٩] .

٦٥٩٠- عَنْ عُقْبَةَ ﷺ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ عَلَى الْمَنْبَرِ فَقَالَ إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا) .
[م : ٢٢٩٦] .

٦٥٩١- عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ . قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ الْحَوْضَ فَقَالَ كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ .
[م : ٢٢٩٨] .

٦٥٩٢ - عَنْ حَارِثَةَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلَهُ حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْرِدُ أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ الْأَوَائِي قَالَ : لَا قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ تَرَى فِيهِ الْآبِيَةَ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ .
[م : ٢٢٩٨] .

٦٥٩٣- عَنْ أَسْمَاءِ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرُ مَنْ يَرُدُّ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا ، أَوْ نُفَتَنَ عَنْ دِينِنَا {أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ} تَرْجِعُونَ عَلَى الْعَقَبِ) .
[م : ٢٢٩٣] .

(أنا فرطكم على الحوض) - بفتح الراء - ؛ وهو : المتقدم إلى الماء ليهيئه ويصلحه .

(وَلَيُرْفَعَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ) بضم أوله وفتح الفاء ، أي : يظهرهم الله لي حتى أراهم .

(ثُمَّ لِيُخْتَلَجَنَّ دُونِي) بفتح اللام وسكون الخاء وضم الجيم ، أي : ينزعون أو يجذبون مني .

(حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ)

(مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ) وعند مسلم من حديث أبي ذر بلفظ (أشد بياضاً من اللبن) ، وكذا لابن مسعود عند أحمد .

(وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْكِ) وعند الترمذي من حديث ابن عمر (أطيب ريحاً من المسك) وزاد ابن أبي عاصم وابن أبي الدنيا

في حديث بريدة (وألين من الزيد) وزاد مسلم (وأحلى من العسل) وزاد أحمد في حديث ابن عمر ومن حديث ابن مسعود (وأبرد من الثلج) .

(وَكِبْرَانُهُ كُنُجُومُ السَّمَاءِ) وفي حديث أنس (وفيه من الأباريق كعدة نجوم السماء) وعند مسلم (فيه أباريق كنجوم السماء) (مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا) قيل : هو كناية عن أنه يدخل الجنة ، لأنه صفة من يدخلها .

(فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا) أي : بعداً بعداً .

١- ذكر المصنف - رحمه الله - هذه الأحاديث التي تثبت الحوض للنبي ﷺ .

مباحث الحوض :

■ تعريفه :

لغة : جمع الماء .

وشرعاً : جمع ماء عظيم يضعه الله عز وجل في عرصات القيامة يرده المؤمنون .
والعرصات : جمع عرصة ، وهي الأرض الفسيحة الواسعة التي لا بناء فيها ولا شجر .

■ يجب الإيمان بثبوت هذا الحوض للرسول ﷺ وقد تواترت أدلته :

قال ابن أبي العز (والأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً ، ولقد استقصى طرقها شيخنا عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته في آخر تاريخه الكبير المسمى : بالبداية والنهاية .

وقال القرطبي : وما يجب على كل مكلف أن يعلمه ، ويصدق به : أن الله تعالى قد خصَّ نبيه محمداً ﷺ بالكوثر الذي هو الحوض المصْرَحُ باسمه ، وصفته ، وشرابه وآنيته في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الشهيرة ؛ التي يحصل مجموعها العلم القطعي ، واليقين التواتري ؛ إذ قد روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيماً على الثلاثين . في الصحيحين منهم نيف على العشرين ، وباقيهم في غيرهما ، مما صح نقله ، واشتهرت روايته ، ثم قد رواها عن الصحابة من التابعين أمثالهم ، ثم لم تزل تلك الأحاديث مع توالي الأعصار ، وكثرة الرواة لها في جميع الأقطار ، تتوفر هم الناقلين لها على روايتها وتخليدها في الأمهات . (المفهم) .

وقال القاضي عياض رحمه الله : أَحَادِيثُ الْحَوْضِ صَحِيحَةٌ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ فَرَضٌ ، وَالتَّصَدِيقُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، لَا يُتَأَوَّلُ ، وَلَا يُخْتَلَفُ فِيهِ . قَالَ الْقَاضِي : وَحَدِيثُهُ مُتَوَاتِرٌ النَّقْلُ ، رَوَاهُ خَلَائِقٌ مِنَ الصَّحَابَةِ .

■ الحوض موجود الآن :

كما في حديث عقبة (... وإني والله لأنظرُ إلى حَوْضِي الْآنَ) .

قال ابن حجر : (والله إني لأنظر إلى حوضي الآن) يحتمل أنه كشف له عنه لما خطب ، وهذا هو الظاهر ، قال : ويحتمل أنه يريد رؤية القلب .

قال النووي : هَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْحَوْضَ حَوْضٌ حَقِيقِيٌّ عَلَى ظَاهِرِهِ كَمَا سَبَقَ ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مَوْجُودٌ الْيَوْمَ .

■ منبر الرسول ﷺ على حوضه .

كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ (وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) .

قال القرطبي : وقوله (ومنبري على حوضي) حمله أكثرهم على ظاهره ، فقال : يكون منبره ﷺ على منبره ذلك بعينه على حوضه . وقيل : إن له على حوضه منبراً آخر غير ذلك ، أعظم ، وأشرف منه . وقيل معناه : إن ملازمة منبر النبي ﷺ لسماع الذكر ، والوعظ ، والتعليم ، يُفْضِي بصاحبه إلى الورود على الحوض .

قال الشيخ ابن عثيمين : وهذا يحتمل أنه في هذا المكان ، لكن لا نشاهده ؛ لأنه غيبي ، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على

الحوض .

■ زمن الحوض :

قيل : قبل الصراط .

وهذا ما ذهب إليه القرطبي ، والغزالي .

لأن المقام يقتضي ذلك ؛ حيث إن الناس في حاجة إلى الشرب في عرصات القيامة قبل عبور الصراط .

وقيل : بعد الصراط .

وهذا ما استظهره الحافظ ابن حجر من مذهب البخاري ، حيث أورد البخاري أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة ،

وأحاديث نصب الصراط .

■ من يرد يرد حوض .

يرد حوض النبي ﷺ في الجملة كل مؤمن لم يتلبس بمانع من موانع ورود الحوض التي تضمنتها الأحاديث السابقة، غير أن النبي

ذكر بعض الأعمال الخاصة التي هي أسباب لنيل شرف ورود حوضه ﷺ منها :

أ-الصبر عند الأثرة .

عن أبي يحيى أسيد بن حضير ﷺ (أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا ، فَقَالَ :))

إِنْكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ب-عدم الدخول على أئمة الجور مملأة ونفاقاً لهم .

فعن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ أنه قال (أنه ستكون بعدي أمراء، من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم،

فليس مني ولست منه، وليس يرد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني

وأنا منه، وسيرد على الحوض) . رواه الترمذي والنسائي

■ في كيفية مائه ورائحته .

في الحديث (ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من ريح المسك) .

فقوله (ماؤه أشد بياضاً من اللبن) هذا في اللون .

وقوله (وأحلى من العسل) هذا في الطعم .

وقوله (وأطيب من ريح المسك) هذا في الرائحة .

■ آنيته :

في الحديث (.. آنيته كنجوم السماء) .

هذا اللفظ (كنجوم السماء) أشمل من لفظ (عدد نجوم السماء) ، كنجوم السماء في العدد ، وفي النور واللمعان .

■ آثار هذا الحوض :

جاء في الحديث (من يشرب منه فلا يظماً أبداً) .

● أول من يرد الحوض :

عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل

، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رؤوساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المنعمات ، ولا تفتح لهم السدد ،

الذين يعطون الحق الذي عليهم ، ولا يُعطون الذي لهم) رواه الترمذي وصححه الألباني .

■ مساحته .

جاء في الحديث (طوله شهر وعرضه شهر) .

■ مادته :

هذا الحوض يصب فيه ميزابان .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : (والذي نفسي بيده ، لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ، يشخب فيه ميزابان من الجنة ، من شرب منه لم يظماً ...) رواه مسلم .

■ اختلف العلماء هل لكل نبي حوض أم هو خاص برسولنا ﷺ .

قيل : لكل نبي حوض .

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لكل نبي حوضاً ، وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني أرجو أن أكون أكثر واردة). رواه الترمذي [وهذا الحديث مختلف فيه فبعضهم صححه وبعضهم ضعفه ولو صح لكان نصاً في محل النزاع].

وقيل : أنه لا حوض إلا لرسول ﷺ .

قالوا : إن الحديث (إن لكل نبي حوضاً) فيه ضعف .

وقالوا : إن حوض النبي ﷺ هو الحوض الذي تواترت فيه الأدلة .

ورجح بعضهم : لكل نبي حوض ، لكن الحوض الأكبر والأفضل والأعظم هو حوض الرسول ﷺ .

■ مساحة الحوض .

بالنسبة لمساحة الحوض فقد اختلفت فيه الروايات :

جاء في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (حوضي مسيرة شهر) .

وجاء من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال (كما بين المدينة وصنعاء) متفق عليه

وجاء من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (إن أمامكم حوضاً كما بين جرباء وأذرح) متفق عليه

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن) متفق عليه .

وجاء من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (وإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة) رواه مسلم .

وجاء من حديث ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (حوضي من عدن إلى عمان البلقاء) رواه الترمذي .

وجاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (إن لي حوضاً ما بين الكعبة وبيت المقدس) . رواه ابن ماجه

وأجاب العلماء عن هذا الاختلاف فيما يلي :

قال القرطبي رحمه الله : ظن بعض الناس أن هذه التحديدات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف وليس كذلك ، وإنما

تحدث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة ، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطباً لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات

مواقعها ، فيقول لأهل الشام (ما بين جرباء وأذرح) ويقول لأهل اليمن (من صنعاء إلى عدن) وهكذا تارة أخرى يقدر

بالزمان والزوايا ، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات ، فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها

وقال القاضي عياض رحمه الله : وهذا كله من اختلاف التقدير ، ليس في حديث واحد فيحسب اختلافاً واضطراباً من الرواة ،

وإنما جاء في أحاديث مختلفة عن غير واحد من الصحابة سمعوه في مواطن مختلفة ، ضرب النبي ﷺ في كل واحد منها ميلاً لبعده

أقطار الحوض ، وسعته وكبره ، بما تسنح له من العبارة وقرب للأفهام لبعده ما بين البلاد النائية البعيدة بعضها عن بعض ، لا

على إرادة المسافة المحققة ، فهذا تجتمع هذه الألفاظ من جهة المعنى ، والله أعلم .

وأجاب النووي : بأنه ليس في ذكر المسافة القليلة ما يدفع الكثيرة ، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة .
قال ابن حجر : وحاصله انه يشير إلى أنه أخبر أولاً بالمسافة اليسيرة ، ثم أعلم بالمسافة الطويلة فأخبره بها ، كأن الله تفضل عليه
باتساعه شيئاً بعد شيء فيكون الاعتماد على ما يدل على أطولها مسافة .
قال ابن حجر : وتقدم قول من جمع الاختلاف بتفاوت الطول والعرض .
ورده بما في حديث عبد الله بن عمرو (زواياه سواء) ووقع أيضاً في حديث النواس بن سميان وجابر وأبي برة وأبي ذر (طوله
وعرضه سواء) .

وجمع غيره بين الاختلافين الأولين باختلاف السير البطيء وهو سير الانتقال والسير السريع وهو سير الراكب المخف . (الفتح)
والخلاصة :

من العلماء : من جمع بأن اختلافها إنما هو بالنسبة للطول والعرض .
ومنهم : من جمع بأن اختلافها بحسب ما يعرفه السائل من حجازي أو يمني أو شامي .
ومنهم : من جمع بأن اختلافها إنما هو بالنسبة للمجد في السير والبطيء فيه .
ومنهم : من جمع بأن النبي ﷺ أخبر بالمسافة القريبة أولاً ثم أعلمه الله بالزيادة فضلاً منه ورحمة .
فائدة : وقد ذكر العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في صفة الحوض فقال : " هذا إذاً يقتضي أن يكون مدوراً ، لأنه لا
يكون بهذه المساحة من كل جانب إلا إذا كان مدوراً " .
وذكر أبو العباس القرطبي رحمه الله أنه يكون معتدل التربع .

■ من يحرم من الشرب من الحوض :

عن سهل . قال : قال رسول الله (أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظماً أبداً ، وليردن عليّ أقوام
أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم) .
وفي رواية (إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم ، سيؤخذ أناس دوبي ، فأقول : يا رب مني ومن أمي ؟ فيقال : أما
شعرت ما عملوا بعدك ، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم) .
وفي رواية : (إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقري) . رواه البخاري

■ الفرق بين الكوثر والحوض :

- أ- أن الكوثر أعظم من الحوض ، فالكوثر نهر عظيم يجري ، والحوض مجمع الماء .
- ب- أن الكوثر في الجنة ، والحوض في أرض المحشر .
- ج- أن الكوثر أصل ، والحوض فرع عنه ، لأنه ثبت أن للحوض ميزابين .

■ مكان الحوض .

قال القرطبي : ولا يخطر ببالك أو يذهب وهمك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض ، وإنما يكون وجوده في الأرض
المبدلة على مسامطة هذه الأقطار ، أو في المواضع التي تكون بدلاً من هذه المواضع في هذه الأرض ، وهي أرض بيضاء كالفضة
لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها أحد قط كما تقدم ، تظهر لنزول الجبار حل جلاله لفصل القضاء
٢- قوله (يَرِدُ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيَحَلُّونَ ، عَنِ الْحَوْضِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ
بِمَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا ...) .

اختلف العلماء في المراد بهم : ويمكن أن يقال :

أ-مرتدون عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ ، وكانوا أسلموا في حياته ورأوه وهم على الإسلام

ب- مرتدون عن الإسلام في أواخر حياته ﷺ ، ولم يكن يعلم بكفرهم .

ج-أهل النفاق ممن أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر

د-أهل الأهواء الذين غيروا سنة النبي صلى الله وسلم وهديه ، كالروافض ، والخوارج.

هـ-وبعض العلماء يُدخل فيهم : أهل الكبائر ، وله ما يؤيد من السنة ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضُ) .

ولفظ (أمّتي) في الأحاديث يصدق على أهل القول الرابع، والخامس، ولفظ (أصحابي) و (أصحابي) على الأقوال الثلاثة الأولى.

ومما يدل على أنهم من أمته ﷺ أنه عرفهم بالغرة والتحجيل ، وهي سيما خاصة بهذه الأمة ، ويكون تعرف النبي

ﷺ هناك بصفاتهم ، لا بأعيانهم ؛ لأنهم جاءوا بعده

ومما يدل على دخول المنافقين في اسم (أصحابي) قوله ﷺ (لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) رواه البخاري .

وهذا معنى لغوي بحت للصحبة ، ليس أنهم استحقوا شرفها ؛ لأن تعريف الصحابي الاصطلاحي لا يصدق على هؤلاء

وهذه طائفة من أقوال أهل العلم في تلك الأحاديث

قال النووي - رحمه الله - في شرح الحديث:

قوله (وَهَلْ تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ) وَفِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى : (قَدْ بَدَلْتُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ سُخْفًا سُخْفًا) .

هَذَا بِمَّا اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِهِ عَلَى أَقْوَالٍ :

أَحَدَهَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُرْتَدُونَ فَيَجُوزُ أَنْ يُحْشَرُوا بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ فَيُنَادِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْسِّيْمَا الَّتِي عَلَيْهِمْ فَيُقَالُ :

لَيْسَ هَؤُلَاءِ بِمَّا وَعَدْتُ بِهِمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ بَدَلُوا بَعْدَكَ ، أَيْ : لَمْ يَمُوتُوا عَلَى مَا ظَهَرَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ مَنْ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ ارْتَدَّ بَعْدَهُ ، فَيُنَادِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ سِيْمَا الْوُضُوءِ لَمَّا كَانَ يَعْرِفُهُ

ﷺ فِي حَيَاتِهِ مِنْ إِسْلَامِهِمْ فَيُقَالُ : ارْتَدُّوا بَعْدَكَ .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْحَابُ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى التَّوْحِيدِ وَأَصْحَابُ الْبِدَعِ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا بِبِدْعَتِهِمْ عَنِ

الإِسْلَامِ ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ لَا يَقَعُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُدَادُونَ بِالنَّارِ ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يُدَادُوا عُقُوبَةً لَهُمْ ثُمَّ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ . قَالَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ : وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ غُرَّةٌ وَتَحْجِيلٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَانُوا فِي زَمَنِ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْدَهُ لَكِنْ عَرَفَهُمْ بِالسِّيْمَا

وقال الحافظ ابن حجر : وقال الخطابي : لم يرتد من الصحابة أحد ، وإنما ارتد قوم من جفاة العرب ، ممن لا نصرة له في الدين

، وذلك لا يوجب قدحاً في الصحابة المشهورين ، ويدل قوله : (أصحباي) بالتصغير على قلة عددهم .

وقال الشيخ عبد القاهر البغدادي : أجمع أهل السنة على أن الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ من كِنْدَةَ ، وحنيفة ، وفزارة ، وبنو

أسد ، وبنو بكر بن وائل ، لم يكونوا من الأنصار ، ولا من المهاجرين قبل فتح مكة ، وإنما أطلق الشرع اسم المهاجرين على من

هاجر إلى النبي ﷺ قبل فتح مكة ، وأولئك بحمد الله ومنه درجوا على الدين القويم ، والصراط المستقيم .

وأجمع أهل السنة على أن من شهد مع رسول الله بداراً : من أهل الجنة ، وكذلك كل من شهد معه بيعة الرضوان بالحديبية .

وقال الشاطبي - رحمه الله - والأظهر : أنهم من الداخلين في غمار هذه الأمة ؛ لأجل ما دل على ذلك فيهم ، وهو الغرة

والتحجيل ؛ لأن ذلك لا يكون لأهل الكفر المحض ، كان كفرهم أصلاً ، أو ارتداداً ، ولقوله (قد بدلوا بعدك) ، ولو كان

الكفر : لقال (قد كفروا بعدك) ، وأقرب ما يحمل عليه : تبديل السنة ، وهو واقع على أهل البدع ، ومن قال : إنه النفاق :
فذلك غير خارج عن مقصودنا ؛ لأن أهل النفاق إنما أخذوا الشريعة تقيّةً ، لا تعبدًا ، فوضعوها غير مواضعها ، وهو عين
الابتداع .

ويجري هذا المجرى كل من اتخذ السنّة والعمل بها حيلةً وذريعةً إلى نيل حطام الدنيا ، لا على التعبد بما لله تعالى ؛ لأنه تبديل لها ،
وإخراج لها عن وضعها الشرعي

وقال القرطبي : قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكلُّ من ارتد عن دين الله ، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ، ولم يأذن به
الله : فهو من المطرودين عن الحوض ، المبعدين عنه ، وأشدّهم طرداً : من خالف جماعة المسلمين ، وفارق سبيلهم ، كالخوارج
على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلهم مبدّلون ، وكذلك الظلمة
المسرفون في الجور ، والظلم ، وتطميس الحق ، وقتل أهله ، وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر ، المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل
الزيف ، والأهواء ، والبدع .

ثم البعد قد يكون في حال ، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ، ولم يكن في العقائد ، وعلى هذا التقدير يكون
نور الوضوء ، يُعرفون به ، ثم يقال لهم (سحقا) ، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ،
ويُسرون الكفر : فيأخذهم بالظاهر ، ثم يكشف له الغطاء فيقول لهم : (سحقا سحقا) ، ولا يخلد في النار إلا كافر ، جاحد
، مبطل ، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . (التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة) .

٣- خطر البدعة والابتداع ، فإنه يكون سبباً للطرد من الحوض .

٤- إثبات الحوض .

٥- بيان شرف هذه الأمة حيث كان نبيها ﷺ فرطاً لها على الحوض تشرب بيده الشريفة .

٦- بيان شفقة النبي ﷺ على أمته ، وشدة عنايته بهم ، فإنه ينتظرهم في ذلك اليوم العظيم .